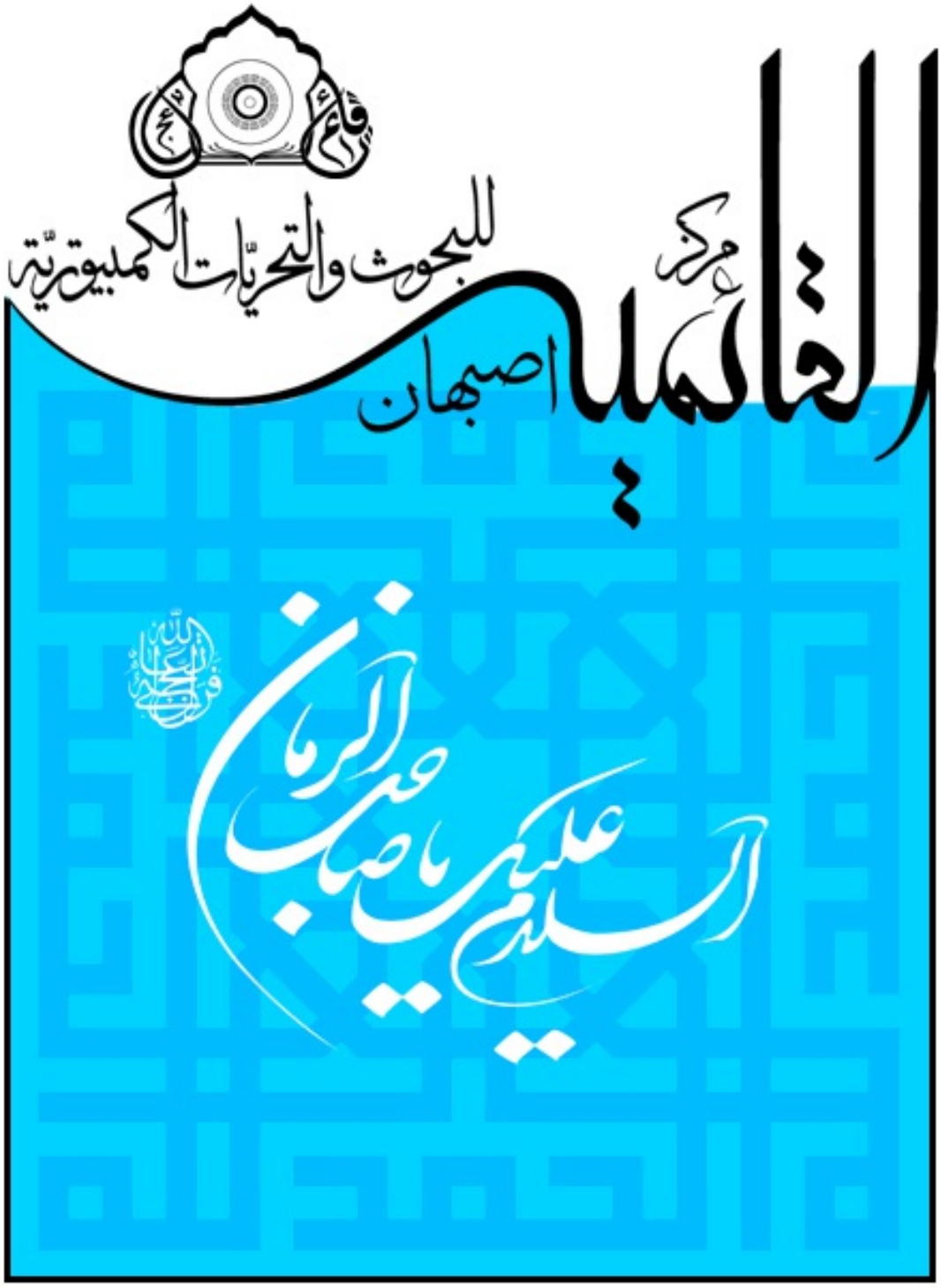

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

النجوم الزاهرة

في ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤ هـ

جلد ٨

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس تحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم

النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره

كاتب:

جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی

نشرت فی الطباعة:

وزاره الثقافه والارشادالقومی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة المجلد ۸ ----- ۷
اشارة ----- ۷
تقدیم ----- ۷
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۰] ----- ۸
ذکر ولایة الملک الأشرف خلیل علی مصر ----- ۸
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۱] ----- ۱۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۲] ----- ۲۰
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۳] ----- ۲۲
ذکر سلطنة الملک الناصر محمد بن قلاوون الأولی علی مصر ----- ۲۲
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۴] ----- ۲۷
ذکر سلطنة الملک العادل زین الدّین کتبغا علی مصر ----- ۲۷
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۵] ----- ۳۶
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۶] ----- ۳۸
ذکر سلطنة الملک المنصور لا چین علی مصر ----- ۳۸
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۷] ----- ۴۸
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۸] ----- ۴۹
ذکر سلطنة الملک الناصر محمد بن قلاوون الثانیة علی مصر ----- ۴۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۹] ----- ۷۶
اشارة ----- ۷۶
ذکر من عدم فی هذه السنة فی وقعة حمص مع التّتار ----- ۷۷
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۰] ----- ۷۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۱] ----- ۸۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۲] ----- ۸۱
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۳] ----- ۸۳
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۴] ----- ۸۵
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۵] ----- ۸۶
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۶] ----- ۸۷
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۷] ----- ۸۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۸] ----- ۹۰
[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۹] ----- ۹۱
ذکر سلطنة الملک المظفّر بیبرس الجاشنکیر علی مصر ----- ۹۱
استدراکات علی بعض تعلیقات وردت فی الجزء السابع من هذا الکتاب لحضرة الأستاذ محمد رمزی بک ----- ۱۱۲
زاویة الشیخ أبی السعود بن أبی العشائر ----- ۱۱۲
الحد الذی کان ینتهی عنده النیل علی شاطئه الشرقی تجاه مدینتی مصر القدیمة و القاهرة وقت فتح العرب لمصر ----- ۱۱۳
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۱۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة المجلد ۸

اشارة

سرشناسه : ابن تغری بردی، یوسف بن تغری بردی، ۸۱۳-۸۷۴ق.

عنوان و نام پدیدآور : النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره/ تالیف جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی.

وضعیت ویراست : [ویراست ؟].

مشخصات نشر : قاهره: وزاره الثقافه والارشادالقومی، الموسسه المصریه العامه، ۱۳۴۲.

سال چاپ: ۱۳۹۲ ه. ق

نوبت چاپ: اول

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱۶

مشخصات ظاهری : ۱۶ج. (درسه مجلد).

یادداشت : عربی.

یادداشت : جلد سیزدهم تاجلد شانزدهم توسط فهیم محمد شلتوت، جمال‌الدین شیال و ابراهیم علی طرخان تصحیح‌شده توسط الهیئه‌المصریه‌العامه للتالیف و النشر منتشر گردیده است.

یادداشت : ج.۱، ۲، ۳، ۴، ۷ ، ۸ ، ۱۱ و ۱۲ (چاپ ؟: ۱۳).

یادداشت : ج. ۱۵ (چاپ؟: ۱۳۹۱ق. = ۱۹۷۱م. = ۱۳۵۰).

یادداشت : ج.۱۶ (چاپ؟ = ۱۳۹۲ق. = ۱۹۷۲م. = ۱۳۵۱).

یادداشت : بالای عنوان: تراثنا.

یادداشت : کتابنامه.

عنوان دیگر : تراثنا.

موضوع : مصر -- شاهان و فرمانروایان

موضوع : مصر -- تاریخ -- ۱۹ - ۸۹۷ق.-- سالشمار.

شناسه افزوده : شلتوت، فهیم محمد، مصحح

شناسه افزوده : شیال، جمال‌الدین، مصحح

شناسه افزوده : طرخان، ابراهیم علی، مصحح

رده بندی کنگره : DT۹۵/الف۲ن۳ ۱۳۴۲

رده بندی دیویی : ۹۶۲/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۵-۵۵۴۷

تقدیم

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلّی اللّه علی سیّدنا محمد و آله و صحابته و المسلمین الجزء الثامن من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک

مصر و القاهرة

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۰]

ذكر ولاية الملك الأشرف خليل على مصر

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفىّ الصالحىّ النّجمىّ، جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه فى يوم الأحد سابع ذى القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة. و كان والده قلاوون قد سلطنه فى حياته بعد موت أخيه الملك الصالح علىّ بن قلاوون فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و المعتدّ به جلوسه الآن على تخت الملك بعد موت أبيه. و جدّد له الأمراء و الجند الحلف فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة المذكور. و طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده، فأخرجه إليه مكتوبا بغير علامة الملك المنصور، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴

ابن عبد الظاهر قد قدّمه إليه ليعلّم عليه فلم يرض، و تقدّم طلب الأشرف و تكرّر؛ و ابن عبد الظاهر يقدّمه إلى الملك المنصور، و المنصور يمتنع إلى أن قال له:

يا فتح الدين، أنا ما أولّى خليلا على المسلمين! و معنى ذلك أنّ الملك المنصور قلاوون كان قد ندم على توليته السلطنة من بعده. فلمّا رأى الأشرف التقليد بلا علامة، قال: يا فتح الدين، السلطان امتنع أن يعطينى و قد أعطانى اللّه! و رمى التقليد من يده و تمّ أمره، و رتّب أمور الديار المصريّة، و كتب بسلطنته إلى الأقطار، و أرسل الخلع إلى النوّاب بالبلاد الشامية.

و هو السلطان الثامن من ملوك الترك و أولادهم. ثم خلع على أرباب وظائفه بمصر، و الذين خلع عليهم من الأعيان: الأمير بدر الدين بيدرا المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصريّة، و وزيره و مدبّر مملكته شمس الدين محمد بن السّلعوس الدّمشقىّ، و هو فى الحجاز الشريف. و على بقيّة أرباب وظائفه على العادة و النوّاب بالبلاد الشاميّة يوم ذاك. فكان نائبه بدمشق و ما أضيف إليها من الشام الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ. و نائب السلطنة بالممالك الحلبيّة و ما أضيف إليها الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ. و نائب الفتوحات الساحليّة و الأعمال الطرابلسيّة و القلاع الإسماعيليّة الأمير سيف الدين بلبان السّلحدار المعروف بالطبّاخى.

و نائبه بالكرك و الشوبك و ما أضيف إلى ذلك الأمير ركن الدين بيبرس الدّوادار المنصورىّ، صاحب التاريخ المعروف «بتاريخ بيبرس الدوادار». و صاحب حماة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵

و المعرّة الملك المظفّر تقىّ الدين محمود ابن الملك المنصور محمد الأيّوبىّ. و الذين هم تحت طاعته من الملوك صاحب مكّة المشرّفة الشريف نجم الدين أبو نمىّ محمد بن إدريس بن علىّ بن قتادة الحسنىّ، و صاحب اليمن الملك المظفّر شمس الدين يوسف ابن عمر، فهؤلاء الذين أرسل إليهم بالخلع و التقاليد. انتهى.

و لمّا رسخت قدم الملك الأشرف هذا فى الملك أخذ و أعطى و أمر و نهى؛ و فرّق الأموال و قبض على جماعة من حواشى والده، و صادرهم على ما يأتى ذكره.

و لمّا استهلّت سنة تسعين و ستّمائة أخذ الملك الأشرف فى تجهيزه إلى السّفر للبلاد الشاميّة، و إتمام ما كان قصده والده من حصار عكّا، و أرسل إلى البلاد الشاميّة و جمع العساكر و عمل آلات الحصار، و جمع الصّيّناع إلى أن تمّ أمره، خرج بعساكره من الديار المصريّة فى ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة، و سار حتّى نازل عكّا فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، و يوافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكّا من الأمم ما لا يحصى كثرة. و كان المطّوّعة أكثر من الجند و من فى الخدمة. و نصب عليها

المجانيق الكبار الفرنجيّة خمسة عشر منجنيقا، منها ما يرمى بقنطار دمشقىّ و أكبر، و منها دونه. و أمّا المجانيق الشيطانيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶

و غيرها فكثيرة، و نقب عدّة نقوب. و أنجد أهل عكّا صاحب قبرس بنفسه و فى ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانا عظيمة لم ير مثلها فرحا به، و أقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عند ما شاهد انحلال أمرهم و عظم ما دهمهم. و لم يزل الحصار عليها و الجدّ فى أمر قتالها إلى أن انحلّت عزائم من بها و ضعف أمرهم و اختلفت كلمتهم.

هذا و الحصار عمّال فى كلّ يوم، و استشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلمّا كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان و العساكر و زحفوا عليها قبل طلوع الشمس، و ضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة و حسّ عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها و للأسوار هرب الفرنج و ملكت المدينة بالسيف، و لم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا و قد استولى المسلمون عليها و دخلوها؛ و طلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلاميّة تقتل و تأسر فلم ينج منهم إلّا القليل؛ و نهب ما وجد من الأموال و الذخائر و السلاح و عمل الأسر و القتل فى جميع أهلها، و عصى الدّيويّة و الإسبتار و استتر الأرمن فى أربعة أبراج شواهق فى وسط البلد فحصروا فيها.

فلمّا كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، و هو ثانى يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند و غيرهم الدار و البرج الذى فيه الدّيويّة فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان و سيّر لهم صنجقا، فأخذوه و رفعوه على برجهم و فتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷

كثيرة من الجند و غيرهم، فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند و العوامّ للنهيب، و مدّوا أيديهم إلى من عندهم من النساء و الأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب و وضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعة من المسلمين، و رموا الصّنجق و تمسّكوا بالعصيان و عاد الحصار عليهم. و فى اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم و حريمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ، و تمّ القتال على برج الدّيويّة و من عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى طلب الدّيويّة و من بقى فى الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم و حريمهم على أن يتوجّهوا حيث شاءوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين و أسروا مثلهم، و ساقوا إلى باب الدّهليز النساء و الصّبيان، و كان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقبغا المنصورىّ أحد أمراء الشام كان طلع إليهم فى جملة من طلع فأمسكوه و قتلوه، و عرقبوا ما عندهم من الخيول، و أذهبوا ما أمكنهم إذهابه؛ فتزايد الحنق عليهم. و أخذ الجند و غيرهم من السّبى و المكاسب ما لا يحصى.

و لمّا علم من بقى منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان، و امتنعوا من قبول الأمان و قاتلوا أشدّ قتال، و اختطفوا خمسة نفر من المسلمين و رموهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد و مات الأربعة. ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذى تأخّر بعكا، و أنزل من فيه بالأمان، و كان قد غلّق من سائر جهاته. فلمّا نزلوا منه و حوّلوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين و ممّن قصد النّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلك عزل السلطان النساء و الصّبيان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸

ناحية و ضرب رقاب الرجال أجمعين و كانوا خلائق كثيرة. و العجب أن اللّه سبحانه و تعالى قدّر فتح عكّا فى مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه، و مثل الساعة التى أخذوها فيها، فإنّ الفرنج كانوا استولوا على عكّا فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع و ثمانين و خمسمائة] فى الساعة الثالثة من النهار، و أمّنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدرا، و قدّر اللّه تعالى أنّ المسلمين استرجعوها منهم فى هذه المرّة يوم الجمعة فى الساعة الثالثة من النهار، و وافق السابع عشر من جمادى الأولى، و أمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم اللّه تعالى من عاقبتهم.

و كان السلطان عند منازلته عكّا قد جهّز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير علم الدين سنجر الصّوابى الجاشنكير إلى صور لحفظ الطّرق

و تعرّف الأخبار، و أمره بمضايقة صور. فبينما هو فى ذلك لم يشعر إلّا بمراكب المنهزمين من عكّا قد وافت الميناء التى لصور، فحال بينها و بين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمّنهم على أنفسهم و أموالهم و يسلّموا صور فأجيبوا إلى ذلك، فتسلّمها. و صور من أجلّ الأماكن و من الحصون المنيعة، و لم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلّما فتح مكانا و أمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها و منعتها، فألقى اللّه تعالى فى قلوب أهلها الرّعب حتّى سلّموها من غير قتال و لا منازلة، و لا كان الملك الأشرف فى نفسه شىء من أمرها البتّة.

و عند ما تسلّمها جهّز إليها من أخربها و هدم أسوارها و أبنيتها، و نقل من رخامها و أنقاضها شىء كثير. و لمّا تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوى عزم الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹

الأشرف على أخذ غيرها. و لمّا كان الملك الأشرف محاصرا لعكّا استدعى الأمير حسام الدين لا چين المنصورىّ نائب الشام، و هو الذى تسلطن بعد ذلك حسب ما يأتى ذكره، و الأمير ركن الدين بيبرس المعروف بطقصو فى ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى إلى المخيّم و أمسكهما و قيّدهما، و جهّزهما فى بكرة نهار الاثنين إلى قلعة صفد، و منها إلى قلعة الجبل. و كان تقدّم قبل ذلك بستّة أيام مسك الأمير سنجر المعروف بأبى خرص و جهّزه إلى الديار المصريّة محتاطا عليه. ثم استقرّ الملك الأشرف بالأمير علم الدين سنجر الشّجاعى المنصورىّ فى نيابة الشام عوضا عن الأمير لاچين المذكور.

و عند ما أمسك الأشرف هذين الأميرين الكبيرين حصل للناس قلق شديد و خشوا من حدوث أمر يكون سببا لتنفيس الخناق عن أهل عكّا، فكفى اللّه تعالى ذلك.

ثم أمسك الأشرف الأمير علم الدين أيدغدى الإلدكزىّ نائب صفد و ما معها لأمر نقمه عليه و صادره، و جعل مكانه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحىّ العمادىّ، و أضاف إليه مع ولاية صفد عكّا و ما استجد من الفتوحات الأشرفيّة. ثم لما فرغ الأشرف من مصادرة أيدكين المذكور ولّاه برّصفد عوضا عن علم الدين سنجر الصّوابىّ. ثم استدعى الملك الأشرف الأمير بيبرس الدّوادار المنصورى الخطائى المؤرّخ نائب الكرك و عزله، و ولّى عوضه الأمير آقوش الأشرفىّ. ثم رحل الملك الأشرف عن عكّا فى بكرة نهار الاثنين خامس جمادى الآخرة، و دخل دمشق يوم الاثنين ثانى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰

عشره بعد أن زيّنت له دمشق غاية الزينة، و عملت القباب بالشوارع من قريب المصلّى إلى الباب الجديد، و حصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف، و دخل و بين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول و فى أرجلهم القيود، و منهم الحامل من سناجق الفرنج المنكّسة، و فيهم من حمل رمحا عليه من رءوس قتلى الفرنج؛ فكان لقدومه يوم عظيم. و أقام الأشرف بدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. و عاد إلى الديار المصريّة فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فاحتفل أيضا أهل مصر لملاقاته احتفالا عظيما أضعاف احتفال أهل دمشق، و عند دخوله إلى مصر أطلق رسل صاحب عكّا الذين كانوا معوّقين بالقاهرة. ثم إنّ الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ نائب الشام فتح صيدا بعد حصار كبير بالأمان فى يوم السبت خامس عشر شهر رجب. و لمّا أخذت هذه البلاد فى هذه السنة أمر السلطان أن تخرّب قلعة جبيل و أسوارها بحيث يلحقها بالأرض فخرّبت أصلا؛ ثم أخذت عثليث بعد شهر.

و أمّا أهل أنطرطوس لمّا بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرّد الأمير سيف الدين بلبان الطّباخى عسكرا، فلمّا أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱

ركبوا البحر و هربوا إلى جزيرة أرواد، و هى بالقرب منها، فندب إليها السّعدىّ بما كان أحضره من المراكب و الشوانى فأخلوها. و كان فتح هذه المدن الستّ فى ستة شهور.

ثم رسم الملك الأشرف بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الدوادار؛ فقبض عليه فى شهر رمضان، و جهّز الى الديار المصريّة بعد أن أحيط على جميع موجوده، ثم أفرج الملك الأشرف على جماعة من الأمراء ممّن كان قبض عليهم و حبسهم.

و هم: الأمير لا چين المنصوريّ الذى تسلطن بعد ذلك، و بيبرس طقصو الناصريّ، و سنقر الأشقر الصالحيّ، و بدر الدين بيسرى الشمسيّ، و سنقر الطويل المنصوريّ، و بدر الدين خضر بن جودى القيمريّ. و فى شهر رمضان سنة تسعين و ستمائة المذكورة أنعم السلطان الملك الأشرف على علم الدين سنجر المنصوريّ المعروف بأرجواش خبزا و خلع عليه و أعيد إلى ولاية قلعة دمشق. ثم طلب الملك الأشرف قاضى القدس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة إلى الديار المصرية و ولّاه قضاءها بعد عزل قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز. و استمرّ الملك الأشرف بالديار المصريّة إلى أن تجهّز و خرج منها قاصدا البلاد الشامية فى يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر من سنة إحدى و تسعين و ستمائة، و سار حتّى دخل دمشق فى يوم السبت سادس جمادى الأولى. و فى ثامن جمادى الأولى أحضر السلطان الأموال و أنفق فى جميع العساكر المصريّة و الشامية. و وصل الملك المظفر تقيّ الدين صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲

حماة لتلقّى الملك الأشرف فالتقاه فزاد السلطان فى إكرامه، و استعرض الجيوش عليه و أمر بتسفيرهم قدّام الملك المظفّر المذكور. ثم توجّه الملك الأشرف من دمشق بجميع العساكر قاصدا حلب، فوصلها فى ثامن عشرين جمادى الأولى، ثم خرج منها و نزل على قلعة الروم بعساكره و حاصرها إلى أن افتتحها بالسيف عنوة فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب، و كتب البشائر إلى الأقطار بأخذها. ثم عاد السلطان إلى دمشق و ترك بقلعة الروم الشّجاعيّ و عساكر الشام ليعمّروا ما انهدم منها فى الحصار.

و كان دخول السلطان إلى دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان بعد أن عزل الأمير قرا سنقر المنصوريّ عن نيابة حلب بالأمير بلبان الطبّاخى، و ولّى عوضا عن الطّباخى فى الفتوحات طغريل الإيغانى. و لمّا كان السلطان بدمشق عمل عسكره النّوروز كعادتهم بالديار المصريّة، و عظم ذلك على أهل دمشق لعدم عادتهم بذلك.

و فى يوم الجمعة ثامن عشرين شهر رمضان قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، و على الأمير ركن الدين طقصو، و هرب الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ و نادوا عليه بدمشق: من أحضره فله ألف دينار، و من أخفاه شنق.

ثمّ ركب الملك الأشرف و مماليكه فى طلب لاچين المذكور، و أصبح يوم العيد و السلطان فى البرية مهجّج، و كانوا عملوا السّماط كجارى العادة فى الأعياد، و أطلعوا المنبر إلى الميدان الأخضر و طلع الخطيب موفّق الدين فصلّى فى الميدان بالعوامّ، و عاد السلطان بعد صلاة العصر إلى دمشق، و لم يقع للاچين على خبر. ثم سيّر الملك الأشرف طقصو و سنقر الأشقر تحت الحوطة إلى الديار المصريّة. و أمّا لاچين فإنّ العرب أمسكوه و أحضروه إلى الملك الأشرف فأرسله الملك الأشرف مقيّدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳

إلى مصر. و فى سادس شوّال ولّى السلطان الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ نيابة دمشق عوضا عن الشّجاعيّ.

ثم خرج الأشرف من دمشق قاصدا الديار المصريّة فى ليلة الثلاثاء عاشر شوّال، و كان قد رسم الأشرف لأهل الأسواق بدمشق و ظاهرها أنّ كلّ صاحب حانوت يأخذ بيده شمعة و يخرج إلى ظاهر البلد، و عند ركوب السلطان يشعلها؛ فبات أكثر أهل البلد بظاهر دمشق لأجل [الوقدو] الفرجة! فلمّا كان الثّلث الأخير من الليل ركب السلطان و أشعلت الناس الشموع، فكان أوّل الشمع من باب النصر و آخر الوقيد عند مسجد القدم، لأنّ والى دمشق كان قد رتّبهم من أوّل الليل، فكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها. و سافر السلطان حتّى دخل الديار المصريّة يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة من باب النصر و خرج من باب زويلة، و احتفل أهل مصر لدخوله احتفالا عظيما، و كان يوم دخوله يوما مشهودا. و لمّا أن طلع السلطان إلى قلعة الجبل أنعم على الأمير قرا سنقر المنصوريّ المعزول عن نيابة حلب بإمرة مائة فارس بديار مصر. ثم أفرج عن الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ و أعطاه أيضا خبز مائة فارس بديار مصر، و سببه أنّ السلطان عاقب سنقر الأشقر و ركن الدين طقصو فاعترفوا أنّهم كانوا يريدون قتله، و أنّ لا چين لم يكن معهم و لا كان له اطّلاع على الباطن

فخنقهم و أفرج عن لاچين بعد ما كان وضع الوتر فى حلقه لخنقه، فضمنه خشداشه الأمير بدر الدين بيدرا المنصوريّ نائب السلطان، و علم الدين سنجر الشجاعيّ و غيرهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴

قلت و سنقر الأشقر هو الذى كان تسلطن بدمشق فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون، و وقع له معه تلك الأمور المذكورة فى عدّة أماكن. و أمّا لاچين هذا فهو الذى تسلطن بعد ذلك و تلقّب بالملك المنصور حسب ما يأتى ذكره.

و كلّما ذكرنا من حينئذ لاچين فهو المنصور و لا حاجة للتعريف به بعد ذلك.

ثم إنهم أخرجوا الأمراء المخنّقين و سلّموهم إلى أهاليهم، و كان السلطان خنق معهما ثلاثة أمراء أخر فأخرجوا الجميع و دفنوا؛ ثم غرّق السلطان جماعة أخرى، و قيل إنّ ذلك كان فى مستهلّ سنة اثنتين و تسعين و ستّمائة. و استمرّ السلطان بمصر إلى أن تجهّز و خرج منها إلى الشام فى جمادى الأولى من سنة اثنتين و تسعين و ستمائة المذكورة، و سار حتّى دخل دمشق فى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة؛ و نزل بالقصر الأبلق من الميدان الأخضر.

و لمّا استقر ركابه بدمشق شرع فى تجهيز العساكر إلى بلاد سيس و الغارة عليها، فوصل رسل صاحب سيس بطلب الصلح و رضا السلطان عليه، و مهما طلب منه من القلاع و المال أعطاه و شفع الأمراء فى صاحب سيس، و اتّفق الحال على أن يتسلّم نوّاب السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع، و هى:

بهسنا و مرعش و تلّ حمدون ففرح الناس بذلك، لأنه كان على المسلمين من بهسنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵

أذّى عظيم. و أقام السلطان بدمشق إلى مستهلّ شهر رجب توجّه منها، و صحبته عسكر الشام و الأمراء و بعض عساكر مصر. و أمّا الضعفاء من عسكر مصر فأعطاهم السلطان دستورا بعودتهم إلى الديار المصريّة. و سار السلطان حتّى وصل إلى حمص، ثم توجّه منها إلى سلمية مظهرا أنّه متوجّه إلى ضيافة الأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى بن مهنّا أمير آل فضل، و كان خروج السلطان من دمشق فى ثانى شهر رجب، فلمّا كان بكرة يوم الأحد سابع شهر رجب وصل الأمير لاچين و صحبته مهنّا إلى دمشق و هو مقبوض عليه، أمسكه السلطان لمّا انقضت الضيافة و ولّى غوضه شخصا من أولاد عمّه، و هو الأمير محمد بن علىّ بن حذيفة. و فى بقيّة النهار وصل السلطان إلى دمشق، و رسم للأمير بيدرا أن يأخذ بقيّة العساكر و يتوجّه إلى مصر، و أن يركب تحت الصناجق عوض السلطان و بقى السلطان مع خواصّه بدمشق بعدهم ثلاثة أيام؛ ثم خرج من دمشق [فى يوم السبت ثالث عشر رجب] و عاد إلى جهة الديار المصريّة فى العشر الأخير من شهر رجب من سنة اثنتين و تسعين و ستمائة؛ ثم إن السلطان أمر الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ الأفرم أمير جاندار نائب الشام أن يسافر إلى الشوبك و يخرّب قلعتها، فكلّمه الأفرم فى بقائها فانتهره، و سافر من يومه، و توجّه الأفرم إلى الشّوبك و أخربها غير القلعة. و كان ذلك غاية ما يكون من الخطأ و سوء التدبير، و كان أخرب قبل ذلك أيضا عدّة أماكن بقلعة الجبل،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶

و بقلعة دمشق أيضا أخرب عدّة قاعات و مبانى هائلة. و أمّا قلاع السواحل فأخرب غالبها، و كان يقصد ذلك لمعنى يخطر بباله.

ثم فى العشرين من ذى الحجّة نصب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القبق، و صفة ذلك أن ينصب صار طويل و يعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضّة و يجعل فى القرعة طير حمام، ثمّ يأتى الرامى بالنّشّاب و هو سائق فرسه و يرمى عليه، فمن أصاب القرعة و طيّر الحمام خلع عليه خلعة تليق به، ثم يأخذ القرعة. و كان ذلك بسبب طهور أخى الملك الأشرف؛ و هو الملك الناصر محمد بن قلاوون، و طهور ابن أخيه الأمير مظفّر الدين موسى ابن الملك الصالح علاء الدين علىّ بن قلاوون، فآحتفل السلطان لطهورهما و عمل مهمّا عظيما. و كان الطهور فى يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجّة. و عند ما طهّروهم رموا الأمراء الذهب لأجل النّقوط؛ فإن كان الأمير أمير مائة فارس رمى مائة دينار، و إن كان أمير خمسين فارسا رمى خمسين دينارا، و قس على ذلك سائر الأمراء؛ و رمى

حتى مقدّمو الحلقة و الأجناد، فجمع من ذلك شيء كثير؛ و هو آخر فرح عمله الأشرف هذا.

ثم بعد فراغ المهمّ بمدّة يسيرة، نزل السلطان الملك الأشرف المذكور من قلعة الجبل متوجّها إلى الصّيد فى ثانى المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة و صحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السّلعوس، و نائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا و جميع الأمراء، فلمّا وصل إلى الطّرّانة فارقه وزيره ابن السّلعوس المذكور و توجّه إلى الإسكندرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷

و أمّا السلطان فإنّه نزل بالحمّامات لأجل الصّيد، و أقام إلى يوم السبت ثانى عشر المحرّم. فلمّا كان قرب العصر و هو بأرض تروجة حضر إليه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة و معه جماعة كثيرة من الأمراء؛ و كان السلطان بكرة النهار قد أمره أن يأخذ العسكر و الدّهليز و يمشى عوضه تحت الصناجق و أن يتقدّمه، و يبقى السلطان يتصيّد وحده بقيّة يومه و يعود العشيّة إلى الدّهليز، فتوجّه بيدرا على ذلك؛ و أخذ السلطان الملك الأشرف يتصيّد و معه شخص واحد يقال له شهاب الدين [أحمد بن] الأشلّ أمير شكار، و بينما السلطان فى ذلك أتاه هؤلاء: بيدرا و رفقته، فأنكر السلطان مجيئهم، و كان فى وسط السلطان بند حرير و ليس معه بمجة لأجل الصيد، و كان أوّل من ابتدره الأمير بيدرا فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده مع كتفه، فجاء الأمير حسام الدين لاچين، و هو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة، و قال لبيدرا: يا نحس! من يريد ملك مصر و الشام تكون هذه ضربته! ثمّ ضربه على كتفه فحلّها، و وقع السلطان على الأرض، فجاء بعدهما الأمير بهادر رأس نوبة، و أخذ السيف و دسّه فى دبره و أطلعه من حلقه، و بقى يجيء واحد من الأمراء بعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸

واحد و يظهرون ما فى أنفسهم منه، ثم تركوه فى مكانه و انضموا على الأمير بيدرا و حلفوا له، و أخذوه تحت الصناجق و ركبوا سائرين بين يديه طالبين القاهرة.

و قيل فى قتله وجه آخر.

قال القطب اليونينىّ: «و مما حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار:

كيف كان قتل السلطان الملك الأشرف خليل؟ قال: سألت الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشلّ أمير شكار السلطان، كيف كان قتل السلطان الأشرف؟ فقال [ابن] الأشلّ: بعد رحيل الدّهليز (يعنى مدورة السلطان و العساكر) جاء إليه الخبر أنّ بتروجة طيرا كثيرا، فقال السلطان: امش بنا حتى نسبق الخاصّكيّة، فركبنا و سرنا، فرأينا طيرا كثيرا فرماه السلطان بالبندق، فأصرع شيئا كثيرا، ثم إنّه التفت إلىّ و قال: أنا جيعان، فهل معك شيء تطعمنى؟ فقلت: و اللّه ما معى سوى فرّوجة و رغيف خبز، قد ادّخرته لنفسى فى صولقى، فقال لى: ناولنى إيّاه، فأخذه و أكله جميعه، ثم قال لى: أمسك لى فرسى حتّى أنزل و أريق الماء، فقلت له:

ما فيها حيلة! أنت راكب حصانا و أنا راكب حجرة و ما يتفقوا، فقال لى: انزل أنت و اركب خلفى و أركب أنا الحجرة التى لك، و الحجرة مع الحصان تقف، قال:

فنزلت و ناولته لجام الحجرة، ثم إنّى ركبت خلفه، ثمّ إنّ السلطان نزل و قعد يريق الماء، و شرع يولغ بذكره و يمازحنى، ثم قام و ركب حصانه و مسك لى الحجرة، ثم إنّى ركبت. فبينما أنا و إيّاه نتحدّث و إذا بغبار عظيم قد ثار و هو قاصد نحونا، فقال لى السلطان: سق و اكشف لى خبر هذا الغبار، قال: فسقت، و إذا الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹

بدر الدين بيدرا و الأمراء معه، فسألتهم عن سبب مجيئهم فلم يردّوا علىّ جوابا و لا التفتوا إلى كلامى، و ساقوا على حالهم حتّى قربوا من السلطان، فكان أوّل من ابتدره بيدرا بالضّربة قطع بها يده و تمّم الباقى قتله». انتهى.

و أمّا أمر بيدرا فإنّه لمّا قتل السلطان بايع الأمراء بيدرا بالسلطنة و لقّبوه بالملك الأوحد و بات تلك الليلة، فإنّ قتل الأشرف كان بين الظّهر و العصر.

و أصبح ثانى يومه سار بيدرا بالعساكر إلى نحو الديار المصريّة؛ و بينما بيدرا سائر بعساكره و إذا بغبار عظيم قد علا و ملأ الجوّ و قرب منه، و إذا بطلب عظيم فيه نحو ألف و خمسمائة فارس من الخاصّكيّة الأشرفيّة، و معهم الأمير زين الدين كتبغا، و هو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة على ما يأتى ذكره. و الأمير حسام الدين الأستادار طالبين بيدرا بدم أستاذهم السلطان الملك الأشرف خليل المذكور و أخذ الثّأر منه و من أصحابه. و كان ذلك بالطرّانة فى يوم الأحد أوّل النهار، فما كان غير ساعة إلا و التقوا، و كان بيدرا لمّا رآهم صفّ من معه من أصحابه للقتال، فصدموه الأشرفيّة صدمة صادقة و حملوا عليه حملة واحدة فرّقوا شمله، و هرب أكثر من كان معه؛ فحينئذ أحاطوا ببيدرا و قبضوا عليه و حزّوا رأسه، و قيل: إنهم قطعوا يده قبل أن يحزّوا رأسه؛ كما قطعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف، و لمّا حزّوا رأسه حملوه على رمح و سيّروه إلى القاهرة، فطافوا به ثم عادوا نحو القاهرة حتى وصلوا برّ الجيزة، فلم يمكّنهم الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ من التعدية إلى برّ مصر، لأنّ السلطان الملك الأشرف كان قد تركه فى القلعة عند سفره نائب السلطنة بها، فلم يلتفتوا إليه و أرادوا التعدية؛ فأمر الشجاعىّ المراكب و الشوانى فعدّت إلى برّ القاهرة، و بقى العسكر و الأمراء على جانب البحر مقيمين حتى مشت بينهم الرّسل على أن يمكّنهم الشجاعىّ من العبور حتّى يقيموا عوض السلطان أخاه الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٠

الناصر محمد بن قلاوون و هو صغير، تسكينا لما وقع و إخمادا للفتنة، فأجلسوه على تخت الملك بقلعة الجبل فى رابع عشر المحرّم من سنة ثلاث و تسعين و ستمائة المذكورة، و أن يكون نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا، و الوزير الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ، و حسام الدين أستاذ الدار أتابك العساكر.

قلت: و ساق الشيخ قطب الدين اليونينىّ واقعة الملك الأشرف هذا و قتله و قتل بيدرا بأطول من هذا؛ قال الشيخ قطب الدين:

«و حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار أمير جاندار قال: كان السلطان الملك الأشرف قد أنفذنى فى أوّل النهار إلى الأمير بدر الدين بيدرا يأمره أن يأخذ العساكر و يسير بهم، فلمّا جئت إليه و قلت له: السلطان يأمرك أن تسير الساعة تحت الصناجق بالأمراء و العسكر، قال: فنفر فىّ بيدرا، ثم قال: السمع و الطاعة؛ قال: و رأيت فى وجهه أثر الغيظ و الحنق و قال: و كم يستعجلنى! فظهر فى وجهه شىء ما كنت أعهده منه؛ ثم إنّى تركته و مشيت حملت الزّردخاناه و الثّقل الذى لى و سرت، فبينما أنا سائر أنا و رفيقى الأمير صارم الدين الفخرىّ و ركن الدين أمير جاندار عند المساء، و إذا بنجّاب سائر، فسألت عن السلطان أين تركته؟ فقال:

طوّل اللّه أعماركم فيه؛ فبينما نحن متحيّرون فى أمره، و إذا بالسناجق التى للسلطان قد لاحت و قربت و الأمراء تحتها، و الأمير بدر الدين بيدرا بينهم و هم محدقون به؛ قال: فجئنا و سلّمنا عليه، فقال له الأمير ركن الدين بيبرس أمير جاندار: يا خوند، هذا الذى فعلته كان بمشورة الأمراء؟ قال: نعم، إنّما قتلته بمشورتهم و حضورهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢١

وها هم كلّهم حاضرون، و كان من جملة من هو حاضر الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ، و الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورىّ، و الأمير بدر الدين بيسرىّ، و أكثر الأمراء سائقون معه؛ قال: ثم إنّ بيدرا شرع يعدّد سيّئات السلطان و مخازيه و مناحسه و إهماله أمور المسلمين و استهزاءه بالأمراء و مماليك أبيه و وزارته لأبن السّلعوس، قال: ثم إنّه سألنا هل رأيتم الأمير زين الدين كتبغا؟ فقلنا له:

لا، فقال بعض الأمراء: يا خوند، هل كان عنده علم بالقضيّة؟ فقال: نعم، و هو أوّل من أشار بهذا الأمر.

فلمّا كان ثانى يوم و إذا بالأميرين: زين الدين كتبغا و حسام الدين أستاذ الدار قد جاءوا فى طلب كبير فيه مماليك السلطان الملك الأشرف نحو من ألفى فارس و فيهم جماعة من العسكر و الحلقة، فالتقوه بالطّرّانة يوم الأحد أوّل النهار. ثم ساق قطب الدين فى أمر الواقعة نحوا ممّا ذكرناه من أمر بيدرا و غيره، إلى أن قال:

و تفرّق جمع الأمير بيدرا. قال ابن المحفّدار: فلمّا رأينا مالنا بهم طاقة التجأنا إلى جبل هناك شمالىّ، و اختلطنا بذلك الطّلب الذى فيه

كتبغا، و رأينا بعض أصحابنا، فقال [لنا]: شدّوا بالعجلة مناديلكم فى رقابكم إلى تحت آباطكم، فهى الإشارة بيننا و إلّا قتلوكم أو شلحوكم، فعملنا مناديلنا فى رقابنا إلى تحت آباطنا، و كان ذلك سبب سلامتنا، فحصل لنا به نفع كثير من جهة الأمير زين الدين كتبغا و من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و سلمت بذلك أنفسنا و أثقالنا [و أهلونا] و أموالنا؛ ثم ظهر لهم أنّنا لم يكن لنا فى باطن القضيّة علم. قال: و سرنا إلى قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢

الجبل. و ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما نذكره فى ترجمته إن شاء اللّه تعالى فيما يأتى.

قال: و لمّا كان يوم خامس عشرين المحرّم أحضر إلى قلعة الجبل أميران و هما سيف الدين بهادر رأس نوبة و جمال الدين آقوش الموصلىّ الحاجب، فحين حضروا اجتمعوا الأشرفيّة عليهم فضربوا رقابهم و علّقوا رأس بهادر على باب داره الملاصقة لمشهد الحسين بالقاهرة. و بهارد هذا هو الذى حطّ السيف فى دبر الملك الأشرف بعد قتله و أخرجه من حلقه. ثم أخذوا جثّته و جثة آقوش و أحرقوهما فى قمين جير.

و أمّا الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ، و الأمير شمس الدين قرا سنقر فإنّهما اختفيا و لم يظهر لهما خبر، و لا وقع لهما على أثر. ثم أحضر المماليك الأشرفيّة سبعة أمراء، و هم: سيف الدين نوغيه، و سيف الدين ألناق، و علاء الدين ألطنبغا الجمدار، و شمس الدين سنقر مملوك لاچين، و حسام الدين طرنطاى السّاقى، و محمد خواجا، و سيف الدين أروس فى يوم الاثنين خامس صفر إلى قلعة الجبل، فلمّا رآهم السلطان الملك الناصر محمد أمر بقطع أيديهم أوّلا، و بعد ذلك يسمّرون على الجمال و أن تعلّق أيديهم فى حلوقهم ففعل ذلك، و رأس بيدرا أيضا على رمح يطاف به معهم بمصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣

و القاهرة، و بقوا على هذه الحالة إلى أن ماتوا، و كلّ من مات منهم سلّم إلى أهله و الجميع دفنوهم بالقرافة.

قلت: و قريب ممّا وقع لبيدرا هذا و أصحابه أوائل ألفاظ المقالة الخامسة عشرة من «كتاب أطباق الذهب» للشيخ الإمام الربّانى شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانىّ المعروف بشوروة، و هى قوله:

«من الناس من يستطيب ركوب الأخطار، و ورود التّيار، و لحوق العار و الشّنار، و يستحبّ و قد النار، و عقد الزّنّار، لأجل الدينار؛ و يستلذّ سفّ الرّماد، و نقل السّماد، و طىّ البلاد، لأجل الأولاد؛ و يصبر على نسف الجبال، و نتف السّبال، لشهوة المبال؛ و يبدّل الإيمان بالكفر، و يحفر الجبال بالظّفر، للدنانير الصّفر؛ و يلج ما ضغى الأسود، للدراهم السّود؛ لا يكره صداعا، [إذا نال كراعا]؛ و يلقى النوائب بقلب صابر، فى هوى الشيخ أبى جابر؛ و يأبى العزّ طبيعة، و يرى الذّلّ شريعة؛ و إن رزق لعيعة، يراها صنيعة، يؤمّ راسه و ترضّ أضراسه؛ و إن أعطى درهما، يراه مرهما.

و من الناس من يختار العفاف، و يعاف الإسفاف؛ يدع الطعام طاويا، و يذر الشراب صاديا، و يرى المال رائحا غاديا؛ يترك الدنيا لطلّابها، و يطرح الجيفة لكلابها؛ لا يسترزق لئام الناس، و يقنع بالخبز الناس؛ يكره المنّ و الأذى، و يعاف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤

الماء على القذى؛ إن أثرى جعل موجوده معدوما، و إن أقوى حسب قفاره مأدوما؛ جوف خال، و ثوب بال، و مجد عال؛ و وجه مصفرّ، عليه قرّ؛ و ثوب أسمال، وراء عزّ [و] جمال؛ و عقب مشقوق، و ذيل مفتوق، يجرّه فتى مغبوق. شعر:

للّه تحت قباب العزّ طائفة أخفاهم فى رداء الفقر إجلالا

هم السلاطين فى أطمار مسكنة استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا

غبر ملابسهم شمّ معاطسهم جرّوا على فلك الخضراء أذيالا

هذى المناقب لا ثوبان من عدن خيطا قميصا فصارا بعد أسمالا

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

هم الـذين جبلوا برآء من التّكلّف، «يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف». انتهى ما ذكرناه من المقالـة الخامسـة عشـرة و إن كنّا خرجنا عن المقصود من كون غالبها من غير ما نحن فيه، غير أنّنى لم أذكرها بتمامها هنا إلّا لغرابتها. انتهى.

و لمّا مات الملك الأشـرف خليل هذا، و تمّ أمر أخيه الملك الناصر محمد فى السلطنة، استقرّ الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ نائب السـلطنة، و سـنجر الشّـجاعىّ مـدبّر المملكـة و أتابـك العساكر، و بقيّـة الأمور تأتى فى أوّل سـلطنة الملك الناصـر محمـد بن قلاوون بأوضح من هذا

و لمّا قتل الملك الأشـرف خليل المـذكور بقى ملقى إلى أن خرج والى تروجـة من بعـد قتله بيومين، و معه أهل تروجـة، و أخـذوه و غسّلوه و كفّنوه و جعلوه فى تابوت

فى دار الوالى إلى أن سيّروا من القاهرة الأمير سـعد الدين كوجبا الناصرىّ إلى مصرعه، فأخذه فى تابوت و وصل به إلى القاهرة سحر يوم الخميس ثانى عشـرين صـفر، فـدفن فى تربـة والـدته بجوار أخيه الملك الصالح علىّ بن قلاوون- رحمهما اللّه تعالى- و رثاه ابن حبيب بقصيدة، أوّلها:

تبّا لأقوام تمالك رقّهم فتكوا و ما رقّوا لحالة مثرف

وافوه غدرا ثم صالوا جملة بالمشرفىّ على المليك الأشرف

وافى شهيدا نحو روضات الرّضا يختال بين مزهّر و مزخرف

و مضى يقول لقاتليه تربّصوا بينى و بينكم عراض الموقف

و قـال النّويرىّ فى تاريخه: كان ملكا مهيبا شـجاعا مقـداما جسورا جوادا كريما بالمال، أنفق على الجيش فى هـذه الثلاث سـنين ثلاث نفقات: الأولى فى أوّل جلوسه فى السـلطنة من مال طرنطاى، و الثانيـة عنـد توجّهه الى عكّا، و الثالثـة عند توجّهه الى قلعة الروم. انتهى كلام النّويرىّ باختصار.

و قال الشـيخ صـلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدىّ فى تاريخه: «و كان قبل ولايـة الملك الأشرف يؤخذ عند باب الجابيـة بدمشق عن كلّ حمل خمسـة دراهم مكسا، فأوّل ما تسـلطن وردت إلى دمشق مسامحـة بإسـقاط هـذا، و بين سـطور المرسوم بقلم العلامـة بخطه: لتسقط عن رعايانا هذه الظّلامة، و يستجلب لنا الدعاء من الخاصّة و العامّة». انتهى كلام الصفدىّ.

و قال الحافظ أبو عبـد اللّه الـذّهبىّ فى تاريخه، بعـد أن ساق من أحواله قطعـة جيّـدة، فقال: «و لو طالت أيّامه أو حياته لأخـذ العراق و غيرها، فإنّه كان بطلا شـجاعا مقـداما مهيبا عالى الهمّة يملأ العين و يرجف القلب، رأيته مرّات، و كان ضـخما سـمينا كبير الوجه بديع الجمال مسـتدير اللّحيـة، على وجهه رونق الحسن و هيبة السـلطنة، و كان إلى جوده و بذله الأموال فى أغراضه المنتهى. و كان مخوف السـطوة، شديـد الوطأة، قوىّ البطش؛ تخافه الملوك فى أمصارها، و الوحوش العاديـة فى آجامها. أباد جماعة من كبار الدولة. و كان منهمكا فى اللذات، لا يعبأ بالتحرّز لنفسه لفرط شجاعته، و لم أحسبه بلغ ثلاثين سنة، و لعلّ اللّه عزّ و جلّ قد

عفا عنه و أوجب له الجنّة لكثرة جهاده، و إنكائه فى الكفّار». انتهى كلام الذهبى باختصار.

قلت: و كان الأشـرف مفرط الشـجاعة و الإقدام، و جمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديما و حديثا بلا مدافعة، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، و شهرتهما فى ذلك تغنى عن الإطناب فى ذكرهما.

و كانت مـدّة مملكـة الأشـرف هـذا على مصـر ثلاث سـنين و شـهرين و خمسة أيام، لأنّ وفاة والده كانت فى يوم السـبت سادس ذى

القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة.

و جلس الأشرف المذكور على تخت الملك فى صبيحة دفن والده فى يوم الاثنين ثامن ذى القعدة. و قتل فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة.

انتهى.

و قال الشيخ قطب الدين البونينىّ: و مات (يعنى الملك الأشرف) شهيدا مظلوما فإنّ جميع من وافق على قتله كان قد أحسن إليه و منّاه و أعطاه و خوّله، و أعطاهم ضياعا بالشام، و لم تتجدد فى زمانه مظلمة، و لا استجدّ ضمان مكس، و كان يحبّ الشأم و أهله، و كذلك أهل الشأم كانوا يحبونه- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-.

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل على مصر و هى سنة تسعين و ستمائة. على أنه حكم من الماضية من يوم الاثنين ثامن ذى القعدة إلى آخرها. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸

فيها (أعنى سنة تسعين و ستمائة) توفّى الشيخ عزّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصارىّ السّويدىّ الطبيب المشهور، و هو من ولد سعد بن معاذ الأوسىّ- رضى اللّه عنه- كان قد تفرّد فى آخر عمره بمعرفة الطبّ، و كان له مشاركة جيّدة فى العربيّة و التاريخ، و اجتمع بأكابر الأطبّاء و أفاضل الحكماء، مثل المهذّب عبد الرحيم بن علىّ الدّخوار و غيره، و قرأ علم الأدب على جماعة من العلماء، و كان له نظم جيّد. من ذلك قوله فى خضاب اللّحية:

لو أنّ تغيير لون شيبى يعيد ما فات من شبابى

لما وفى لى بما تلاقى روحى من كلفة الخضاب

قلت: و يعجبنى قول الشيخ صفىّ الدين عبد العزيز الحلّى فى هذا المعنى:

قالوا اخضب الشيب فقلت اقصروا فإنّ قصد الصدق من شيمتى

فكيف أرضى بعد ذا أنّنى أوّل ما أكذب فى لحيتى

غيره فى المعنى:

يا خاضب اللّحية ما تستحى تعاند الرحمن فى خلقته

أقبح شئ قيل بين الورى أن يكذب الإنسان فى لحيته

و من شعر عزّ الدين صاحب الترجمة [مواليا]:

البدر و السعد ذا شبهك و ذا نجمك و القدّ و اللّحظ ذا رمحك و ذا سهمك

و البغض و الحبّ ذا قسمى و ذا قسمك و المسك و الحسن ذا خالك و ذا عمّك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۹

و فيها توفّى ملك التّتار أرغون بن أبغا بن هولاكو عظيم التّتار و ملكهم، قيل:

إنه اغتيل بالسمّ، و قيل: إنّه مات حتف أنفه، و اتّهم الترك اليهود بقتله فمالوا عليهم بالسيوف فقتلوهم و نهبوا أموالهم، و اختلفت كلمة التّتار فيمن يقيمونه بعده فى الملك، فمالت طائفة إلى بيدو و لم يوافقوا [على] كيختو، فرحل كيختو إلى الروم.

و كان أرغون هذا قد عظم أمره عند التّتار بعد قتل عمّه أحمد، و رسخت قدمه فى الملك، و كان شهما شجاعا مقداما، حسن الصورة، سفّا كاللدماء، شديد الوطأة.

و فيها توفّى الشيخ عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن علىّ ابن يس العابدى ثم الكوفىّ ثم التّلمسانىّ المعروف بالعفيف التّلمسانىّ، الصوفىّ الشاعر المشهور، كان فاضلا و يدّعى العرفان، و يتكلّم فى ذلك على اصطلاح القوم.

قال الشيخ قطب الدين: «و رأيت جماعة ينسبونه إلى رقّة الدّين، و توفّى و قد جاوز الثمانين سنة من العمر، و كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة و وجاهة، و خدم فى عدّة جهات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۰

قلت: و قد تقدّم ذكر ولده الأديب الظريف شمس الدين محمد أنّه مات فى حياة والده العفيف هذا. انتهى.

و كان العفيف المذكور من الشعراء المجيدين و له ديوان شعر كبير. و من شعره:

يشكو إلى أردافه خصره لو تسمع الأمواج شكوى الغريق

يا ردفه رقّ على خصره فإنّه حمّل ما لا يطيق

و له:

إن كان قتلى فى الهوى يتعيّن يا قاتلى فبسيف جفنك أهون

حسبى و حسبك أن تكون مدامعى غسلى و فى ثوب السّقام أكفّن

عجبا لخدّك وردة فى بانة و البان فوق الغصن ما لا يمكن

أدنته لى سنة الكرى فلثمته حتى تبدّل بالشّقيق السّوسن

و وردت كوثر ثغره فحسبتنى فى جنّة من وجنتيه أسكن

ما راعنى إلا بلال الخال فو ق الخدّ فى صبح الجبين يؤذّن

قلت: و هذا مأخوذ من قول الحاجرى من قصيدة:

أقام بلال الخال فى صحن خدّه يراقب من لآلاء غرّته الفجرا

و منه أيضا أخذ الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصرىّ قوله:

و انظر إلى الخال فوق الثغر دون لمى تجد بلالا يراعى الصبح فى السّحر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۱

قلت: و قد سبق إلى هذا المعنى أمير المؤمنين عبد اللّه بن المعتزّ بقوله:

أسفر ضوء الصبح من وجهه فقام خال الخدّ فيه بلال

كأنّما الخال على خدّه ساعة هجر فى زمان الوصال

قلت و قد استوعبنا من ذكر العفيف هذا فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفىّ بعد الوافى» نبذة كبيرة فلينظر هناك.

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة فقيه الشام تاج الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزارىّ البدرىّ المصرىّ الأصل الدمشقى الشافعىّ المعروف بالفركاح. ولد فى شهر ربيع الأوّل سنة أربع و عشرين و ستّمائة.

قال الصّفدىّ: تفقّه فى صغره على الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، و الشيخ تقىّ الدين بن الصّلاح، و برع فى المذهب و هو شابّ، و جلس للاشتغال و له بضع و عشرون سنة، و درّس فى سنة ثمان و أربعين، و كتب فى الفتاوى و قد أكمل الثلاثين.

و لمّا قدم النووىّ من بلده أحضروه ليشتغل عليه، فحمل همّه و بعث به إلى مدرّس الرّواحيّة ليصحّ له بها بيت و يرتفق بمعلومها. و كانت الفتاوى تأتيه من الأقطار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۲

و إذا سافر لزيارة القدس يترامى أهل البرّ على ضيافته، و كان أكبر من الشيخ محيى الدين النّووىّ بسبع سنين، و هو أفقه نفسا و أذكى و أقوى مناظرة من الشيخ محيى الدين بكثير، و قيل إنه كان يقول: إيش قال النّووىّ فى مزبلته! (يعنى عن الروضة)، قال: و كان الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام يسمّيه «الدّويك» لحسن بحثه. انتهى كلام الصّفدىّ باختصار.

و من شعره ما كتبه لزين الدين عبد الملك بن العجمى ملغزا فى اسم بيدرا.

يا سيّدا ملأ الآفاق قاطبة بكلّ فنّ من الألغاز مبتكر

ما اسم مسمّاه بدر و هو مشتمل عليه فى اللفظ إن حقّقت فى النظر

و إن تكن مسقطا ثانيه مقتصرا عليه فى الحذف أضحى واحد البدر

و له [أيضا دو بيت]

ما أطيب ما كنت من الوجد لقيت إذ أصبح بالحبيب صبّا و أبيت

و اليوم صحا قلبى من سكرته ما أعرف فى الغرام من أين أتيت

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى مسند العالم فخر الدين علىّ بن البخارىّ المقدسىّ فى ربيع الآخر، و له خمس و تسعون سنة. و المعمّر شهاب الدين غازى بن أبى الفضل [ابن عبد الوهاب أبو محمد] الحلاوىّ فى صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۳

و فخر الدين عمر بن يحيى الكرخىّ فى شهر ربيع الآخر، و له إحدى و تسعون سنة. و العلّامة تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزارىّ الشافعىّ فى جمادى الآخرة، و له ست و ستون سنة. و الشيخ العفيف التّلمسانىّ الشاعر سليمان بن علىّ فى رجب، و له ثمانون سنة. و المقرئ شهاب الدين محمد بن عبد الخالق بن مزهر فى رجب. و القاضى شمس الدين عبد الواسع بن عبد الكافى الأبهرىّ فى شوّال.

و المسند نجم الدين يوسف بن يعقوب بن محمد [بن علىّ] بن المجاور فى ذى القعدة و المسند شمس الدين محمد بن [عبد] المؤمن بن أبى الفتح الصالحىّ فى ذى الحجّة، و هو آخر من سمع من الكندىّ. و الإمام شمس الدين أحمد بن عبد اللّه بن الزّبير الخابورىّ خطيب حلب فى المحرّم.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۱]

السنة الثانية من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، و هى سنة إحدى و تسعين و ستمائة.

فيها فى يوم الجمعة رابع عشرين صفر ظهر بقلعة الجبل حريق عظيم فى بعض خزائن الخاصّ، و أتلف شيئا عظيما من الذخائر و النفائس و الكتب و غيرها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۴

و فيها توفّى الصاحب تاج الدين أحمد بن [المولى] شرف الدين سعيد ابن شمس الدين محمد بن الأثير الحلبى الكاتب المنشئ. و أولاد ابن الأثير هؤلاء غير بنى الأثير الموصليّين. و كان تاج الدين هذا بارعا فاضلا معظّما فى الدّول باشر الإنشاء بدمشق ثم بمصر للملك الظاهر بيبرس، ثم للملك المنصور قلاوون، و كان له نظم و نثر و لكلامه رونق و طلاوة. و من عجيب ما اتّفق أنّ الأمير عز الدين أيدمر السّنانىّ النّجيبىّ الدّوادار أنشد تاج الدين المذكور عند قدومه إلى القاهرة فى الأيام الظاهريّة أوّل اجتماعه به، و لم يكن يعلم اسمه و لا اسم أبيه، قول الشاعر:

كانت مساءلة الرّكبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد أحسن الخبر

حتّى التقينا فلا و اللّه ما سمعت أذنى بأحسن ممّا قد رأى بصرى

فقال له تاج الدين: يا مولانا، أتعرف أحمد بن سعيد؟ فقال: لا، فقال: المملوك أحمد بن سعيد. و لم يزل تاج الدين هذا يترقّى الى أن ولى كتابة السرّ بمصر بعد موت فتح الدين محمد بن عبد الظاهر الآتى ذكره. و لمّا ولى كتابة السرّ سافر مع السلطان الى الديار

المصريّة فأدركه أجله فمات بغزّة و دفن هناك؛ و ولى بعده كتابة السرّ ابنه عماد الدين إسماعيل مدّة إلى أن عزل بشرف الدين عبد الوهاب بن فضل اللّه العمرىّ.

و كان تاج الدين فاضلا نبيلا، و له يد فى النظم و النثر. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

أتتنى أياديك التى لو تصوّرت محاسنها كانت من الأنجم الزّهر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٣٥

و فيها توفى القاضى فتح الدين محمد ابن القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر ابن نشوان بن عبد الظاهر الجذامىّ الرّوحىّ المصرىّ المعروف بابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء و مؤتمن المملكة بالديار المصريّة. مولده بالقاهرة فى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة و سمع الحديث و تفقّه و مهر فى الإنشاء، و ساد فى الدولة المنصوريّة قلاوون برأيه و عقله و حسن سياسته، و تقدّم على والده فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم أمره و نهيه. و قد تقدّم ذكره فى ترجمة الملك المنصور قلاوون و التعريف بحاله. و من شعر فتح الدين المذكور لمّا توجّه إلى دمشق صحبة السلطان و حصل له توعّك فكتب إلى والده يقول:

إن شئت تبصرنى و تبصر حالتى قابل إذا هبّ النسيم قبولا

تلقاه مثلى رقّة و نحافة و لأجل قلبك لا أقول عليلا

فهو الرسول اليك منى ليتنى كنت اتّخذت مع الرسول سبيلا

و له:

ذو قوام يحور منه اعتدال كم طعين به من العشّاق

سلب القضب لينها فهى غيظا واقفات تشكوه بالأوراق

قلت: و أجاد شمس الدين محمد بن العفيف فى هذا المعنى حيث قال:

قدّه حاز اعتدالا فله فتك و نسك

سلب الأغصان لينا فهى بالأوراق تشكو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٣٦

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى سيف الدين عبد الرحمن بن محفوظ الرّسعنىّ فى المحرّم. و خطيب دمشق زين الدين عمر بن مكّى الوكيل فى ربيع الأوّل. و المقرئ رضىّ الدين جعفر بن القاسم [المعروف با] بن دبوقا الرّبعىّ فى رجب. و العدل علاء الدين علىّ بن أبى بكر بن أبى الفتح بن محفوظ [بن الحسن] بن صصرّى الضرير فى شعبان. و الموقّعان: سعد الدين [سعد اللّه] ابن مروان الفارقىّ، و فتح الدين محمد بن محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

[ما وقع من الحوادث سنة ٦٩٢]

السنة الثالثة من ولاية الملك الأشرف خليل على مصر، و هى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة.

فيها حصل ببلاد غزّة و الرّملة و قاقون و الكرك زلزلة عظيمة، و كان معظم تأثيرها بالكرك بحيث انهدم ثلاثة أبراج من قلعتها، و بنيان كثير من دورها و أماكنها.

و كانت الزّلزلة المذكورة فى صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٣٧

و فيها كانت وفاة الأمير الكبير شمس الدين سنقر بن عبد اللّه العلائىّ، ثم الصالحىّ النّجمىّ المعروف بالأشقر، كان من كبار الأمراء ممّن تملّك الشام فى أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون و دعا لنفسه و تلقّب «بالملك الكامل» و خطب له على منابر الشام، و ضرب الدرهم و الدينار باسمه. و قد أوضحنا من أمره نبذة كبيرة فى عدّة مواضع من ترجمة الملك المنصور قلاوون و غيره. و وقع له مع الملك المنصور أمور أسفرت بعد سنين على أنّه دخل تحت طاعته، و صار من جملة أكابر أمرائه. و استمرّ سنقر على ذلك إلى أن مات الملك المنصور قلاوون و ملك بعده ابنه الملك الأشرف خليل صاحب الترجمة؛ قبض عليه فى هذه السنة و خنقه و خنق معه جماعة من الأمراء لأمر اقتضاه رأيه. و الأمراء الذين قتلوا معه مثل: الأمير ركن الدين طقصو الناصرىّ، و جرمك الناصرىّ و بلبان الهارونىّ؛ و كان معهم الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ الذى تسلطن بعد ذلك، فوضع السلطان الوتر فى رقبته لخنقه فانقطع الوتر؛ فقال لاچين: يا خوند، إيش ذنبى! مالى ذنب إلّا أنّ طقصو حموى و أنا أطلّق بنته، فرقّوا له خشداشيته لأمر سبق فى علم اللّه و قبلّوا الأرض و سألوا السلطان فيه، و ضمنه خشداشه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، فأطلقه السلطان و أعاده إلى رتبته، و أخذ سنقر الأشقر هذا و دفن بالقرافة. و كان سنقر المذكور أميرا شجاعا مقداما كريما حسن السياسة مهابا جليلا معظّما فى الدّول، و خوطب بالسلطنة سنين عديدة إلى أن ضعف أمره و نزل من قلعة صهيون بالأمان، و قدم على الملك المنصور قلاوون فأكرمه قلاوون، و دام على ذلك إلى أن مات. و كان سنقر شجاعا أشقر عبل البدن جهورىّ الصوت مليح الشكل. رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۸

و فيها توفّى الشيخ الصالح القدوة المعتقد شيخ الشام أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ السيد العارف أبى محمد عبد اللّه الأرموىّ بزاويته بجبل قاسيون بعد الظهر و كانت جنازته مشهودة، رحمه اللّه.

و فيها توفّى الصاحب محيى الدين عبد اللّه بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان ابن عبد الظاهر السّعدىّ الموقّع كاتب الإنشاء بالديار المصريّة. و قد تقدّم ذكر ولده القاضى فتح الدين فى السنة الماضية. كان محيى الدين هذا من سادات الكتاب و رؤسائهم و فضلائهم. و مولده فى سنة عشرين و ستمائة بالقاهرة، و مات يوم الأربعاء ثالث شهر رجب و دفن بالقرافة بتربته التى أنشأها. و هو صاحب النظم الرائق و النثر الفائق. و من شعره قوله:

يا قاتلى بجفون قتيلها ليس يقبر

إن صبّروا عنك قلبى فهو القتيل المصبّر

و له و أجاد إلى الغاية:

نسب الناس للحمامة حزنا و أراها فى الشّجو ليست هنالك

خضبت كفّها و طوّقت الجى د و غنّت و ما الحزين كذلك

و له مضمّنا:

لقد قال كعب فى النّبىّ قصيدة و قلنا عسى فى مدحه نتشارك

فإن شملتنا بالجوائز رحمة كرحمة كعب فهو كعب مبارك

.النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۳۹

و له:

سلّفتنا على العقول السّلافه فتقاضت ديونها بلطافه

ضيّفتنا بالنّشر و البشر و اليس ر ألا هكذا تكون الضّيافه

و قد سقنا من ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى» عدّة أخر غير هؤلاء المقطّعات.

و فيها توفّى الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الحلبى، الأمير الكبير أحد الموصوفين بالشجاعة و الإقدام، و قد شهد عدّة حروب، و له

مواقف مشهورة مع العدوّ.

و كان أبيض الرأس و اللّحية من أبناء الثمانين، و كان ولى نيابة دمشق فى آخر سنة ثمان و خمسين و ستمائة. و لمّا تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس لم يبايعه سنجر هذا و دعا لنفسه و حلّف الأمراء و تسلطن بدمشق و لقّب «بالملك المجاهد»، فلم يتمّ له ذلك حسب ما تقدّم ذكره فى أوّل ترجمة الملك الظاهر بيبرس، و قبض الظاهر عليه و حبسه مدّة سنين إلى أن مات. و تسلطن بعده ولده الملك السعيد أفرج عنه و أمّره، فدام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور قلاوون، و خرج عليه الأمير سنقر الأشقر المقدّم ذكره و تسلطن بدمشق، ندب المنصور لحربه علم الدين سنجر هذا، و أضاف إليه العساكر المصريّة، فخرج إليه و قاتله و كسره و أخرجه من دمشق، ثمّ عاد إلى الديار المصريّة، فأنعم عليه المنصور قلاوون بأشياء كثيرة، ثم خانه و قبض عليه و حبسه إلى أن مات. فلمّا تسلطن ولده الملك الأشرف خليل أفرج عنه و أكرمه و رفع منزلته. و كان سبب مسك قلاوون له أنّه لمّا كسر سنقر الأشقر عظم فى أعين الناس و لهج بعض الناس بتسميته «بالملك المجاهد» كما كان تلقّب أوّلا لمّا ادّعى السلطنة، فبادره قلاوون و قبض عليه. و كان سنجر هذا من بقايا الأمراء الصالحيّة النّجميّة، رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۰

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ الزاهد إبراهيم ابن العارف الشيخ عبد اللّه الأرموىّ فى المحرّم. و كمال الدين أحمد بن محمد النّصيبىّ الحلبىّ فى المحرّم. و المقرئ جمال الدين إبراهيم بن داود الفاضلىّ فى أوّل جمادى الأولى. و الإمام القدوة تقىّ الدين إبراهيم بن علىّ بن الواسطى الحنبلىّ فى جمادى الآخرة، و له تسعون سنة. و السيف علىّ بن الرّضى عبد الرحمن المقدسىّ فى شوّال.

و المحدّث التقى عبيد [بن محمد بن عبّاس] الإسعردىّ. و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم ابن ترجم المصرىّ راوى التّرمذىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا. انتهت ترجمة الملك الأشرف خليل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۳]

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحىّ النّجمىّ الألفىّ سلطان الديار المصريّة و ابن سلطانها، مولده بالقاهرة فى سنة أربع و ثمانين و ستمائة بقلعة الجبل، و والده الملك المنصور قلاوون يحاصر حصن المرقب، و جلس على تخت الملك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون فى يوم الاثنين رابع عشر المحرّم، و قيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرّم، من سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، لأنّ الملك الأشرف قتل بتروجة فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم و قتل قاتله الأمير بدر الدين بيدرا فى يوم الأحد ثالث عشر المحرّم، ثم اتّفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد هذا عوضا عن أخيه، فتمّ له ذلك.

فتكون سلطنته فى أحد اليومين المذكورين تخمينا لما وقع فى ذلك من الاختلاف بين المؤرّخين. انتهى.

و الملك الناصر هذا هو السلطان التاسع من ملوك التّرك بالديار المصريّة، و لما استقر فى السلطنة رتّبوا الأمير زين الدين كتبغا المنصورىّ نائب السلطنة بالديار المصريّة عوضا عن بيدرا، و الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا و مدبّرا للمملكه و أتابك العساكر؛ ثم قبضوا على جماعة من قتلة الملك الأشرف خليل حسب ما تقدّم ذكره، و تمّ ذلك و دام إلى العشرين من صفر. فبلغ

الأمير زين الدين كتبغا أنّ الأمير علم الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۲

سنجر الشجاعىّ يريد الوثوب عليه و قبضه و قتله. و كان الذى أخبره بذلك سيف الدين قنقغ التّتارى، و أعلمه بما فى باطن الشجاعىّ؛ و السبب فى اطّلاعه على ما فى باطن الشجاعىّ أنّ هذا قنقغ هاجر من بلاد التّتار فى زمن الملك الظاهر بيبرس، و أقام بمصر و أقطع فى الحلقة فرزقه اللّه تعالى اثنى عشر ولدا كلّهم ذكور، منهم: ستة أولاد فى خدمة الملك الأشرف، و خمسة فى خدمة الشجاعىّ، و واحد منهم صغير؛ و جميع أولاده شباب ملاح من أجمل الناس صورة. و كان لقنقغ هذا منزلة عظيمة عند الشجاعىّ و كلمته مسموعة، و شفاعته مقبولة؛ و له اطّلاع على أمور الدولة بسبب أولاده، فعلم بما دبّره الشجاعىّ، فحملته الجنسيّة حتّى أعلم الأمير كتبغا على ما فى باطن الشجاعىّ؛ فاحترز كتبغا على نفسه و أعلم الأمراء بالخبر، و كان الأمراء كارهين الشجاعىّ. فلمّا كان يوم الخميس ثانى عشرين صفر ركب الأمير كتبغا إلى سوق الخيل فنزل إليه من القلعة أمير يقال له البندقدارىّ و قال له من قبل الشجاعىّ:

أين حسام الدين لاچين المنصورى؟ أحضره الساعة؛ فقال له كتبغا: ما هو عندى، و كان لاچين من يوم قتل الأشرف قد اختفى، و المماليك الأشرفيّة قد أعياهم أمره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۳

من كثرة التفتيش عليه، فقال له البندقدارىّ: بلى، لاچين عندك، ثم مدّ يده إلى سيفه ليضربه به، فجدب سيف الدين بلبان الأزرق مملوك كتبغا سيفه و علا به البندقدارىّ من ورائه و ضربه ضربة حلّ بها كتفه و يده، ثم إنّهم تكاثروا عليه و أنزلوه عن فرسه و ذبحوه، و همّ مماليك كتبغا. و ذلك فى وسط سوق الخيل، و مال غالب العسكر من الأمراء و المقدّمين و أجناد الحلقة و التتار و الأكراد إلى كتبغا و انضمّوا عليه، و مالت البرجيّة و بعض الخاصّكيّة إلى سنجر الشجاعىّ، لأنّ الشجاعىّ كان أنفق فيهم فى الباطن فى يوم واحد ثمانين ألف دينار، و اتّفق معهم أيضا أنّ كلّ من جاء برأس أمير كان له إقطاعه؛ و كان الاتّفاق معهم أنّه فى يوم الخميس وقت الموكب لمّا يطلع الأمير كتبغا إلى القلعة و يمدّوا السّماط يمسك هو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۴

و من اتّفق معه من الأمراء يقبضون عليهم. فاستعجل البندقدارىّ و نزل إلى سوق الخيل و فعل ما ذكرناه.

و لمّا وقع ذلك تحقّق الأمراء صحّة ما نقل إليهم الأمير زين الدين كتبغا عن الشجاعىّ، فاجتمع فى الحال الأمراء عند كتبغا بسوق الخيل و ركبت التّتار جميعهم و جماعة من الشّهرزوريّة و الأكراد و جماعة من الحلقة كراهية منهم فى الشجاعىّ، و خرج الشجاعىّ بمن معه إلى باب القلعة، فإنّ إقامته كانت بالقلعة و أمر بضرب الكوسات فضربت، و بقى يطلب أن يطلع إليه أحد من الأمراء و المقدّمين فلم يجبه أحد؛ و كان قد أخرج صحبته الذهب فى الصّرر و بقى كلّ من جاء إليه يعطيه صرّة؛ فلم يجئ إليه إلّا أناس قليلون ما لهم مرتبة. و شرع كتبغا و من معه فى حصار القلعة و قطعوا عنها الماء و بقوا ذلك اليوم محاصرين. فلمّا كان ثانى يوم نزلت البرجيّة من القلعة على حميّة و تلاقوا مع كتبغا و عساكره و صدموه صدمة كسروه فيها كسرة شنيعة و هزموه إلى بئر البيضاء، و توجّه كتبغا إلى جهة بلبيس؛ فلمّا سمعوا باقى الأمراء بذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۵

ركب الأمير بدر الدين بيسرىّ المنصورىّ و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح و بقيّة العساكر المصريّة، و توجهت الجميع إلى نصرة الأمير كتبغا و أصحابه، و قاتلوا المماليك البرجية حتّى كسروهم و ردّوهم إلى أن أدخلوهم إلى قلعة الجبل؛ ثم جدّوا فى حصار القلعة و من فيها، و عاد الأمير كتبغا و قد قوى عضده بخشداشيته و الأمراء؛ و دام الحصار على القلعة إلى أن طلعت الستّ خوند والدة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أعلى السّور و كلّمتهم بأن قالت لهم: إيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؟ فقالوا: مالنا غرض إلّا مسك الشجاعىّ و إخماد الفتنة، و نحن لو بقيت بنت عمياء من بنات أستاذنا الملك المنصور قلاوون كنّا

مماليكها لا سيما ولده الملك الناصر محمد حاضر و فيه كفاية. فلمّا علمت ذلك رجعت و اتّفقت مع الأمير حسام الدين لاچين أستاذ الدار، و غلقوا باب القلّة من القلعة و هى التى عليها المعتمد، و بقى الشجاعى بداره بالقلعة محصورا. فلمّا رآه أصحابه أنّه فى أنحس حال شرعوا فى النزول إلى عند الأمير كتبغا، فبقى جمع الشجاعىّ يقلّ و جمع كتبغا يكثر إلى يوم السبت رابع عشرين صفر ضجر الشجاعىّ و طلب الأمان فلم يوافقوه الأمراء؛ و طلع وقت صلاة الظهر بعض الأمراء و جماعة من الخاصّكيّة و فيهم آقوش المنصورىّ إلى عند الشجاعى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۶

يطلبونه إلى عند السلطان و إلى والدته [فى] صورة أنهم يريدون يستشيرونه فيما يعملون، فمشى معهم قليلا و تكاثروا عليه المماليك و جاء آقوش من ورائه و ضربه بالسيف ضربة قطع بها يده، ثم بادره بضربة ثانية أبرى بها رأسه عن جسده، و أخذوا رأسه فى الحال و رفعوه على سور القلعة، ثم عادوا و نزلوا [به] إلى كتبغا و دقّوا البشائر و فتحوا باب القلّة، و أخذوا رأس الشجاعىّ و جعلوه على رمح و أعطوه للمشاعليّة فجبوا عليه مصر و القاهرة، فحصّل المشاعليّة مالا كثيرا لبغض الناس قاطبة فى الشجاعىّ؛ فقيل: إنهم كانوا يأخذون الرأس من المشاعليّة و يدخلونه بيتهم فتضربه النسوة بالمداسات لما فى نفوسهم منه. و سبب ذلك ما كان اشتمل عليه من الظلم و مصادراته للعالم و تنوّعه فى الظلم و العسف حسب ما يأتى ذكره فى الوفيات بأوسع من هذا. و أغلقت القاهرة خمسة أيام إلى أن طلع كتبغا إلى القلعة فى يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر و دقّت البشائر و فتحت الأبواب و جدّدت الأيمان و العهود للملك الناصر محمد بن قلاوون و أن يكون الأمير كتبغا نائب السلطنة.

و لمّا تمّ ذلك قبض كتبغا على جماعة من الخاصّكيّة و البرجيّة المتّفقين مع الشجاعىّ، ثم أفرج عن جماعة من الأمراء كان قبض عليهم فى المخيم، و هم: الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى تسلطن بعد ذلك على ما يأتى ذكره، و الأمير سيف الدين برلغى، و الأمير القمامىّ و سيف الدين قبجق المنصورىّ، و الأمير بدر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۷

عبد اللّه، و الأمير سيف الدين بورى [السلاح دار] و الأمير زين الدين عمر، و الأمير سيف الدين قرمشى، و الأمير علاء الدين مغلطاى المسعودىّ و غيرهم. و أخذ الأمير زين الدين كتبغا و أعطى فى الملك و انفرد بتدبير الأمر و مشى مع الملك الناصر محمد مشى المملوك مع أستاذه.

ثمّ بعث بتقليد نائب الشام على عادته، و هو الأمير أيبك الحموىّ. ثم بعد ذلك نزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلعة الجبل فى موكب هائل بأبّهة السلطنة، و توجّه إلى ظاهر القاهرة ثمّ عاد و شقّ القاهرة، و دخل من باب النصر و خرج من باب زويلة عائدا إلى القلعة، و الأمراء مشاة بين يديه حتّى الأمير كتبغا، و كان ذلك فى يوم الأحد رابع عشرين شهر رجب. و لمّا كان سابع عشرين شهر رمضان ظهر الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ من اختفائه و اجتمع بالأمير كتبغا خفية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۸

فتكلّم كتبغا فى أمره مع الأمراء، فاتّفقوا على إظهار أمره لما رأوا فى ذلك من إصلاح الحال، فطيّب كتبغا خاطر الأمير حسام الدين لاچين و وعده أن يتكلّم فى أمره مع السلطان و المماليك الأشرفيّة. و لا زال كتبغا بالسلطان و الحاشية حتى رضّاهم عليه و طيّب قلوبهم إلى أن كان يوم عيد الفطر، ظهر حسام الدين لاچين من دار كتبغا، و حضر السّماط و قبّل الأرض بين يدى السلطان الملك الناصر محمد، فخلع عليه السلطان و طيب قلبه، و لم يعاتبه بما فعل مع أخيه الملك الأشرف خليل مراعاة لخاطر كتبغا. ثم خلع عليه الأمير كتبغا أيضا، و حملت إليه الهدايا و التّحف من الأمراء و غيرهم؛ كلّ ذلك لأجل خاطر كتبغا. و اصطلحت أيضا معه المماليك الأشرفيّة على ما فى نفوسهم منه من قتل أستاذهم بأمر كتبغا لهم و إلحاحه عليهم فى ذلك حتى قبلوا كلامه. و كانت مكافأة لاچين لكتبغا بعد هذا الإحسان كله بأن دبّر عليه حتّى أخذ الملك منه و تسلطن عوضه على ما يأتى ذكره و بيانه إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ خلع السلطان على الصاحب تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنّا باستقراره فى الوزارة بالديار المصريّة.

ثمّ استهلت سنة أربع و تسعين و ستمائة و الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد. و سلطان مصر و الشام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و مدبّر مملكته الأمير كتبغا المنصورىّ. و لمّا كان عاشر المحرّم ثار جماعة من المماليك الأشرفيّة خليل فى الليل بمصر و القاهرة و عملوا عملا قبيحا و فتحوا أسواق السلاح بالقاهرة بعد حريق باب السعادة، و أخذوا خيل السلطان و خرقوا ناموس الملك، و ذلك كلّه بسبب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۴۹

ظهور الأمير حسام الدين لاچين و عدم قتله؛ فإنّه كان ممّن باشر قتل أستاذهم الملك الأشرف خليل، فحماه الأمير كتبغا و رعاه، و أيضا قد بلغهم خلع أخى أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة و سلطنة كتبغا فتزايدت وحشتهم و ترادفت عليهم الأمور، فاتّفقوا و وثبوا فلم ينتج أمرهم. فلمّا أصبح الصباح قبض عليهم الأمير كتبغا و قطع أيدى بعضهم و أرجلهم و كحّل البعض و قطع ألسنة آخرين و صلب جماعة منهم على باب زويلة؛ ثم فرّق بقيّة المماليك على الأمراء و المقدّمين، و كانوا فوق الثلاثمائة نفر و هرب الباقون؛ فطلب الأمير زين الدين كتبغا الخليفة و القضاة و الأمراء و تكلّم معهم فى عدم أهليّة الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنّه، و أنّ الأمور لابدّ لها من رجل كامل تخافه الجند و الرعيّة و تقف عند أوامره و نواهيه.

كلّ ذلك كان بتدبير لاچين فإنّه لمّا خرج من إخفائه علم أنّ المماليك الأشرفيّة لا بدّ لهم من أخذ ثار أستاذهم منه. و أيضا أنّه علم أنّ الملك الناصر محمد متى ترعرع و كبر لا يبقيه لكونه كان ممّن قتل أخاه الملك الأشرف خليلا، فلمّا تحقق ذلك أخذ يحسّن للأمير كتبغا السلطنة و خلع ابن استاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون و سلطنته، و كتبغا يمتنع من ذلك فلا زال به لاچين حتّى حذّره و أخافه عاقبة ذلك، و قال له:

متى كبر الملك الناصر لا يبقيك البتّة، و لا يبقى أحدا ممّن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف، و أنّ هؤلاء الأشرفيّة ما دام الملك الناصر محمد فى الملك شوكتهم قائمة، و المصلحة خلعه و سلطنتك. فمال كتبغا إلى كلامه، غير أنّه أهمل الأمر و أخذ فى تدبير ذلك على مهل. فلمّا وقع من الأشرفيّة ما وقع وثب و طلب الخليفة و القضاة حسب ما ذكرناه. و لمّا حضر الخليفة و القضاة و اتّفق رأى الأمراء و الجند على خلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملك و سلطنة كتبغا هذا عوضه؛ فوقع ذلك و خلع الملك الناصر محمد من السلطنة و تسلطن كتبغا و جلس على تخت الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۰

فى يوم خلع الملك الناصر، و هو يوم الخميس ثانى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة بعد واقعة المماليك الأشرفيّة بيومين، و أدخل الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الدور بالقلعة، و أمره كتبغا بألّا يركب و لا يظهر. و كان عمره يوم خلع نحو العشر سنين.

و كانت مدّة سلطنته فى هذه المرّة الأولى سنة واحدة إلا ثلاثة أيام أو أقلّ. و يأتى بقية ترجمته فى سلطنته الثانية و الثالثة إن شاء اللّه تعالى.

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر محمد الأولى على مصر على أنّه لم يكن له من السلطنة فيها إلّا مجرّد الاسم فقط، و إنّما كان الأمر أوّلا للأمير علم الدين سنجر الشجاعى ثم للأمير كتبغا المنصورىّ، و هى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، على أنّ الأشرف قتل فى أوائلها فى المحرّم حسب ما تقدّم ذكره.

فيها توفّى الصاحب فخر الدين أبو العبّاس إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشّيبانىّ الإسعردىّ ثم المصرىّ، رئيس الموقّعين بالديار المصريّة، ثم الوزير بها ولى الوزارة مرّتين، و كان مشكور السّيرة قليل الظّلم كثير العدل و الإحسان للرعيّة.

و فى أيام وزارته سعى فى إبطال مظالم كثيرة، و كان يتولّى الوزارة بجامكيّة الإنشاء، و عند ما يعزلونه من الوزارة يصبح يأخذ غلامه

الحرمدان خلفه، و يروح يقعد فى ديوان الإنشاء و كأنّه ما تغيّر عليه شىء، و كان أصله من العدن من بلاد إسعرد و تدرّب فى الإنشاء بالصاحب بهاء الدين زهير حتى برع فى الإنشاء و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۱

قال الذهبىّ: رأيته شيخا بعمامة صغيرة و قد حدّث عن ابن رواح و كتب عنه البرزالىّ و الطّلبة. انتهى. و كان ابن لقمان المذكور فاضلا ناظما ناثرا مترسّلا، و مات بالقاهرة فى جمادى الآخرة و دفن بالقرافة. و من شعره:

كن كيف شئت فإنّنى بك مغرم راض بما فعل الهوى المتحكّم

و لئن كتمت عن الوشاة صبابتى بك فالجوانح بالهوى تتكلّم

أشتاق من أهوى و أعجب أنّنى أشتاق من هو فى الفؤاد مخيّم

يا من يصدّ عن المحبّ تدلّلا و إذا بكى وجدا غدا يتبسّم

أسكنتك القلب الذى أحرقته فحذار من نار به تتضرّم

و فيها قتل الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الشّجاعىّ المنصورىّ، كان من مماليك الملك المنصور قلاوون، و ترقّى حتّى ولى شدّ الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصريّة فى أوائل دولة الناصر، و ساءت سيرته و كثر ظلمه، ثم ولى نيابة دمشق فتلطّف بأهلها و قلّ شرّه، و دام بها سنين إلى أن عزل بالأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ، و قدم إلى القاهرة. و كان موكبه يضاهى موكب السلطان من التجمّل، و مع ظلمه كان له ميل لأهل العلم و تعظيم الإسلام، و هو الذى كان مشدّ عمارة البيمارستان المنصورىّ ببين القصرين فتمّمه فى مدّة يسيرة، و نهض بهذا العمل العظيم و فرغ منه فى أيّام قليلة، و كان يستعمل فيه الصنّاع و الفعول بالبندق حتّى لا يفوته من هو بعيد عنه فى أعلى سقالة كان. و يقال إنّه يوما وقع بعض الفعول من أعلى السقالة بجنبه فمات، فما اكترث سنجر هذا و لا تغيّر من مكانه و أمر بدفنه. ثم عمل الوزارة أيضا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۲

فى أوائل دولة الناصر محمد بن قلاوون أكثر من شهر حسب ما تقدّم ذكره، و حدّثته نفسه بما فوق الوزارة، فكان فى ذلك حتفه و قتله حسب ما ذكرناه فى أوّل ترجمة الملك الناصر هذا، و فرح أهل مصر بقتله فرحا زائدا حتّى إنّه لمّا طافت المشاعليّة برأسه على بيوت الكتّاب القبط بلغت اللّطمة على وجهه بالمداس نصفا، و البولة عليه درهما، و حصّلوا المشاعليّة جملا من ذلك.

قلت: و هذا غلط فاحش من المشاعليّة، قاتلهم اللّه! لو كان من الظلم ما كان هو خير من الأقباط النصارى. و لمّا كان على نيابة دمشق وسّع ميدانها أيّام الملك الأشرف، فقال الأديب علاء الدين الوداعىّ فى ذلك:

علم الأمير بأنّ سلطان الورى يأتى دمشق و يطلق الأموالا

فلأجل ذا قد زاد فى ميدانها لتكون أوسع للجواد مجالا

قال الصلاح الصّفدىّ: أخبرنى من لفظه شهاب الدين بن فضل اللّه قال أخبرنى والدى عن قاضى القضاة نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين شيخ الجبل قال: كنت ليلة نائما فاستيقظت و كأن من أنبهنى و أنا أحفظ كأنّما قد أنشدت ذلك:

عند الشجاعىّ أنواع منوّعة من العذاب فلا ترحمه بالله

لم تغن عنه ذنوب قد تحمّلها من العباد و لا مال و لا جاه

قال: ثم جاءنا الخبر بقتله بعد أيام قلائل فكانت قتلته فى تلك الليلة التى أنشدت فيها الشعر. انتهى.

قلت: و هذا من الغرائب. و قد ذكرنا من أحوال سنجر هذا فى تاريخنا المنهل الصافى نبذة كبيرة كونه كتاب تراجم و ليس للإطناب لهؤلاء هنا محلّ. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۳

و فيها توفّى قتيلا الملك كيختو ملك التّتار قتله ابن أخيه بيدو.

قلت: و هنا نكتة غريبة لم يفطن إليها أحد من مؤرّخى تلك الأيام، و هى أنّ سلطان الديار المصرية الملك الأشرف خليل بن قلاوون قتله نائبه الأمير بيدرا، و ملك التتار كيختو هذا أيضا قتله ابن أخيه بيدرا، و كلاهما فى سنة واحدة، و ذاك فى الشرق و هذا فى الغرب. انتهى.

و ملك بعد كيختو بيدو المذكور الذى قتله.

قلت: و كذلك وقع للأشرف خليل؛ فإن بيدرا ملك بعده يوما واحدا و تلقّب بالملك الأوحد. و على كلّ حال فإنّهما تشابها أيضا. انتهى. و كان بيدو الذى ولى أمر التّتار يميل إلى دين النّصرانيّة، و قيل إنه تنصّر، لعنه اللّه، و وقع له مع الملك غازان أمور يطول شرحها.

و فيها قتل الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبى الرجاء التّنوخىّ الدمشقىّ التاجر المعروف بابن السّلعوس. قال الشيخ صلاح الدين الصّفدى: كان فى شبيبته يسافر بالتجارة، و كان أشقر سمينا أبيض معتدل القامة فصيح العبارة حلو المنطق وافر الهيبة كامل الأدوات خليقا للوزارة تامّ الخبرة زائد الإعجاب عظيم التّيه، و كان جارا للصاحب تقىّ الدين البيّع، فصاحبه و رأى فيه الكفاءة فاخذ له حسبة دمشق، ثم توجّه إلى مصر و توكّل للملك الأشرف خليل فى دولة أبيه، فجرى عليه نكبة من السلطان فشفع فيه مخدومه الأشرف خليل، و أطلقه من الاعتقال، و حج فتملّك الأشرف فى غيبته. و كان محبّا له فكتب إليه بين الأسطر: يا شقير، يا وجه الخير، قدّم السّير. فلمّا قدم وزره. و كان إذا ركب تمشى الأمراء الكبار فى خدمته. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۴

قلت: و كان فى أيام وزارته يقف الشجاعىّ المقدّم ذكره فى خدمته، فلمّا قتل مخدومه الملك الأشرف و هو بالإسكندريّة قدم القاهرة فطلب إلى القلعة فأنزله الشجاعىّ من القلعة ماشيا، ثم سلّمه من الغد إلى عدوّه الأمير بهاء الدين قراقوش [الظاهرىّ] مشدّ الصّحبة، قيل: إنّه ضربه ألفا و مائة مقرعة، ثم تداوله المسعودىّ و غيره و أخذ منه أموالا كثيرة، و لا زال تحت العقوبة حتى مات فى صفر. و لما تولّى الوزارة كتب إليه بعض أحبّائه من الشام يحذّره من الشجاعىّ:

تنبّه يا وزير الأرض و اعلم بأنّك قد وطئت على الأفاعى

و كن باللّه معتصما فإنّى أخاف عليك من نهش الشجاعى

فبلغ الشجاعىّ، فلما جرى ما جرى طلب أقاربه و أصحابه و صادرهم، فقيل له:

عن الناظم، فقال: لا أوذيه فإنّه نصحه فىّ و ما انتصح. و قد أوضحنا أمره فى المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى بأطول من هذا. انتهى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المقرئ شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدّمياطىّ بدمشق فى صفر. و قاضى القضاة شهاب الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن خليل الخويّىّ. و السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون، فتكوا به فى المحرّم. و نائبه بيدرا قتل من الغد. و وزيره الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن السّلعوس هلك تحت العذاب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و سبع أصابع. و ثبت إلى سادس عشر توت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۴]

ذكر سلطنة الملك العادل زين الدّين كتبغا على مصر

هو السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد اللّه المنصوريّ التركيّ المغليّ سلطان الديار المصريّة؛ جلس على تخت الملك بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى يوم الخميس ثانى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستّمائة باتّفاق الأمراء على سلطنته. و هو السلطان العاشر من ملوك التّرك بالديار المصريّة، و أصله من التّتار من سبى وقعة حمص الأولى التى كانت فى سنة تسع و خمسين و ستمائة؛ فأخذه الملك المنصور قلاوون و أدّبه ثم أعتقه؛ و جعله من جملة مماليكه، و رقّاه حتّى صار من أكابر أمرائه، و استمرّ على ذلك فى الدولة الأشرفيّة خليل بن قلاوون إلى أن قتل، و تسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثلاث و تسعين و أقام الناصر فى الملك إلى سنة أربع و تسعين و وقع الاتفاق على خلعه و سلطنة كتبغا هذا، فتسلطن و تلقّب بالملك العادل، و سنّه يوم ذاك نحو الأربعين سنة، و قيل خمسين سنة. و قد تقدّم سبب خلع الملك الناصر محمد و سلطنة كتبغا هذا فى آخر ترجمة الملك الناصر محمد فلا حاجة فى الإعادة.

و قال الشيخ شمس الدين بن الجزريّ قال: حكى لى الشيخ أبو الكرم النّصرانيّ الكاتب، قال: لمّا فتح هولاكو حلب بالسيف و دمشق بالأمان طلب هولاكو نصير الدين الطّوسيّ و كان فى صحبته، و قال له: اكتب أسماء مقدّمى عسكرى، و أبصر أيّهم يملك مصر، و يقعد على تخت الملك بها حتّى أقدّمه؟ قال: فحسب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٥٦

نصير الدّين [أسماء] المقدّمين؛ فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصريّة غير اسم كتبغا. و كان كتبغا صهر هولاكو، فقدّمه على العساكر فتوجّه بهم كتبغا فآنكسر على عين جالوت، فتعجّب هولاكو من هذه الواقعة و ظنّ أنّ نصير الدين قد غلط فى حسابه. و كان كتبغا هذا من جملة من كان فى عسكر هولاكو من التّتار ممّن لا يؤبه إليه من الأصاغر، و كسبه قلاوون فى الواقعة؛ فكان بين المدّة نحو من خمس و ثلاثين سنة، حتّى قدّر اللّه تعالى بما قدّر من سلطنة كتبغا هذا. انتهى.

و لمّا تمّ أمر كتبغا فى الملك و تسلطن مدّ سماطا عظيما و أحضر جميع الأمراء و المقدّمين و العسكر و أكلوا السّماط، ثم تقدّموا و قبّلوا الأرض ثم قبّلوا يده و هنّئوه بالسلطنة، و خلع على الأمير حسام الدين لا چين و ولّاه نيابة السلطنة بالديار المصريّة، و ولّى عز الدين الأفرم أمير جاندار، و الأمير سيف الدين بهادر حاجب الحجّاب؛ ثم خلع على جميع الأمراء و المقدّمين و من له عادة بلبس الخلع [عند تولية الملك كما جرت العادة]. و فى يوم الخميس تاسع عشر المحرّم ركب جميع الأمراء و المقدّمين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٥٧

و جميع من خلع عليه و أتوا إلى سوق الخيل و ترجّلوا و قبّلوا الأرض، ثم كتب بسلطنة الملك العادل إلى البلاد الشاميّة و غيرها. و زيّنت مصر و القاهرة لسلطنته.

و لمّا كان يوم الأربعاء مستهلّ شهر ربيع الأوّل ركب السلطان الملك العادل كتبغا بأبّهة السلطنة و شعار الملك من قلعة الجبل و نزل و سار إلى ظاهر القاهرة نحو قبّة النصر، و عاد من باب النصر و شقّ القاهرة حتّى خرج من باب زويلة عائدا إلى قلعة الجبل، كما جرت العادة بركوب الملوك. و لم تطل مدّة سلطنته حتى وقع الغلاء و الفناء بالديار المصرية و أعمالها؛ ثمّ انتشر ذلك بالبلاد الشاميّة جميعها فى شوّال من هذه السنة، و ارتفع سعر القمح حتّى بيع كلّ اردبّ بمائة و عشرين درهما بعد أن كان بخمسة و عشرين درهما الإردبّ، و هذا فى هذه السنة، و أما فى السنة الآتية التى هى سنة خمس و تسعين و ستمائة فوصل سعر القمح إلى مائة و ستين درهما الإردبّ.

و أمّا الموت فإنّه فشا بالقاهرة و كثر، فأحصى من مات بها و ثبت اسمه فى ديوان [المواريث] فى ذى الحجّة فبلغوا سبعة عشر ألفا و خمسمائة. و هذا سوى من لم يرد اسمه فى ديوان المواريث من الغرباء و الفقراء و من لم يطلق من الديوان. و رحل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عظم الغلاء و تخلخل أمر الديار المصريّة. و فى هذه السنة حجّ الأمير أنس بن الملك العادل كتبغا صاحب الترجمة، و حجّت معه والدته و أكثر حرم السلطان، و حجّ بسببهم خلق كثير من نساء الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۸

بتجمّل زائد، و حصل بهم رفق كبير لأهل مكّة و المدينة و المجاورين، و شكرت سيرة ولد السلطان أنس المذكور و بذل شيئا كثيرا لصاحب مكّة.

ثم استهلّت سنة خمس و تسعين و ستمائة و خليفة المسلمين الحاكم بأمر اللّه أبو العبّاس أحمد الهاشميّ البغداديّ العباسيّ. و سلطان الديار المصريّة و البلاد الشاميّة و الشماليّة و الفراتيّة و الساحليّة الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوريّ. و وزيره الصاحب فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين بن الخليليّ. و نائب السلطنة بالديار المصريّة الأمير حسام الدين لاچين المنصوريّ. و صاحب مكّة، شرّفها اللّه تعالى، الشريف نجم الدين أبو نميّ محمد الحسنيّ المكّي. و صاحب المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصلاة و السلام، عزّ الدين جمّاز بن شيحة الحسينيّ.

و صاحب اليمن ممهّد الدين عمر ابن الملك المظفّر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور عمر [بن عليّ] بن رسول. و صاحب حماة بالبلاد الشاميّة الملك المظفّر تقيّ الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفّر تقيّ الدين محمود [ابن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر] بن شاهنشاه بن أيّوب. و صاحب ماردين [الملك السعيد شمس الدين داود ابن] الملك المظفّر فخر الدين ألبى أرسلان ابن الملك السعيد شمس الدين قرا أرسلان بن أرتق الأرتقيّ. و صاحب الروم السلطان غياث الدين مسعود ابن السلطان عز الدين [كيكاوس] ابن السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۵۹

غياث الدين كيخسرو بن سلجوق السّلجوقى. و ملك التّتار غازان و يقال قازان، و كلاهما يصحّ معناه، و اسمه الحقيقيّ محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، و هو مظهر الإسلام و شعائر الإيمان. و نائب دمشق الأمير عزّ الدين أيبك الحمويّ المنصوريّ.

و كان الموافق لأوّل هذه السنة عاشر بابه أحد شهور القبط المسمّى بالروميّ تشرين الأوّل.

و قال الشيخ قطب الدين اليونينيّ: و فى العشر الأوّل من المحرّم حكى جماعة كثيرة من أهل دمشق و استفاض ذلك فى دمشق و كثر الحديث فيه عن قاضى جبّة أعسال، و هى قرية من قرى دمشق، أنّه تكلّم ثور بقرية من قرى جبّة أعسال، و ملخّصها: أنّ الثور خرج مع صبيّ يشرب ماء من هناك فلمّا فرغ حمد اللّه تعالى فتعجّب الصبى! و حكى لسيّده مالك الثور فشكّ فى قوله، و حضر فى اليوم الثانى بنفسه، فلمّا شرب الثور حمد اللّه تعالى؛ ثم فى اليوم الثالث حضر جماعة و سمعوه يحمد اللّه تعالى؛ فكلّمه بعضهم فقال الثور: «إنّ اللّه كان كتب على الأمّة سبع سنين جدبا، و لكن بشفاعة النّبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبدلها بالخصب، و ذكر أنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أمره بتبليغ ذلك، و قال الثور: يا رسول اللّه ما علامة صدقى عندهم؟ قال: أن يموت عقب الإخبار. قال الحاكى لذلك: ثم تقدّم الثور على مكان عال فسقط ميتا، فأخذ الناس من شعره للتّبرّك، و كفّن و دفن. انتهى.

قلت: و هذه الحكاية غريبة الوقوع و الحاكى لها ثقة حجّة، و قد قال: إنّه استفاض ذلك بدمشق. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۰

و أمّا أمر الديار المصريّة فإنه عظم أمر الغلاء بها حتّى أكل بعضهم الميتات و الكلاب، و مات خلق كثير بالجوع. و الحكايات فى ذلك كثيرة، و انتشر الغلاء شرقا و غربا. و بينما السلطان الملك العادل كتبغا فيما هو فيه من أمر الغلاء ورد عليه الخبر فى صفر بأنّه قد وصل إلى الرّحبة عسكر كثير نحو عشرة آلاف بيت من عسكر بيدو ملك التّتار طالبين الدخول فى الإسلام خوفا من السلطان غازان، و مقدّمهم أمير اسمه طرغاى، و هو زوج بنت هولاكو؛ فرسم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سنجر [الدوادارى] بأن يسافر من دمشق إلى الرّحبة حتّى يتلقاهم، فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سنقر الأعسر شادّ دواوين دمشق، ثم ندب الملك العادل أيضا الأمير قرا سنقر المنصوريّ بالخروج من القاهرة، فخرج حتّى وصل إلى دمشق لتلقى المذكورين، و رسم له أن يحضر معه فى عوده إلى مصر جماعة من أعيانهم، فوصل قرا سنقر إلى دمشق و خرج لتلقّيهم، ثم عاد إلى دمشق فى يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، و معه

من أعيانهم مائة فارس و ثلاثة عشر فارسا؛ و فرح الناس بهم و بإسلامهم و أنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان.

و أمّا الأمير علم الدين سنجر الدّوادارى فبقى مع الباقين، و هم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير و كهل و صغير و امرأة و معهم ماشية كثيرة و رخت عظيم، و أقام قرا سنقر بهم أيّاما، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية، و قدموا القاهرة فى آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا و رتّب لهم الرواتب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص ۶۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۱

ثمّ بدا للملك العادل كتبغا السفر إلى البلاد الشاميّة لأمر مقدّر اقتضاه رأيه، و أخذ فى تجهيز عساكره و تهيّأ للسفر، و خرج بجميع عساكره و أمرائه و خاصّيكيته فى يوم السبت سابع عشر شوّال و سار حتّى دخل دمشق، فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة و خامس ساعة من النهار المذكور و دخل دمشق و الأمير بدر الدين بيسرى حامل الجتر على رأسه، و نائب سلطنته الأمير حسام الدين لاچين المنصورى ماشيا بين يديه، و وزيره الصاحب فخر الدين بن الخليلىّ، و احتفل أهل دمشق لقدومه و زيّنت المدينة و فرح الناس به.

و لمّا دخل الملك العادل إلى دمشق و أقام بها أيّاما عزل عنها نائبها الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ، و ولّى عوضه فى نيابة دمشق مملوكه الأمير سيف الدين أغزلوا العادلى و عمره نحو من اثنتين و ثلاثين سنة، و أنعم على الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ بخبز أغزلو بمصر، و خرجا من عند السلطان و عليهما الخلع، هذا متولّ و هذا منفصل. ثم سافر السلطان الملك العادل من دمشق فى ثانى عشر ذى الحجّة بأكثر العسكر المصرىّ و بقيّة جيش الشام إلى جهة قرية جوسية، و هى ضيعة اشتراها له الصاحب شهاب الدين الحنفىّ فتوجّه إليها، ثم سافر منها فى تاسع عشر ذى الحجّة إلى حمص و نزل عند البحرة بالمرج بعد ما أقام فى البريّة أيّاما لأجل الصيد، و حضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۲

إليه نوّاب البلاد الحلبيّة جميعها؛ ثم عاد إلى دمشق و دخلها بمن معه من العساكر ضحا نهار الأربعاء ثانى المحرّم من سنة ست و تسعين و ستمائة. و أقام بدمشق إلى يوم الجمعة رابع المحرّم ركب السلطان الملك العادل المذكور بخواصّه و أمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعة فحضر و صلّى بالمقصورة؛ و أخذ من الناس قصصهم حتى إنّه رأى شخصا بيده قصّة فتقدّم إليه بنفسه خطوات و أخذها منه؛ و لمّا جلس الملك العادل للصلاة بالمقصورة جلس عن يمينه الملك المظفّر تقىّ الدين محمود صاحب حماة، و تحته بدر الدّين أمير سلاح، ثم من تحته نائب دمشق أغزلو العادلىّ؛ و عن يسار السلطان الشيخ حسن بن الحريرى و أخواه، ثم نائب السلطنة لاچين المنصورىّ، ثم تحته نائب دمشق الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ (أعنى الذى عزل عن نيابة دمشق)، ثم من تحته الأمير بدر الدين بيسرى، ثم قرا سنقر المنصورى، ثم الحاج بهادر حاجب الحجّاب؛ ثم الأمراء على مراتبهم ميمنة و ميسرة.

فلمّا انقضت الصلاة خرج من الجامع و الأمراء بين يديه و الناس يبتهلون بالدعاء له، و أحبّه أهل دمشق و شكرت سيرته، و حمدت طريقته. ثم فى يوم الخميس سابع عشر المحرّم أمسك السلطان الأمير أسندمر و قيّده و حبسه بالقلعة. و فى يوم الاثنين حادى عشرين المحرّم عزل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر عن شدّ دواوين دمشق و رسم له بالسفر صحبة السلطان إلى مصر، و ولّى عوضه فتح الدين ابن صبرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۳

و لمّا كان بكرة يوم الاثنين المذكور خرج السلطان الملك العادل من دمشق بعساكره و جيوشه نحو الديار المصريّة، و سار حتى نزل باللّجّون بالقرب من وادى فحمة فى بكرة يوم الاثنين ثامن عشرين المحرّم من سنة ست و تسعين، و كان الأمير حسام الدين لاچين المنصورىّ نائب السلطنة قد اتّفق مع الأمراء على الوثوب على السلطان الملك العادل كتبغا هذا و الفتك به، فلم يقدر عليه لعظم شوكته؛ فدبّر أمرا آخر و هو أنّه ابتدأ أوّلا بالقبض على الأميرين: بتخاص و بكتوت الأزرق العادليين، و كانا شهمين شجاعين عزيزين

عنـد أسـتاذهما الملك العادل المذكور، فركب لاچين بمن وافقه من الأمراء على حين غفلة و قبض على الأميرين المذكورين و قتلهما فى الحال، و قصـد مخيّم السـلطان فمنعه بعض مماليك السـلطان قليلا و عوّقوه عن الوصول إلى الملك العادل. و كان العادل لمّا بلغه هـذا الأـمر علم أنّه لاـ قبـل له على قتـال لاچين لعلمه بمن وافقه من الأمراء و غيرهم و خاف على نفسه، و ركب من خيل النّوبـة فرسـا تسـمّى حمامة و ساق لقلّة سعده و لزوال ملكه راجعا إلى الشام، و لو أقام بمخيّمه لم يقدر لاچين على قتاله و أخذه، فما شاء اللّه كان! و ساق حتى وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم قرب العصر، و معه أربعة أو خمسة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۴

خواصّه. و كـان وصـل إلى دمشق يوم الأربعـاء آخر المحرّم أوّل النهـار أمير شـكار السـلطان، و أخبر نـائب الشـام بصورة الحـال و هو مجروح، فتهيـأ نـائب الشام الأمير أغزلو العادلىّ و اسـتعدّ و أحضـر أمراء الشام عنـد السـلطان و رسم بالاحتياط على نوّاب الأمير حسام الـدين لاچين و على حواصـله بـدمشق، و نـدم الملك العادل على ما فعله مع لاچين هـذا من الخير و المدافعة عنه، من كونه كان أحد من أعانه على قتل الأشرف، و على أنّه ولّاه نيابة السلطنة، و فى الجملة أنّه ندم حيث لا ينفعه الندم! و على رأى من قال ": أشبعتهم سبّا و فازوا بالإبل "و مثله أيضا قول القائل:

من راقب الناس مات غمّا و فاز باللّذة الجسور

ثم إنّ الملك العادل طلب قاضـى قضاة دمشق بدر الدين بن جماعة فحضر بين يدى السلطان هو و قاضى القضاة حسام الدين الحنفىّ، و حضرا عند الملك العادل تجليف الأمراء و المقدّمين و تجديد المواثيق منهم، و وعدهم و طيّب قلوبهم.

و أمّا الأمير حسام الدين لاچين فإنّه اسـتولى على دهليز السـلطان و الخزائن و الحرّاس و العساكر من غير ممانع، و تسلطن فى الطريق و لقّب بالملك المنصور حسام الدين لاچين، و توجّه إلى نحو الديار المصـريّة و ملكها و تمّ أمره، و خطب له بمصر و أعمالها و القدس و الساحل جميعه.

و أمّـا الملـك العـادل فإنّه أقام بقلعـة دمشق هـذه الأيّام كلّها لا يخرج منها، و أمّر جماعـة بـدمشق، و أطلق بعض المكوس بها، و قرئ بذلك توقيع يوم الجمعة سادس عشر صفر بعد صلاة الجمعة بالجامع. و بينما هو فى ذلك ورد الخبر على أهل دمشق بأنّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۵

مدينة صفد زيّنت لسلطنة لاچين و دقّ بها البشائر، و كذلك نابلس و الكرك.

فلمّا بلغ الملك العادل ذلك جهّز جماعة من عسـكر دمشق مقدّمهم الأمير طقصـبا الناصرىّ بكشف هذا الأمر و تحقيق الخبر، فتوجّهوا يوم الخميس ثانى عشرين صفر فعلموا بعد خروجهم فى النهار المذكور بدخول الملك المنصور لاچين إلى مصر و سلطنته، فرجعوا و علموا عـدم الفائـدة فى توجّههم. ثم فى الغـد من يوم الجمعـة ثالث عشـرين صـفر ظهر الأمر بدمشق و انكشف الحال و جوهر الملك العادل كتبغا بـذلك، و بلغه أنّه لمّا وصل العسـكر إلى غزّة ركب الأمير حسام الـدين لاچين فى دست السـلطنة، و حمل البيسـرى على رأسه الجتر و حلفوا له، و نعت بالملك المنصور.

ثم فى يوم السـبت رابع عشـرين صـفر وصل إلى دمشق الأمير كجكن و معه جماعـة من الأمراء كانوا مجرّدين إلى الرّحبة، فلم يدخلوا دمشق بـل توجّهوا إلى جهـة ميـدان الحصا، و أعلن الأمير كجكن أمر الملك المنصور لاچين، و علم جيش دمشق بـذلك، فخرج إليه طائفـة بعـد طائفـة، و كان قبل ذلك قـد توجّه أميران من أكابر أمراء دمشق إلى جهة الديار المصـريّة. فلمّا تحقّق الملك العادل كتبغا بـذلك و علم انحلال أمره و زوال دولته بالكليّة أذعن بالطاعـة لأـمراء دمشق، و قال لهم: الملك المنصور لاچين خشداشـى و أنا فى خـدمته و طاعته، و حضـر الأمير سـيف الـدين جاغان الحسامىّ إلى قلعة دمشق إلى عند الملك العادل كتبغا، فقال له كتبغا: أنا أجلس فى مكان بالقلعة حتّى نكاتب السـلطان و نعتمد على ما يرسم به. فلمّا رأى الأمراء منه ذلك تفرّقوا و توجّهوا إلى باب الميدان و حلفوا للملـك المنصور لاـچين و أرسـلوا البريـد إلى القـاهرة بـذلك، ثم احتفظوا بالقلعـة و بالملك العادل كتبغا، و لبس عسـكر دمشق آلة

الحرب و سيّروا عامّة نهار السبت بظاهر دمشق و حول القلعة؛ و الناس فى هرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۶

و اختباط و أقوال مختلفة، و أبواب دمشق مغلّقة سوى باب النصر، و باب القلعة مغلّق فتح منه خوخته، و اجتمع العامّة و الناس من باب القلعة إلى باب النصر و ظاهر البلد حتّى سقط منهم جماعة كثيرة فى الخندق فسلم جماعة و هلك دون العشرة، و أمسى الناس يوم السبت و قد أعلن باسم الملك المنصور لاچين لا يخفى أحد ذلك، و شرع [وقت العصر فى] دقّ البشائر بالقلعة. ثم فى سحر يوم الأحد ذكره المؤذّنون بجامع دمشق، و تلوا قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ... إلى آخرها.

و أظهروا اسم المنصور و الدعاء له، ثم ذكره قارئ المصحف بعد صلاة الصبح بمقصورة جامع دمشق، و دقّت البشائر على أبواب جميع أمراء دمشق دقّا مزعجا، و أظهروا الفرح و السرور و أمر بتزين أسواق البلد جميعها فزيّنت مدينة دمشق، و فتحت دكاكين دمشق و أسواقها و اشتغلوا بمعايشهم، و تعجّب الناس من تسليم الملك العادل كتبغا الأمر إلى الملك المنصور لاچين على هذا الوجه الهيّن من غير قتال و لا حرب مع ما كان معه من الأمراء و الجند، و لو لم يكن معه إلّا مملوكه الأمير أغزلو العادلىّ نائب الشام لكفاه ذلك. على أنّ الملك المنصور لاچين كان أرسل فى الباطن عدّة مطالعات لأمراء دمشق و أهلها و استمال غالب أهل دمشق، فما أحوجه الملك العادل كتبغا لشىء من ذلك بل سلّم له الأمر على هذا الوجه الذى ذكرناه. خذلان من اللّه تعالى.

و أمّا الأمير سيف الدين أغزلو العادلىّ مملوك الملك العادل كتبغا نائب الشام لمّا رأى ما وقع من أستاذه لم يسعه إلا الإذعان للملك المنصور و أظهر الفرح به

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۷

و خلف له. و قال: الملك المنصور لاچين- نصره اللّه- هو الذى كان عيّننى لنيابة دمشق، و أستاذى الملك العادل كتبغا استصغرنى فأنا نائبه. ثم سافر هو و الأمير جاغان الحسامى إلى نحو الديار المصريّة.

و أمّا لاچين فإنّه تسلطن يوم الجمعة عاشر صفر و ركب يوم الخميس سادس عشر صفر و شقّ القاهرة و تمّ أمره. و أمّا الملك العادل كتبغا هذا فإنّه استمرّ بقلعة دمشق إلى أن عاد الأمير جاغان المنصورىّ الحسامىّ إلى دمشق فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الأوّل، و طلع من الغد إلى قلعة دمشق و معه الأمير الكبير حسام الدين الظاهرىّ أستاذ الدار فى الدولة المنصوريّة و الأشرفيّة، و الأمير سيف الدين كحكن، و حضر قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة قاضى دمشق و دخلوا الجميع إلى الملك العادل كتبغا، فتكلّم معهم كلاما كثيرا بحيث إنّه طال المجلس كالعاتب عليهم، ثم إنّه حلف يمينا طويلة يقول فى أوّلها: أقول و أنا كتبغا المنصورىّ، و يكرّر اسم اللّه تعالى فى الحلف مرّة بعد مرّة، أنّه يرضى بالمكان الذى عيّنه له السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين و لا يكاتب و لا يسارر، و أنّه تحت الطاعة، و أنه خلع نفسه من الملك و أشياء كثيرة من هذا النّموذج، ثم خرجوا من عنده. و كان المكان الذى عيّنه له الملك المنصور لاچين قلعة صرخد، و لم يعيّن المكان المذكور فى اليمين. ثم ولّى الملك المنصور نيابة الشام للأمير قبجق المنصورىّ و عزل أغزلوا العادلىّ، فدخل قبجق إلى دمشق فى يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأوّل، و تجهّز الملك العادل كتبغا و خرج من قلعة دمشق بأولاده و عياله و مماليكه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۸

و توجّه إلى صرخد فى ليلة الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور، و جرّدوا معه جماعة من الجيش نحو مائتى فارس إلى أن أوصلوه إلى صرخد. فكانت مدّة سلطنة الملك العادل كتبغا هذا على مصر سنتين و ثمانية و عشرين يوما، و قيل سبعة عشر يوما، و تسلطن من بعده الملك المنصور حسام الدين لاچين حسب ما تقدّم ذكره.

ثم كتب له الملك المنصور حسام الدين لاچين تقليدا بنيابة صرخد، فقبل الملك العادل ذلك و باشر نيابة صرخد سنين إلى أن نقله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية من نيابة صرخد إلى نيابة حماة. و صار من جملة نوّاب السلطنة، و كتب له

عن السلطان كما يكتب لأمثاله من النوّاب، و سافر فى التجاريد فى خدمة نوّاب دمشق و حضر الجهاد؛ و لم يزل على نيابة حماة حتى مات بها فى ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى و هو فى سنّ الكهولية. و دفن بحماة، ثم نقل منها و دفن بتربته التى أنشأها بسفح جبل قاسيون دمشق غربىّ الرّباط الناصرى، و له عليها أوقاف. و كان ملكا خيّرا ديّنا عاقلا عادلا سليم الباطن شجاعا متواضعا، و كان يحبّ الفقهاء و العلماء و الصلحاء و يكرمهم إكراما زائدا، و كان أسمر اللون قصيرا دقيق الصّدر قصير العنق، و كان له لحية صغيرة فى حنكه، أسر صغيرا من عسكر هولاكو. و كان لمّا ولى سلطنة مصر و الشام تشاءم الناس به، و هو أنّ النيل قد بلغ فى تلك السنة ست عشرة ذراعا ثم هبط من ليلته فشرقت البلاد و أعقبه غلاء عظيم حتى أكل الناس الميتة. و قد تقدّم ذكر ذلك فى أوّل ترجمته. و مات الملك العادل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۶۹

كتبغا المذكور بعد أن طال مرضه و استرخى حتى لم يبق له حركة. و ترك عدّة أولاد.

و تولّى نيابة حماة بعده الأمير بتخاص المنصورىّ نقل إليها من نيابة الشّوبك. و قد تقدّم التعريف بأحوال كتبغا هذا فى أوائل ترجمته و فى غيرها فيما مرّ ذكره. و أمر كتبغا هذا هو خرق العادة من كونه كان ولى سلطنة مصر أكثر من سنتين و صار له شوكة و مماليك و حاشية، ثم يخلع و يصير من جملة نوّاب السلطان بالبلاد الشاميّة؛ فهذا شىء لم يقع لغيره من الملوك. و أعجب من هذا أنّه لما قتل الملك المنصور لاچين و تحيّر أمراء مصر فيمن يولّونه السلطنة من بعده لم يتعرّض أحد لذكره و لا رشّح للعود البتّة حتى احتاجوا الأمراء و بعثوا خلف الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك، و أتوا به و سلطنوه.

قلت: و ما أظنّ أنّ القلوب نفرت منه إلا لما رأوه من دنىء همّته عند ما خلع من السلطنة و تسليمه للامر من غير قتال و لا ممانعة، و كان يمكنه أن يدافع بكلّ ما تصل القدرة إليه و لو ذهبت روحه عزيزة غير ذليلة، و ما أحسن قول عبد المطّلب جدّ نبيّنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و اسمه شيبة الحمد:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة و إن تسلّت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلّا فى منازلنا كالنّوم ليس له مأوى سوى المقل

و قول عنترة أيضا:

أروم من المعالى منتهاها و لا أرضى بمنزلة دنيّه

فإمّا أن أشال على العوالى و إمّا أن توسّدنى المنيّه

و يعجبنى المقالة الثامنة من تأليف العلّامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة اللّه الأصفهانى المعروف بشوروة فإنّ أوائلها تقارب ما نحن فيه، و هى:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۰

رتبة الشرف، لا تنال بالتّرف؛ و السعادة أمر لا يدرك، إلا بعيش يفرك، و طيب يترك؛ و نوم يطرد، و صوم يسرد؛ و سرور عازب، و همّ لازب؛ و من عشق المعالى ألف الغمّ، و من طلب اللآلئ ركب اليمّ؛ و من قنص الحيتان ورد النهر، و من خطب الحصان نقد المهر؛ كلّا أين أنت من المعالى! إنّ السّحوق جبّار و أنت قاعد، و الفيلق جرّار و أنت واحد؛ العقل يناديك و أنت أصلخ، و يدنيك و يحول بينكما البرزخ؛ لقد أزف الرحيل فاستنفد جهدك، و أكثب الصيد فضمّر فهدك؛ فالحذر يترصّد الانتهاز، و الحازم يهيّئ أسباب الجهاز؛ تجرّع مرارة النوائب فى أيّام معدوده، لحلاوة معهودة غير محدوده؛ و إنما هى محنة بائده، تتلوها فائده؛ و كربة نافده، بعدها نعمة خالده، [و غنيمة بارده]؛ فلا تكرهنّ صبرا أو صابا، يغسل عنك أو صابا؛ و لا تشربنّ وردا يعقبك سقاما، و لا تشمّن وردا يورثك زكاما؛ [ما ألين الرّيحان لو لا وخز البهمى، و ما أطيب الماذىّ لو لا حمة الحمى]! فلا تهولنّك مرارات ذاقها عصبه، إنما يريد اللّه ليهديهم بها؛ و لا تروقنّك حلاوات نالها فرقه، إنما يريد اللّه ليعذّبهم بها. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ٧١

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل كتبغا المنصوريّ على مصر، و هى سنة أربع و تسعين و ستمائة.

كان فيها الغلاء العظيم بسائر البلاد و لا سيّما مصر و الشام، و كان بمصر مع الغلاء و باء عظيم أيضا و قاسى الناس شدائد فى هذه السنة و استسقى الناس بمصر من عظم الغلاء و الفناء.

و فيها أسلم ملك التّتار غازان و أسلم غالب جنده و عساكره، على ما حكى الشيخ علم الدين البرزاليّ.

و فيها توفّى السلطان الملك المظفّر شمس الدين أبو المحاسن يوسف ابن السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ بن رسول التّركمانيّ الأصل الغسّانيّ صاحب بلاد اليمن، مات فى شهر رجب بقلعة تعزّ من بلاد اليمن، و قيل: اسم رسول محمد ابن هارون بن أبى الفتح بن نوحى بن رستم من ذرّيّة جبلة بن الأيهم، قيل: إنّ رسولا جدّ هؤلاء ملوك اليمن كان انضم لبعض الخلفاء العباسيّة، فاختصه بالرسالة إلى الشام و غيرها فعرف برسول، و غلب عليه ذلك. ثم انتقل من العراق إلى الشام ثم إلى مصر، و خدم هو و أولاده بعض بنى أيّوب، و هو مع ذلك له حاشية و خدم.

و لمّا أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك المعظّم توران شاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ٧٢

إلى اليمن أرسل الملك المنصور عمر والد صاحب الترجمة معه كالوزير له و استحلفه على المناصحة، فسار معه إلى اليمن. فلمّا ملك الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيّوب اليمن بعد توران شاه قرّب عمر المذكور و زاد فى تعظيمه و ولّاه الحصون، ثمّ ولّاه مكة المشرفة و رتّب معه ثلثمائة فارس، و حصل بينه و بين صاحب مكة حسن بن قتادة وقعة انكسر فيها حسن و دخل المنصور مكة و استولى عليها، و عمّر بها المسجد الذى اعتمرت منه عائشة أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها فى سنة تسع عشرة و ستمائة، ثم عمّر فى ولايته لمكة أيضا دار أبى بكر الصدّيق، رضى اللّه عنه فى زقاق الحجر فى سنة ثلاث و عشرين و ستمائة، ثم استنابه الملك المسعود على اليمن لمّا توجّه إلى الديار المصرية، و استناب على صنعاء أخاه بدر الدين حسن بن علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ٧٣

ابن رسول. و لمّا عاد الملك المسعود إلى اليمن قبض على نور الدين هذا و على أخيه بدر الدين حسن المذكور و على أخيه فخر الدين و على شرف الدين موسى تخوّفا منهم لما ظهر من نجابتهم فى غيبته، و أرسلهم إلى الديار المصريّة محتفظا بهم خلا نور الدين عمر (أعنى الملك المنصور) فإنّه أطلقه من يومه لأنه كان يأنس إليه، ثم استحلفه و جعله أتابك عسكره؛ ثم استنابه الملك المسعود ثانيا لمّا توجّه إلى مصر، و قال له:

إن متّ فأنت أولى بالملك من إخوتى لخدمتك لى، و إن عشت فأنت على حالك، و إياك أن تترك أحدا من أهلى يدخل اليمن، و لو جاءك الملك الكامل. ثم سار الملك المسعود إلى مكة فمات بها. فلما بلغ الملك المنصور ذلك استولى على ممالك اليمن بعد أمور و خطوب، و استوسق له الأمر، فكانت مدّة مملكته باليمن نيّفا على عشرين سنة. و مات بها فى ليلة السبت تاسع ذى القعدة سنة سبع و أربعين و ستمائة، و ملك بعده ابنه الملك المظفّر يوسف هذا، و هو ثانى سلطان من بنى رسول باليمن؛ و أقام الملك المظفّر هذا فى الملك نحوا من ستّ و أربعين سنة. و كان ملكا عادلا عفيفا عن أموال الرعيّة، حسن السّيرة كثير العدل، و ملك بعده ولده الأكبر الملك الأشرف ممهّد الدّين عمر فلم يمكث الأشرف بعد أبيه إلا سنة و مات، و ملك أخوه الملك المؤيّد هزبر الدّين داود. و مات الملك المظفّر هذا مسموما سمّته بعض جواريه. و مات و قد جاوز الثمانين. و خلّف من الأولاد الملك الأشرف الذى ولى بعده، و المؤيّد داود و الواثق [إبراهيم] و المسعود [تاج الدين حسن] و المنصور [أيوب]. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ٧۴

و فيها توفّى العلّامة جمال الدين أبو غانم محمد ابن الصاحب كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة اللّه بن أحمد بن أبى

جرادة الحلبىّ الحنفىّ المعروف بابن العديم.

مات بمدينة حماة، و كان إماما فاضلا بارعا من بيت غلم و رياسة.

و فيها قتل الأمير عساف ابن الأمير أحمد بن حجّىّ أمير العرب من آل مرى، و كان أبوه أكبر عربان آل برمك، و كان يدّعى أنه من نسل البرامكة من العبّاسة أخت هارون الرشيد. و قد ذكرنا ذلك فى وفاة أبيه الأمير شهاب الدين أحمد.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بكتوت بن عبد اللّه الفارسىّ الأتابكىّ، كان من خيار الأمراء و أكابرهم و أحسنهم سيرة.

و فيها توفّى شيخ الحجاز و عالمه الشيخ محبّ الدين أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم الطّبرىّ المكىّ الشافعىّ فقيه الحرم بمكة- شرفها اللّه تعالى- و مفتيه، و مولده فى سنة أربع عشرة و ستّمائة بمكّة. و كانت وفاته فى ذى القعدة. و قال البرزالىّ: ولد بمكّة فى يوم الخميس السابع و العشرين من جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و ستمائة.

قلت: و نشأ بمكّة و طلب العلم و سمع الكثير و رحل البلاد.

و قال جمال الدين الإسنائىّ: إنّه تفقّه بقوص على الشيخ مجد الدين القشيرىّ. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۵

و ذكر نحو ذلك القطب الحلبىّ فى تاريخ مصر، و حدّث و خرّج لنفسه أحاديث عوالى.

قال أبو حيّان: إنّه وقع له وهم فاحش فى القسم الأول و هو التّساعىّ، و هو إسقاط رجل من الإسناد حتى صار له الحديث تساعيّا فى ظنّه. انتهى.

قلت: و قد استوعبنا سماعاته و مصنّفاته و مشايخه فى ترجمته من تاريخنا المنهل الصافى، و المستوفى بعد الوافى مستوفاة فى الكتاب المذكور. و كان له يد فى النظم، فمن ذلك قصيدته الحائيّة:

ما لطرفى عن الجمال براح و لقلبى به غذا و رواح

كلّ معنى يلوح فى كلّ حسن لى إليه تقلّب و ارتياح

و منها:

فيهم يعشق الجمال و يهوى و يشوق الحمى و تهوى الملاح

و بهم يعذّب الغرام و يحلو و يطيب الثناء و الامتداح

لا تلم يا خلىّ قلبى فيهم ما على من هوى الملاح جناح

ويح قلبى و ويح طرفى إلى كم يكتم الحبّ و الهوى فضّاح

صاح عرّج على العقيق و بلّغ و قباب فيها الوجوه الصباح

و القصيدة طويلة كلّها على هذا المنوال.

و فيها توفّى سلطان إفريقيّة و ابن سلطانها و أخو سلطانها عمر بن أبى زكريّا يحيى ابن عبد الواحد بن عمر الهنتاتىّ الملقّب بالمستنصر بالله و المؤيّد به، و ولى سلطنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۶

تونس بعد وفاة أخيه إبراهيم فيما أظنّ، و قتل الدعىّ الذى كان غلب عليها، و ملك البلاد و دام فى الملك إلى أن مات فى ذى الحجّة. و كان عهد لولده عبد اللّه بالملك، فلمّا احتضر أشار عليه الشيخ أبو محمد المرجانى بأن يخلعه لصغر سنّه فخلعه، و ولّى ولد الواثق محمد بن يحيى بن محمد الملقّب بأبى عصيدة الآتى ذكر وفاته فى سنة تسع و سبعمائة. و كان المستنصر هذا ملكا عادلا حسن السيرة و فيه خبرة و نهضة و كفاية و دين و شجاعة و إقدام. رحمه اللّه تعالى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الزاهد القدوة أبو الرجال بن مرى بمنين فى المحرّم. و عزّ الدين أبو بكر

محفوظ بن معتوق التاجر ابن البزوريّ فى صفر. و الإمام عزّ الدين أحمد بن إبراهيم بن الفاروثيّ فى ذى الحجة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۷

و صاحب اليمن الملك المظفّر يوسف بن عمر فى رجب؛ و كانت دولته بضعا و أربعين سنة. و شيخ الحجاز محبّ الدين الطّبريّ. و أبو الفهم أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسينيّ النقيب فى المحرّم. و العلّامة تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام بن المطهّر بن أبى عصرون التميمى مدرّس الشاميّة الصغرى فى ربيع الأوّل. و محيى الدين عبد الرحيم بن عبد المنعم [بن خلف بن عبد المنعم] بن الدّميرى فى المحرّم، و له تسعون سنة. و الزاهد القدوة شرف الدين محمد بن عبد الملك اليونينيّ المعروف بالأرزونى. و الزاهد المقرئ شرف الدين محمود بن محمد التّادفيّ بقاسيون فى رجب. و العلّامة زين الدين [أبو البركات] المنجّا بن عثمان بن أسعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۸

ابن المنجا الحنبليّ فى شعبان، و له خمس و ستون سنة. و قاضى القضاة شرف الدين الحسن بن عبد اللّه ابن الشيخ أبى عمر المقدسيّ الحنبليّ. و ناصر الدين نصر اللّه بن محمد بن عيّاش الحدّاد فى شوّال. و العدل كمال الدين عبد اللّه بن محمد [بن نصر] ابن قوام فى ذى القعدة. و أبو الغنائم بن محاسن الكفرابى. و المقرئ موفّق الدين محمد بن أبى العلاء [محمد بن علىّ] ببعلبكّ فى ذى الحجة. و المقرئ أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الحليم سحنون المالكيّ فى شوّال بالإسكندريّة. و العلّامة الصاحب محيى الدين محمد بن يعقوب [بن إبراهيم بن هبة اللّه بن طارق بن سالم] بن النحّاس الحلبيّ الحنفى فى آخر السنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع و أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا. و كان الوفاء فى سادس أيام النّسيء.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۵]

السنة الثانية من ولاية الملك العادل كتبغا المنصوريّ على مصر، و هى سنة خمس و تسعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۷۹

فيها كان الغلاء العظيم بسائر البلاد، و لا سيّما مصر و الشام؛ و كان بمصر مع الغلاء و باء عظيم أيضا، و قاسى الناس شدائد فى هذه السنة و الماضية.

و فيها ولى قضاء الديار المصريّة الشيخ تقىّ الدين أبو الفتح محمد بن علىّ بن وهب ابن دقيق العيد بعد وفاة قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزّ.

و فيها توفّى الملك السعيد شمس الدين إيلغازى ابن الملك المظفّر [فخر الدين قرا أرسلان] ابن الملك السعيد صاحب ماردين الأرتقيّ، و دفن بتربة جدّه أرتق، و تولّى بعده سلطنة ماردين أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى. و كان مدّة مملكة الملك السعيد هذا على ماردين دون الثلاث سنين. و كان جوادا عادلا حسن السّيرة، رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بيليك بن عبد اللّه المحسنيّ المعروف بأبى شامة بالقاهرة، و كان من أعيان الأمراء و أكابرهم، رحمه اللّه.

و فيها توفى الأسعد بن السّديد القبطيّ الأسلمىّ الكاتب مستوفى الديار المصريّة و البلاد الشامية و الجيوش جميعها المعروف بالماعز الديوانى المشهور، و كان معروفا بالأمانة و الخير، و كان نصرانيّا ثم أسلم فى دولة السلطان الملك الأشرف خليل ابن قلاوون.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى- رحمه اللّه-: حكى لى القاضى شهاب الدين محمود رحمه اللّه قال: لمّا مرض المذكور توجّهنا إليه نعوده فوجدناه ضعيفا إلى الغاية، و قد وضعوا عنده أنواعا من الحلىّ و المصاغ المجوهر و العقود

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٠

و فيها العنبر الفائق و أنواع من الطّيب. ثم إنّه قال: ارفعوا هذا عنّى، و أسرّ إلى خادم كلاما؛ فمضى و أتى بحقّ ففتحه و أقبل يشمّه و قمنا من عنده ثم إنه مات، فسألنا ذلك الخادم فيما بعد: ما كان فى ذلك الحقّ؟ قال: شعرة من است الراهب الفلانىّ الذى كان له كذا كذا سنة ما لمس الماء و لا قربه. قال فأنشدت:

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلّا و فى يده من نتنها عود

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الأفرم الكبير أمير جاندار الملك الظاهر و الملك السعيد و الملك المنصور قلاوون. فلمّا تسلطن الملك الأشرف خليل ابن قلاوون حبسه، و بعد قتل الأشرف خليل أخرجه أخوه الملك الناصر محمد ابن قلاوون و أعاده إلى مكانته؛ ثم استقرّ فى أيام الملك العادل كتبغا على حاله إلى أن مات بالقاهرة فى يوم السبت سابع شهر ربيع الأوّل.

قال القطب اليونينىّ: حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفّدار قال: أوصى الأفرم عند موته أنه إذا توفّى يأخذون خيله يلبسونها أفخر مالها من العدّة، و كذلك جميع مماليكه و غلمانه يلبسونهم عدّة الحرب، و أن تضرب نوبة الطبلخاناه خلف جنازته، كما كان يطلع إلى الغزاة، و ألّا يقلب له سنجق و لا يكسر له رمح، ففعلوا أولاده ما أمر به ما خلا الطبلخاناه، فإنّ نائب السلطنة حسام الدين لاچين منعهم من ذلك، و كانت جنازته حفلة حضرها السلطان و من دونه. و كان ديّنا من وسائط الأخيار و أرباب المعروف. و كان يقال: إنه يدخل عليه من أملاكه و ضماناته و إقطاعاته كلّ يوم ألف دينار خارج عن الغلال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨١

قلت: و هذا مستفاض بين الناس. و قصّة أولاده لمّا احتاجوا مع كثرة هذا المال إلى السؤال مشهورة. يقال إنه كان له ثمن الديار المصرية، و هو صاحب الرّباط و الجسر على بركة الحبش خارج القاهرة.

قال الشيخ صلاح الدين الصّفدىّ: «كنت بالقاهرة و قد وقف أولاده و شكا عليهم أرباب الديون إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقال السلطان:

يا بشتك، هؤلاء أولاد الأفرم الكبير صاحب الأملاك و الأموال، أبصر كيف حالهم! و ما سببه إلا أنّ أباهم و كلهم على أملاكهم فما بقيت، و أنا لأجل ذلك لا أدّخر لأولادى ملكا و لا مالا». انتهى كلام الصّفدى.

قلت: و العجيب أنه كان قليل الظلم كثير الخير، و غالب ما حصله من نوع المتاجر و المزروعات و المستأجرات، و مع هذا احتاج أولاده و ذريته إلى السؤال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٢

و فيها توفّى قاضى القضاة بالديار المصريّة و رئيسها تقىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضى القضاه تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب ابن القاضى الأعز أبى القاسم خلف [بن محمود] بن بدر العلامىّ الشافعى المصرىّ المعروف بابن بنت الأعز. مات يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى و دفن عند والده بالقرافة فى تربتهم و هو فى الكهولية. و كان فقيها بارعا شاعرا خيّرا ديّنا متواضعا كريما، تفقّه على والده و على ابن عبد السلام، و تولّى الوزارة و القضاء و مشيخة الشيوخ، و أضيف اليه تدريس الصلاحيّة و الشريفية بالقاهرة و المشهد الحسينى و خطابة الجامع الأزهر، و امتحن محنة شديدة فى أوّل الدولة الأشرفية و عمل على إتلافه بالكلّية، و ذلك بسعاية الوزير ابن السّلعوس الدّمشقىّ. و قد استوعبنا أمره فى المنهل الصافى، ثم أعيد إلى القضاء بعد وفاة الأشرف، فلم تطل أيامه و مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨٣

و لمّا حج القاضى تقىّ الدين هذا و زار قبر النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنشد عند الحجرة [النبويّة] قصيدته التى مطلعها:

الناس بين مرجّز و مقصّد و مطوّل فى مدحه و مجوّد

و مخبّر عمّن روى و معبّر عمّا رآه من العلا و السّودد

و فيها توفّى الشيخ الإمام الأديب البارع المفتنّ سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن الحسين المصرىّ المعروف بالسّراج الورّاق الشاعر المشهور. مولده فى العشر الأخير من شوّال سنة خمس عشرة و ستمائة، و مات فى جمادى الأولى من هذه السنة و دفن بالقرافة. و كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرّفا فى فنون البلاغة، و هو شاعر مصر فى زمانه بلا مدافعة. و من شعره:

فى خدّه ضلّ علم الناس و اختلفوا أ للشقائق أم للورد نسبته

فذاك بالخال يقضى للشقيق و ذا دليله أنّ ماء الورد ريقته

و له:

كم قطع الجود من لسان قلّد من نظمه النّحورا

فهأنا شاعر سراج فاقطع لسانى أزدك نورا

و له:

لا تحجب الطّيف إنّى عنه محجوب لم يبق منى لفرط السّقم مطلوب

و لا تثق بأنينى إنّ موعده بأن أعيش للقيا الطّيف مكذوب

هذا و خدّك مخضوب يشاكله دمع يفيض على خدىّ مخضوب

و ليس للورد فى التشبيه رتبته و إنّما ذاك من معناه تقريب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨۴

و ما عذارك ريحانا كما زعموا فات الرياحين ذاك الحسن و الطّيب

تأوّد الغصن مهتزّا فأنبأنا أنّ الذى فيك خلق فيه مكسوب

يا قاسى القلب لو أعداه رقّته جسم من الماء بالألحاظ مشروب

أرحت سمعى و فى حبّيك من عذلى إذ أنت حب إلى العذّال محبوب

و كان السّراج أشقر أزرق العين. و فى ذلك يقول عن نفسه:

و من رآنى و الحمار مركبى و زرقتى للروم عرق قد ضرب

قال و قد أبصر وجهى مقبلا لا فارس الخيل و لا وجه العرب

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة دراعا و إصبع. و كان الوفاء فى رابع عشرين توت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٨۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۶]

ذكر سلطنة الملك المنصور لاچين على مصر

هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين بن عبد اللّه المنصورىّ سلطان الديار المصرية، تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصورىّ كما تقدّم ذكره فى يوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست و تسعين و ستمائة. و أصل لا چين هذا مملوك للملك المنصور قلاوون اشتراه و ربّاه و أعتقه و رقّاه إلى أن جعله من جملة مماليكه، فلمّا تسلطن أمّره و جعله نائبا بقلعة دمشق. فلما خرج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون و تسلطن بدمشق و تلقّب بالملك الكامل و ملك قلعة دمشق قبض على لا چين

هذا و حبسه مدّة إلى أن انكسر سنقر الأشقر و ملك الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ دمشق أخرجه من محبسه، و دام لا چين بدمشق إلى أن ورد مرسوم الملك المنصور قلاوون باستقرار لاچين هذا فى نيابة دمشق دفعة واحدة؛ فوليها و دام بها إحدى عشرة سنة إلى أن عزله الملك الأشرف خليل بن قلاوون بالشّجاعىّ. ثم قبض عليه ثم أطلقه بعد أشهر، ثم قبض عليه ثانيا مع جماعة أمراء، و هم: الأمير سنقر الأشقر المقدّم ذكره الذى كان تسلطن بدمشق و تلقّب بالملك الكامل. و الأمير ركن الدين طقصو الناصرىّ حمو لاچين هذا. و الأمير سيف الدين جرمك الناصرىّ. و الأمير بلبان الهارونىّ و غيرهم، فحنقوا الجميع و ما بقى غير لاچين هذا، فقدّموه و وضعوا الوتر فى حلقه و جذب الوتر فانقطع، و كان الملك الأشرف حاضرا؛ فقال لاچين: ياخوند، إيش لى ذنب! ما لى ذنب إلا أنّ صهرى طقصوها هو قد هلك، و أنا أطلّق ابنته، فرقّ له خشداشيته و قبّلوا الأرض و سألوا السلطان فيه، و ضمنوه فأطلقه و خلع عليه و أعطاه إمرة مائة فارس بالديار المصرية و جعله سلاح دار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۶

قلت: (يعنى جعله أمير سلاح) فإنّ أمير سلاح هو الذى يناول السلطان السلاح و غيره. قلت: للّه درّ المتنبى حيث يقول:

لا تخدعنّك من عدوّك دمعة و ارحم شبابك من عدوّ ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

و ذلك أنّ لاچين لمّا خرج من الحبس و صار من جملة الأمراء خاف على نفسه، و اتّفق مع الأمير بيدرا نائب السلطنة و غيره على قتل الأشرف حتى تمّ لهم ذلك حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك الأشرف. ثمّ اختفى لاچين أشهرا إلى أن أصلح أمره الأمير كتبغا و أخرجه و خلع عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدّم و جعله على عادته. كلّ ذلك بسفارة الأمير كتبغا. ثم لمّا تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته بل قسيم مملكته، و استمرّ لاچين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشاميّة و أصلح أمورها و عاد إلى نحو الديار المصريّة، و سار حتى نزل بمنزلة اللّجون، اتّفق لاچين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا و وثبوا عليه بالمنزلة المذكورة، و قتلوا الأميرين: [سيف الدين] بتخاص و بكتوت الأزرق العادليين، و كانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا و أمرائه، و اختبط العسكر و بلع الملك العادل كتبغا ذلك ففاز بنفسه، و ركب فى خمسة من خواصّه و توجّه إلى دمشق.

و قد حكينا ذلك كلّه فى ترجمة كتبغا. فاستولى عند ذلك لاچين على الخزائن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۷

و الدهليز و برك السلطنة، و ساق الجميع أمامه إلى مدينة غزّة. و بايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط اشترطوها الأمراء عليه حسب ما يأتى ذكرها فى محلّه. و سار الجميع إلى نحو الديار المصريّة حتى دخلوها و ملكوا القلعة بغير مدافع، و جلس لاچين هذا على كرسىّ المملكة فى يوم الجمعة المقدّم ذكره. و تم أمره و خلع على الأمراء بعدّة وظائف، و هم: الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ بنيابة السلطنة بالديار المصريّة عوضا عن نفسه. و خلع على الأمير قبجق المنصورىّ بنيابة الشام عوضا عن الأمير أغزلوا العادلى. و على عدّة أمراء أخر. ثم ركب الملك المنصور لاچين بعد ذلك من قلعة الجبل فى يوم الاثنين العشرين من صفر بأبّهة السلطنة و عليه الخلعة الخليفتيّة، و خرج إلى ظاهر القاهرة إلى جهة قبّة النصر، ثم عاد من باب النصر و شقّ القاهرة إلى أن خرج من باب زويلة، و الأمراء و العساكر بين يديه؛ و حمل الأمير بدر الدين بيسرى الجتر على رأسه و طلع إلى القلعة. و خلع أيضا على الأمراء و أرباب الوظائف على العادة. و استمرّ فى السلطنة و حسنت سيرته، و باشر الأمور بنفسه و أحبّه الناس لو لا مملوكه منكوتمر، فإنّه كان صبيا مذموم السيرة. و لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۸

كان يوم الثلاثاء منتصف ذى القعدة من سنة ست و تسعين و ستمائة قبض السلطان الملك المنصور لاچين على الأمير شمس الدين

قرا سنقر المنصوريّ نائب السلطنة و حبسه، و ولّى مملوكه منكوتمر المذكور نيابة السلطنة عوضه، فعظم ذلك على أكابر الأمراء فى الباطن. ثم بعد أيام ركب السلطان الملك المنصور لاچين و لعب الكرة بالميدان فتقنطر به الفرس فوقع من عليه و تهشّم جميع بدنه و انكسرت يده و بعض أضلاعه و وهن عظمه و ضعفت حركته، و بقى يعلّم عنه مملوكه و نائبه سيف الدين منكوتمر و أيس من نفسه. كلّ ذلك و الأمراء راضون بما يفعله منكوتمر لأجل خاطره إلى أن منّ اللّه تعالى عليه بالعافية و ركب، و لمّا ركب زيّنت له القاهرة و مصر و البلاد الشاميّة لعافيته، و فرح الناس بعافيته فرحا شديدا خصوصا الحرافيش.

فإنه لمّا ركب بعد عافيته قال له واحد من الحرافشة: يا قضيب الذهب، باللّه أرنى يدك، فرفع إليه يده و هو ماسك المقرعة و ضرب بها رقبة الحصان الذى تحته. و كان ركوبه فى حادى عشرين صفر من سنة سبع و تسعين و ستمائة. و لمّا كان لعب الكرة و كبا به فرسه و وقع و انكسرت يده قال فيه الأديب شمس الدين محمد [المعروف بابن البيّاعة]:

حويت بطشا و إحسانا و معرفة و ليس يحمل هذا كلّه الفرس

و لمّا تعافى الملك المنصور لاچين قال فيه شمس الدين المذكور نثرا و هو: أسفر ثغر صباحه عن محيّا القمر الزاهر، و بطش الأسد الكاسر، وجود البحر الزاخر؛ فياله يوما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۸۹

نال به الإسلام على شرفه شرفا، و أخذ كلّ مسلم من السرور العامّ طرفا؛ فملئت كلّ النفوس سرورا، و زيدت قلوب المؤمنين و أبصارهم ثباتا و نورا. ثم أنشد أبياتا منها:

فمصر و الشام كلّ الخير عمّهما و كلّ قطر علت فيه التّباشير

فالكون مبتهج و الخلق مبتسم و الخير متّصل و الدّين مجبور

و منها:

و كيف لا و عدوّ الدّين منكسر باللّه و الملك المنصور منصور

و الشرك قد مات رعبا حيث صاح به التو حيد هذا حسام الدين مشهور

ثم بعد ذلك بمدّة قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسرى، و احتاط على جميع موجوده فى سادس شهر ربيع الآخر. ثم جهّز السلطان الملك المنصور العساكر إلى البلاد الشاميّة لغزو سيس و غيرها، و عليهم الأمير علم الدين سنجر الدّوادارى و غيره من الأمراء، و سارت العساكر من الديار المصرية إلى البلاد الشامية، و فتحت تلّ حمدون و تلّ باشر و قلعة مرعش؛ و جاء الأمير علم الدين سنجر الدّوادارى حجر فى رجله عطّله عن الركوب فى أيّام الحصار. و استشهد الأمير علم الدين سنجر المعروف بطقصبا، و جرح جماعة كثيرة من العسكر و الأمراء. ثم إنّ الملك المنصور قبض على الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ المعزول عن نيابة دمشق قبل تاريخه بمدّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۰

سنين و على الأمير سنقر شاه الظاهرى لأمر بلغه عنهما. ثم فى أواخر صفر أخرج السلطان الملك المنصور لاچين الملك الناصر محمد بن قلاون من الديار المصريّة إلى الكرك ليقيم بها، و فى خدمته الأمير جمال الدين آقوش أستاذ دار الملك المنصور، فنزل الملك الناصر محمد بحواشيه من قلعة الجبل، و سافر حتى وصل إلى الكرك.

ثم بدا للسلطان الملك المنصور هذا أن يعمل الرّوك بالديار المصريّة و هو الروك الحسامىّ. فلمّا كان يوم سادس جمادى الأولى من سنة سبع و تسعين و ستمائة ابتدأ عمل الروك و الشروع فيه فى إقطاعات الأمراء و أخباز الحلقة و الأجناد و جميع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۱

عساكر الديار المصريّة، و استمرّوا فى عمله إلى يوم الاثنين ثامن شهر رجب من سنة سبع و تسعين و ستمائة، و فرّقت المثالات على

الأمراء و المقدّمين. و فى اليوم العاشر شرع نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكوتمر فى تفرقة المثالات على الحلقة و البحريّة و مماليك السلطان و غير ذلك، فكان كلّ من وقع له مثال لا سبيل له إلى المراجعة فيه، فمن الجند من سعد و منهم من شقى، و أفرد للخاصّ أعمال الجيزيّة بتمامها و كمالها، و نواحى الصّفقة الإتفيحيّة و ثغر دمياط و الإسكندريّة و نواحى معيّنة من البلاد القبليّة و البحريّة، و عيّن لمنكوتمر من النّواحى ما اختاره لنفسه و أصحابه؛ و كان الحكم فى التعيين لدواوين منكوتمر، و الاختيار لهم فى التفرقة. و كان الذى باشر هذا الرّوك و عمله من الأمراء الأمير بدر الدين بيليك الفارسىّ الحاجب و الأمير بهاء الدين قراقوش الطّواشىّ الظّاهرىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۲

و قال الشيخ صلاح الدين الصفدىّ: و كان مدّة عمل الرّوك ثمانية أشهر إلا أيّاما قلائل. ثم تقنطر السلطان الملك المنصور لاچين عن فرسه فى لعب الكرة.

انتهى كلام الصّفدىّ.

و قال القطب اليونينىّ: حكى بعض كتّاب الجيش بالديار المصريّة فى سنة سبعمائة قال لى: أخدم فى ديوان الجيش بالديار المصريّة أربعين سنة، قال: و الديار المصريّة أربعة و عشرون قيراطا، منها: أربعة قراريط للسلطان و لما يطلقه و للكلف و الرواتب و غير ذلك، و منها عشرة للأمراء و الإطلاقات و الزيادات، و منها عشرة قراريط للحلقة. قال: و ذكروا للسلطان و لمنكوتمر أنّهم يكفون الأمراء و الجند بأحد عشر قيراطا، يستخدم عليها حلقة بمقدار الجيش، فشرعوا فى ذلك و طلبونا و طلبوا الكتّاب الجياد فى هذه الصّناعة، فكفينا الأمراء و الجند بعشرة قراريط، و زدنا الذين تضرّروا قيراطا فبقى تسعة، فاتّفق قتل السلطان و منكوتمر.

و كان فى قلوب الأمراء من ذلك همّ عظيم، فأنعم على كلّ أمير ببلد و بلدين من تلك التسعة قراريط، و بقى الجيش ضعيفا ليس له قوّة. و كانت التسعة قراريط التى بقيت خيرا من الأحد عشر قيراطا المقطعة.

قلت: يعنى أنّ هذا خارج عن الأربعة قراريط التى هى برسم السلطان خاصّة. انتهى.

و قيل فى الرّوك وجه آخر؛ قال: لمّا كان فى ذى الحجّة سنة سبع و تسعين و ستّمائة قصد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين المنصورىّ أن يروك البلاد المصريّة و ينظر فى أمور عساكر مصر، فتقدّم التاج الطويل مستوفى الدولة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۳

بجمع الدواوين لعمل أوراق بعبرة إقطاع الأمراء و الجند و قانون البلاد، و ندب الأمير بهاء الدين قراقوش الظّاهرىّ و الأمير بدر الدين بيليك الفارسىّ الحاجب، فجمع سائر الكتّاب لذلك؛ و أخذوا فى عمله فلم يحكموا العمل، و ذلك أنّهم عمدوا إلى الإقطاعات الثقيلة المتحصّلة من إقطاعات الأمراء و الجند، و أبدلوها بإقطاعات دونها فى العبرة و المتحصّل، و أصلحوا ما كان من الإقطاعات ضعيفا، و أفرد للعسكر بأجمعه أربعة عشر قيراطا، و للسلطان أربعة قراريط، و أرصد لمن عساه يتضرّر من الأمراء و الجند و يشكو قلّة المتحصّل قيراطان، فتمّ بذلك عشرون قيراطا. و قتل الملك المنصور لاچين و لم يستخدم أحدا و أوقف برسم عسكر أخر يستجدّ أربعة قراريط.

و أفرد لخاصّ السلطان الجيزيّة و الإتفيحيّة و منفلوط و هو و الكوم الأحمر و مرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۴

بنى هميم و حرجة سمطا، و اتفو (أدفو) بأعمال قوص و إسكندريّة و دمياط، و أفرد لمنكوتمر مملوكه نائب السلطنة من الجهات ما لم يكن لنائب قبله، و هو عبرة نيّف عن مائة ألف دينار. فلمّا فرغت الأوراق على ما ذكرنا جلس السلطان الملك المنصور لاچين لتفرقة المثالات على الأمراء و المقدّمين فأخذوها و هم غير راضين بذلك، و تبيّن للسلطان من وجوه الأمراء الكراهة، فأراد زيادة العبرة فى الإقطاعات فمنعه نائبه منكوتمر من ذلك و حذّره فتح هذا الباب، فإنّه يخشى أن يعجز السلطان عن سدّه، و تكفّل له منكوتمر بإتمام

العرض فيما قد عمل برسم السلطان. [و]] لمن كان له تعلّق فى هذا العمل من الأمراء و غيرهم أن يرفعوا شكايتهم إلى النائب؛ و تصدّى منكوتمر لتفرقة إقطاعات أجناد الحلقة، فجلس فى شبّاك النيابة بالقلعة و وقف الحجّاب بين يديه، و أعطى لكلّ تقدمة مثالاتها فتناولوها على كره منهم، و خافوا أن يكلّموا منكوتمر لسوء خلقه و سرعة بطشه؛ و تمادى الحال على ذلك عدّة أيام. و كانت أجناد الحلقة قد تناقصت أحوالهم عن أيّام الملك المنصور قلاوون، فإنّهم كانوا على أنّ أقل عبرة الإقطاعات و أضعف متحصّلاتها عشرة آلاف درهم و ما فوق ذلك إلى ثلاثين ألف درهم و هى أعلاها، فرجع الأمر فى هذا الرّوك إلى أن استقرّ أكثر الإقطاعات عشرين ألفا إلى ما دونها؛ فقلّ لذلك رزق الأجناد؛ فإنّه صار من كان متحصّله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۵

عشرين ألفا رجع إلى عشرة آلاف، و من كان عبرة إقطاعه عشرة آلاف بقيت خمسة آلاف، فشقّ ذلك على الجند و لم يرضوه إلّا أنهم خشوا التنكيل من منكوتمر؛ و كانت فيهم بقيّة من أهل القوّة و الشجاعة، فتقدّموا إلى النائب منكوتمر و ألقوا مثالاتهم، و قالوا: إنّا لا نعتد قطّ بمثل هذه الإقطاعات، و نحن إمّا أن نخدم الأمراء و إلّا بطّلنا، فعظم قولهم على النائب و أغضبه، و أمر الحجّاب بضربهم و ساقهم الى السجن؛ فشفع فيهم الأمراء فلم يقبل شفاعتهم، و أقبل منكوتمر على من حضر من الأمراء و المقدّمين و غيرهم فأوسعهم سبّا و ملأهم تقريعا و تعنيفا حتّى وغّر صدورهم و غيّر نيّاتهم فانصرفوا، و قد عوّلوا على عمل الفتنة؛ و بلغ السلطان ذلك فعنّف منكوتمر و لامه و أخرج الأجناد من السجن بعد أيام. و كان عمل هذا الرّوك و تفرقته من أكبر الأسباب و أعظمهما فى فتك الأمراء بالسلطان الملك المنصور لاچين و قتله و قتل نائبه منكوتمر المذكور. على ما سيأتى ذكره.

و كان هذا الرّوك أيضا سببا كبيرا فى إضعاف الجند بديار مصر و إتلافهم، فإنه لم يعمل فيه عمل طائل و لا حصل لأحد منهم زيادة يرضاها، و إنما توفّر من البلاد جزء كبير. فلمّا قتل الملك المنصور لاچين تقسّمها الأمراء زيادة على ما كان بيدهم. انتهى.

ثم إنّ السلطان الملك المنصور لاچين جهّز الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير و الأمير سيف الدين حمدان [بن سلغيه] إلى البلاد الشاميّة، و على أيديهم مراسيم شريفة بخروج العساكر الشامية، و خروج نائب الشام الأمير قبجق المنصوريّ بجميع أمراء دمشق حتى حواشى الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۶

فوصلوا إلى دمشق و ألحوّا فى خروج العسكر و نوّهوا بأنّ التّتار قاصدون البلاد، فخرج نائب الشام بعساكر دمشق فى ليلة الخميس رابع عشر المحرّم من سنة ثمان و تسعين و ستمائة. و وقع لقبجق نائب الشام المذكور فى هذه السّفرة أمور أوجبت عصيانه و خروجه من البلاد الحلبيّة بمن معه من الأمراء و مماليكه إلى غازان ملك التّتار.

و كان الذى توجّه معه من أكابر الأمراء: بكتمر السّلاح دار و ألبكى و بيغار و غيرهم فى جمع كثير، و كان خروجهم فى ليلة الثلاثاء ثامن شهر ربيع الآخر. و سبب خروج قبجق عن الطاعة و توجّهه أنه كان ورد عليه مرسوم السلطان بالقبض على هؤلاء الأمراء المذكورين و غيرهم، ففطن الأمراء بذلك فهرب منهم من هرب و بقى هؤلاء، فجاءوا إلى قبجق و هو نازل على حمص، فطلبوا منه أمانا فأمّنهم و حلف لهم، و بعث قبجق إلى السلطان يطلب منه أمانا لهم فأبطأ عليه الأمان، ثم خشّن عليه بعض أكابر أمراء دمشق فى القول بسببهم فعلم قبجق أنّ ذلك الكلام من قبل السلطان فغضب، و خرج على حميّة و تبعه الأمير عز الدين بن صبرا، و الملك الأوحد [ابن الزاهر] و جماعة من مشايخ الأمراء يسترضونه فلم يرجع؛ و ركب هو و من معه من حواشيه و من الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۷

المذكورين و سار حتى وصل ماردين، و التقى مع مقدم التّتار فخدمهم مقدّم التتار، و أخذهم و توجّه بأطلاب التتار و عساكره إلى أن وصلوا إلى غازان ملك التتار و هو نازل بأرض السّيب من أعمال واسط. فلمّا قدم قبجق و من معه على غازان سرّ بهم و أكرمهم و وعدهم و منّاهم و أعطى لكلّ أمير عشرة آلاف دينار، و لكل مملوك مائة دينار، و للمماليك الصّغار مع الرّكبدارية خمسين دينارا، و

كلّ دينار من هذه الدنانير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۸

صرفه باثنى عشر درهما؛ ثم أقطع الأمير قبجق المذكور مدينة همذان و أعمالها، فلم يقبل قبجق و اعتذر أن ليس له قصد إلّا أن يكون فى صحبة السلطان الملك غازان ليرى وجهه فى كلّ وقت! فأجابه غازان إلى ما سأله و أعجبه ذلك منه.

و كان لمّا خرج قبجق من حمص إلى جهة التتار، و بلغ أمراء دمشق ذلك خرج فى طلبه الأمير كجكن و الأمير أيدغدى شقير بمماليكهم و معهم أيضا جماعة من عسكر الشام، فوجدوه قد قطع الفرات و لحقوا بعض ثقله. و عند وصول قبجق و من معه إلى غازان بلغه قتل السلطان الملك المنصور لاچين بالديار المصرية و كان خبر قتل السلطان أيضا بلغ الأمير كجكن و الأمير أيدغدى لمّا خرجوا فى أثر قبجق فآنحلّت عزائمهم عن اللّحوق بقبجق و رجعوا عنه و إلا كانوا لحقوه و قاتلوه.

و أمّا أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين صاحب الترجمة فإنه لمّا أخذ فى قبض من استوحش منهم من الأمراء و غيرهم، و زاد فى ذلك بإشارة مملوكه منكوتمر، استوحش الناس منه و نفرت قلوبهم و أجمعوا على عمل فتنة.

ثم فوّض لمملوكه منكوتمر جميع أمور المملكة فاستبدّ منكوتمر بوظائف الملك و مهمّاته.

و انتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاچين مرسوما أو كتب لأحد توقيعا و ليس هو بإشارة منكوتمر يأخذه منكوتمر من يد المعطى له و يمزّقه فى الملأ، و يردّه و يمنع أستاذه منه؛ فعند ذلك استثقل الأمراء وطأة منكوتمر و علموا أن أستاذه الملك المنصور لا يسمع فيه كلام متكلّم، فعملوا على قتل أستاذه الملك المنصور لاچين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۹۹

قلت: الولد الخبيث يكون سببا لاستجلاب اللّعنة لوالده! انتهى:

و قال الأمير بيبرس الدّوادار فى تاريخه: و كان سبب قتل لاچين أمور، منها: أنّه لمّا أراد أن يتسلطن جاءه جماعة من الأمراء و اشترطوا عليه شروطا فالتزمها لاچين، منها أنه يكون كأحدهم و لا ينفرد برأى عنهم، و لا يسلّط يد أحد من مماليكه فيهم. و كان الأعيان الحاضرون فى هذه المشورة، و المتفقون على هذه الصورة: الأمير بدر الدين بيسرى الشمسىّ. و الأمير قرا سنقر المنصورىّ. و الأمير سيف الدين قبجق. و الأمير الحاج بهادر أمير حاجب الحجّاب. و الأمير كرت.

و الأمير حسام الدين لاچين السّلاح دار الرومى الأستادار. و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح. و الأمير عز الدين أيبك الخازندار. و الأمير جمال الدين آقوش الموصلى. و الأمير مبارز الدين أمير شكار. و الأمير بكتمر السّلاح دار. و الأمير سيف الدين سلّار. و الأمير طغجى. و الأمير كرجى. و الأمير طقطاى. و الأمير برلطاى و غيرهم. و لمّا حلف لهم الملك المنصور لاچين على ما شرطوا قال الأمير سيف الدين قبجق: نخشى أنّك إذا جلست فى المنصب تنسى هذا التقرير و تقدّم الصغير من مماليكك على الكبير، و تفوّض لمملوك منكوتمر فى التحكم و التدبير، فتنصّل لاچين من ذلك، و كرّر لاچين الحلف أنّه لا يفعل، فعند ذلك حلفوا له. و رحلوا نحو الديار المصريّة (يعنى أنّ ذلك كان بعد هروب الملك العادل كتبغا و عند دخول لاچين إلى غزّة) فوقّع هذه الشروط كلّها بمدينة غزّة. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۰

قال بيبرس: فلمّا تسلطن رتّب الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ نائبا.

و الأمير الحاجّ بهادر حاجبا على عادته. و الأمير سلّار أستادارا. و الأمير بكتمر السّلاح دار أمير آخور. و استقرّ بالصاحب فخر الدين بن الخليلى فى الوزارة؛ و رتّب الأمير قبجق نائب الشام، ثم بعد مدّة أفرج عن الأمير برلغى فأعطاه إقطاعا بدمشق. ثم أفرج عن الأمير بيبرس الجاشنكير و جماعة من الأمراء، و أعطى بيبرس الجاشنكير إمرة بالقاهرة.

قلت: و بيبرس هذا هو الذى تسلطن فيما بعد حسب ما يأتى ذكره.

ثم برز مرسومه باستقرار الملك العادل كتبغا فى نيابة صرخد، و كتب له بها منشورا. انتهى كلام بيبرس باختصار، لأنه خرج فى سياق الكلام إلى غير ما نحن بصدده.

و قال غيره: و لمّا تسلطن لاچين و ثبتت قدمه و رسخت نسى الشروط و قبض على أكابر خشداشيته من أعيان أمراء مصر و أماثلهم، مثل: الأمير قرا سنقر و البيسرى و بكتمر السّلاح دار و غيرهم، و ولّى مملوكه منكوتمر نيابة السلطنة بل صار منكوتمر هو المتصرّف فى الممالك. فعند ذلك نفرت قلوب الأمراء و الجند من الملك المنصور لاچين و دبّروا عليه، و استوحش هو أيضا منهم و احترز على نفسه، و قلّل من الركوب و لزم القعاد بقلعة الجبل متخوّفا؛ و كان كرجى خصيصا به و هو أحد من كان أعانه على السلطنة، فقدّمه لاچين لمّا تسلطن على المماليك السلطانية، فكان يتحدّث فى أشغالهم و يدخل للسلطان من أراد، لا يحجبه عنه حاجب؛ فحسده منكوتمر مع ما هو فيه من الحلّ و العقد فى المملكة؛ و سعى فى إبعاد كرجى عن السلطان الملك المنصور لاچين. فلمّا ورد البريد يخبر بأمر القلاع التى فتحها عسكر السلطان

ببلاد الأرمن حسن منكوتمر إلى السلطان أن يرسل كرجى المذكور إليها نائبا ليقيم فيها، فوافقه السلطان على ذلك، و كلّم كرجى فاستعفى كرجى من ذلك فأعفاه السلطان بعد أمور فكمن كرجى فى نفسه. ثم أخذ مع هذا منكوتمر يغلظ على المماليك السلطانية و على الأمراء الكبار فى الكلام، فعظم ذلك عليهم و تشاكوا فيما بينهم من منكوتمر، و قالوا: هذا متى طالت مدّته أخذنا واحدا بعد واحد، و أستاذه مرتبط به، و لا يمكن الوثوب عليه أيّام أستاذه، فلم يجدوا بدّا من قتل أستاذه الملك المنصور لاچين قبله، ثم يقتلونه بعده، و اتفقوا على ذلك.

قال الشيخ مجد الدين الحرمىّ وكيل بيت المال: كان الملك المنصور لاچين متزوّجا ببنت الملك الظاهر بيبرس، و كانت ديّنة عفيفة، فحكت أنها رأت فى المنام، ليلة الخميس قبل قتل السلطان بليلة واحدة، كأنّ السلطان جالس فى المكان الذى قتل فيه، و كأنّ عدّة غربان سود على أعلى المكان، و قد نزل منهم غراب فضرب عمامة السلطان فرماها عن رأسه، و هو يقول: كرج كرج؛ فلمّا ذكرت ذلك للسلطان، قالت له: أقم الليلة عندنا؛ فقال السلطان: ما ثمّ إلّا ما قدّره اللّه! و خرج من عندها إلى القصر بعد أن ركب فى أوّل النهار على العادة، و كان صائما و هو يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فأفطر بالقصر.

ثم دخل إلى القصر الجوّانى بعد العشاء الآخرة و أخذ فى لعب الشّطرنج و عنده خواصّه و هم: قاضى القضاة حسام الدين الحنفى، و الأمير عبد اللّه، و بريد البدوى، و إمامه محب الدين بن العسال؛ فأوّل من دخل عليه كرجى، و كان نوعيه السّلاح دار من

جملة المتّفقين، و هو فى نوبته عند السلطان. و كان كرجى مقدّم البرجيّة و السلطان مكبّ على لعب الشّطرنج، فأوهم كرجى أنّه يصلح الشمعة فرمى الفوطة على النّيمچاه ثم قال السلطان لكرجى: رحت بيّت البرجيّة و غلّقت عليهم؟ و البرجيّة هم الآن مماليك الأطباق، فقال كرجى: نعم يا خوند. و قد كان أوقف كرجى أكثرهم فى دهليز القصر، فشكره السلطان و أثنى عليه من حضر، فقال السلطان: لو لا الأمير سيف الدين كرجى ما وصلت أنا إلى السلطنة. فقبّل كرجى الأرض، و قال:

يا خوند، ما تصلّى العشاء؟ فقال السلطان: نعم و قام حتّى يصلّى فضربه كرجى بالسيف على كتفه، فطلب السلطان النّيمچاة فلم يجدها، فقام من هول الضربة و مسك كرجى و رماه تحته؛ و أخذ نوغيه السّلاح دار النّيمچاة و ضرب بها رجل السلطان فقطعها، فانقلب السلطان على قفاه يخور فى دمه. انتهى ما ذكره وكيل بيت المال.

و قال القاضى حسام الدين الحنفىّ: كنت عند السلطان فما شعرت إلّا و ستة أو سبعة أسياف نازلة على السلطان، و هو مكبّ على لعب الشّطرنج، فقتلوه ثم تركوه و أنا عنده، و غلّقوا علينا الباب، و كان سيف الدين طغجى قد قصد بقيّة البرجيّة المتّفقين معه و مع كرجى فى الدّركاه، فقال لهم: قضيتم الشغل؟ فقالوا: نعم. ثم إنهم توجّهوا جميعا إلى دار سيف الدين منكوتمر و هو بدار النّيابة من قلعة

الجبل، فدقّوا عليه الباب و قالوا له: السلطان يطلبك، فأنكر حالهم و قال لهم: قتلتم السلطان؟

فقال له كرجى: نعم يا مأبون و قد جئناك نقتلك، فقال: أنا ما أسلم نفسى إليكم إنما أنا فى جيرة الأمير سيف الدين طغجى، فأجاره طغجى و حلف له أنه لا يؤذيه و لا يمكّن أحدا من أذيّته؛ ففتح داره فتسلّموه و راحوا به إلى الجبّ فأنزلوه إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۳

عند الأمراء المحبوسين. فلمّا دخل إلى الجبّ قام إليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر و تلقاه متهكّما عليه، ثم قام إليه الأمير عز الدين أيبك الحموى و شتمه، و أراد قتله، لأنّ منكوتمر هذا كان هو السبب فى مسك هؤلاء الأمراء، و إقلاب الدولة من حرصه على أنّ الأمر يفضى إليه و يتسلطن بعد أستاذه. فأقام منكوتمر نحو ساعة فى الجبّ و راح الأمير طغجى إلى داره حتى يقضى شغلا له، فآغتنم كرجى غيبته و أخذ معه جماعة و توجّه إلى باب الحبس و أطلع منكوتمر صورة أنهم يريدون تقييده كما جرت العادة فى أمر المحتبسين، فامتنع من الطلوع فألحوا عليه و أطلعوه و ذبحوه على باب الجبّ، و نهبوا داره و أمواله. ثم اتّفقوا كما هم فى الليل على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون و عوده إلى ملكه كونه ابن استاذهم، و أن يكون سيف الدين طغجى نائب السلطنة، و مهما عملوه يكون باتّفاق الأمراء، و حلفوا على هذا الأمر.

كلّ ذلك فى تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر و أصبح نهار الجمعة حلّفوا الأمراء و المقدّمين و العسكر جميعه للملك الناصر محمد بن قلاوون و نائب السلطنة طغجى. و سيّروا فى الحال خلف الملك الناصر محمد يطلبونه من الكرك، و ركب الأمير طغجى يوم السبت فى الموكب و التفّ عليه العسكر و طلع إلى قلعة الجبل، و حضر الأمراء الموكب و مدّ السّماط كما جرت العادة به من غير هرج و لا غوغاء و كأنّه لم يجر شىء، و سكنت الفتنة، و فرح غالب الناس بزوال الدولة لأجل منكوتمر. و دام ذلك إلى أن كان يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثمان و تسعين المذكورة، وصل الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح عائدا من الشام من فتوح سيس، و صحبته العساكر المتوجّهة معه، و كان قد راح إليه جماعة من أمراء مصر لتلقيه إلى بلبيس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۴

و أعلموه بصورة الحال، و قالوا له: الذى وقع من قتل الملك المنصور ليس هو عن رضاهم و لا علموا به، و أغروه على قتل طغجى و اتّفقوا معه على ذلك، و كانوا الأمراء المذكورون قد أشاروا قبل خروجهم على طغجى أن يخرج يلتقى الأمير بكتاش أمير سلاح، فركب طغجى بكرة يوم الاثنين و توجّه نحوه حتى التقاه و تعانقا و تكارشا.

ثم قال أمير سلاح لطغجى: كان لنا عادة من السلطان إذا قدمنا من السفر يتلقانا، و ما أعلم ذنبى الآن ما هو، كونه ما يلقانى اليوم! فقال له طغجى: و ما علمت بما جرى على السلطان؟ السلطان قتل. فقال أمير سلاح: و من قتله؟ قال له: بعض الأمراء [و هو الأمير سيف الدين كرت أمير حاجب: قتله] سيف الدين طغجى و كرجى، فأنكر عليه و قال: كلّما قام للمسلمين ملك تقتلونه! تقدّم عنى لا تلتصق بى، و ساق عنه أمير سلاح؛ فتيقّن طغجى أنّه مقتول، فحرّك فرسه و ساق فانقضّ عليه بعض الأمراء و قبض عليه بشعر دبوقته، ثم علاه بالسيف و ساعده على قتله جماعة من الأمراء، فقتل و قتل معه ثلاثة نفر، و مرّوا سائقين إلى تحت القلعة. و كان كرجى قد قعد فى القلعة لأجل حفظها، فبلغه قتل رفيقه طغجى، فألبس البرجيّة السلاح و ركب فى مقدار ألفى فارس حتى يدفع عن نفسه، فركبت جميع أجناد الحلقة و الأمراء و المقدّمين فى خدمة أمير سلاح إلى الرابعة من النهار؛ ثم حملوا العساكر على جماعة كرجى فهزموهم، و ساق كرجى وحده، و اعتقد أنّ أصحابه يتوجّهون حيث توجّه، فلم يتبعه غير تبعه و نوغيه الكرمونىّ أمير سلاح دار الذى كان أعانه على قتل الملك المنصور لاچين. فلمّا أبعدوا و القوم فى أثرهم لحقه بعض خشداشيته و ضربه بالسيف حلّ كتفه، ثم ساعده بعض الأمراء حتى قتل، و قتل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۵

معه نوغيه الكرمونىّ السّلاح دار الذى كان أعانه على قتل لاچين المقدّم ذكره، و اثنا عشر نفرا من مماليكهما و أصحابهما، و بطلت

الغوغاء و سكنت الفتنة فى الحال؛ و استقرّ الأمر أيضا على تولية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كما كان دبّره طغجى و كرجى. و سيّروا بطلبه و حثّوا الطلب فى قدومه من الكرك إلى الديار المصريّة، و بقى يدبّر الأمور و يعلّم على الكتب المسيّرة إلى البلاد ثمان أمراء إلى أن حضر السلطان، و هم: الأمير سيف الدين سلّار، و الأمير سيف الدين كرت، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار، و الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير؛ و الأمير حسام الدين لاچين أستاذ الدار، و الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، و الأمير جمال الدين عبد اللّه [السّلاح دار] و جميعهم منصوريّة قلاوونيّة، و غالبهم قد أخرج من السجن بعد قتل لاچين. يأتى ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية عند عوده إلى السلطنة إن شاء اللّه تعالى.

و أمّا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين فإنّه أخذ بعد قتله و غسّل و كفّن و دفن بتربته بالقرافة الصغرى بالقرب من سفح المقطّم، و دفن مملوكه منكوتمر تحت رجليه. و قتل الملك المنصور لاچين و هو فى عشر الخمسين أو جاوزها بقليل. و قد تقدّم التعريف به فى عدّة تراجم ممّا تقدّم؛ و نذكر هنا أيضا من أحواله ما يتّضح التعريف به ثانيا:

كان لاچين ملكا شجاعا مقداما عارفا عاقلا حشيما وقورا معظّما فى الدّول، طالت أيّامه فى نيابة دمشق أيّام أستاذه فى السعادة، و هو الذى أبطل الثّلج الذى كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۶

ينقل فى البحر من الشام إلى مصر؛ و قال: أنا كنت نائب الشام و أعلم ما يقاسى الناس فى وسقه من المشقّة. و كان- رحمه اللّه- تامّ القامة أشقر فى لحيته طول يسير و خفّة، و وجه رقيق معرّق، و عليه هيبة و وقار، و فى قدّه رشاقة. و كان ذكيّا نبيها شجاعا حذورا.

و لمّا قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون هرب هو و قرا سنقر، فإنهما كانا أعانا الأمير بيدرا على قتله حسب ما ذكرناه فى ترجمة الملك الأشرف المذكور، بل كان لاچين هذا هو الذى تمّم قتله، و لمّا هرب جاء هو و قرا سنقر إلى جامع أحمد بن طولون و طلعا إلى المئذنة و استترا فيها. و قال لاچين: لئن نجّانا اللّه من هذه الشدّة و صرت شيئا عمّرت هذا الجامع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۷

قلت: و كذا فعل رحمه اللّه تعالى، فإنه لمّا تسلطن أمر بتجديد جامع أحمد ابن طولون المذكور و رتب فى شدّ عمارته و عمارة أوقافه الأمير علم الدين أبا موسى سنجر بن عبد اللّه الصالحىّ النّجمىّ الدّوادارى المعروف بالبرنلى، و كان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصريّة، و فوّض السلطان الملك المنصور لاچين أمر الجامع المذكور و أوقافه إليه فعمّره و عمّر وقفه و أوقف عليه عدّة قرى، و قرّر فيه دروس الفقه و الحديث و التفسير و الطّبّ و غير ذلك، و جعل من جملة ذلك وقفا يختص بالدّيكة التى تكون فى سطح الجامع المذكور فى مكان مخصوص بها، و زعم أن الدّيكة تعين الموقّتين و توقظ المؤذّنين فى السّحر، و ضمّن ذلك كتاب الوقف؛ فلمّا قرئ كتاب الوقف على السلطان و ما شرطه أعجبه جميعه. فلما انتهى إلى ذكر الدّيكة أنكر السلطان ذلك، و قال: أبطلوا هذا لئلّا يضحك اناس علينا، و أمضى ما عدا ذلك من الشروط. و الجامع المذكور عامر بالأوقاف المذكورة إلى يومنا هذا، و لولاه لكان دثر و خرب، فإنّ غالب ما كان أوقفه صاحبه أحمد بن طولون خرب و ذهب أثره، فجدّده لاچين هذا و أوقف عليه هذه الأوقاف الجمّة، فعمّر و بقى إلى الآن. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۸

و كان المنصور لاچين فهما كريم الأخلاق متواضعا. يحكى أن القاضى شهاب الدين محمود كان يكتب بين يديه فوقع من الحبر على ثيابه، فأعلمه السلطان بذلك؛ فنظم فى الحال بيتين و هما:

ثياب مملوكك يا سيّدى قد بيّضت حالى بتسويدها

ما وقع الحبر عليها بلى وقّع لى منك بتجديدها

فأمر له المنصور بتفصيلتين و خمسمائة درهم. فقال الشهاب محمود: يا خوند، مماليك الجماعة رفاقى يبقى ذلك فى قلوبهم، فأمر لكلّ منهم بمثل ذلك، و صارت راتبا لهم فى كلّ سنة.

و قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدىّ فى تاريخه: حكى لى الشيخ فتح الدين بن سيّد الناس: لمّا دخل عليه لم يدعه يبوس الأرض، و قال: أهل العلم منزّهون عن هذا و أجلسه عنده، و أظنّه قال: على المقعد، و رتّبه موقّعا فباشر ذلك أيّاما، و استعفى فأعفاه و جعل المعلوم له راتبا فتناوله إلى أن مات. و لمّا تسلطن مدحه القاضى شهاب الدين محمود بقصيدة أوّلها:

أطاعك الدهر فأمر فهو ممتثل و احكم فأنت الذى تزهى بك الدّول

و لمّا تسلطن الملك المنصور لاچين تفاءل الناس و استبشروا بسلطنته، و جاء فى تلك السنة غيث عظيم بعد ما كان تأخّر؛ فقال فى ذلك الشيخ علاء الدين الوداعىّ:

يأيّها العالم بشراكم بدولة المنصور ربّ الفخار

فاللّه قد بارك فيها [لكم] فأمطر الليل و أضحى النهار

و كانت مدّة سلطنة المنصور لاچين على الديار المصرية سنتين و ثلاثة شهور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۰۹

قال الأديب صلاح الدين الصّفدىّ: و كان ديّنا متقشّفا كثير الصوم قليل الأذى، قطع أكثر المكوس، و قال: إن عشت ما تركت مكسا واحدا.

قلت: كان فيه كلّ الخصال الحسنة، لو لا توليته مملوكه منكوتمر الأمور و محبته له، و هو السبب فى هلاكه حسب ما تقدّم. و تسلطن من بعده ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون طلب من الكرك و أعيد إلى السلطنة. انتهت ترجمة الملك المنصور لاچين. رحمه اللّه تعالى.

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور لاچين على مصر، و هى سنة ستّ و تسعين و ستمائة. على أنّ الملك العادل كتبغا حكم منها المحرّم و أياما من صفر.

فيها كان خلع الملك العادل كتبغا المنصورىّ من السلطنة و توليته نيابة صرخد، و سلطنة الملك المنصور لاچين هذا من بعده حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها فى ذى القعدة مسك الملك المنصور لاچين الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورىّ نائب السلطنة بديار مصر و حبسه، و ولّى عوضه مملوكه منكوتمر.

و فيها ولى قضاء دمشق قاضى القضاة إمام الدين القزوينىّ عوضا عن القاضى بدر الدين بن جماعة، و استمرّ ابن جماعة المذكور على خطابة جامع دمشق.

و فيها تولّى سلطنة اليمن الملك المؤيد هزبر الدين داود ابن الملك المظفّر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ بن رسول، بعد موت أخيه الأشرف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۰

و فيها توفّى الشيخ الإمام العلّامة مفتى المسلمين محيى الدين أبو عبد اللّه محمد بن يعقوب ابن إبراهيم بن هبة اللّه بن طارق بن سالم بن النّحاس الحلبى الأسدىّ الحنفىّ فى ليلة سلخ المحرّم ببستانه بالمرّة و دفن بتربته بالمزّة، و حضر جنازته نائب الشام و من دونه، و كان إماما مفتنا فى عاوم، و تولّى عدة تداريس و وظائف دينيّة، و وزر بالشام للملك المنصور قلاوون، و حسنت سيرته ثم عزل و لازم الاشتغال و الإقراء و انتفع به عامّة أهل دمشق. و مات و لم يخلّف بعده مثله.

و فيها توفّى الملك لأشرف ممهّد الدين عمر ابن الملك المظفر يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علىّ بن رسول ملك

اليمن، و تولّى بعده أخوه هزبر الدين داود المقدّم ذكره، و كانت مدّة ملكه دون السنتين.

و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد القادر ابن القاضى عزّ الدين محمد السّنجارىّ الحنفى قاضى قضاة الحنفيّة بحلب فى يوم الخميس ثامن عشرين شعبان، كان إماما فقيها عالما مفتيا ولى القضاء بعدّة بلاد و حمدت سيرته.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أزدمر بن عبد اللّه العلائىّ فى ذى القعدة بدمشق، و كان أميرا كبيرا معظّما الا أنّه شرس الأخلاق قليل الفهم رسم له الملك الظاهر بيبرس أنّه لا يركب بسيف [فبقى أكثر من عشرين سنة لا يركب بسيف]، و هو أخو الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۱

و فيها توفّى شيخ الحرم و فقيه الحجاز رضىّ الدين محمد بن أبى بكر عبد اللّه بن خليل بن إبراهيم القسطلانىّ المكىّ المعروف بابن خليل. مولده سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، و كان فقيها عالما مفتّنا مفتيا، و له عبادة و صلاح و حسن أخلاق. مات بمكّة بعد خروج الحاج بشهر، و دفن بالمعلاة بالقرب من سفيان الثّورىّ. و من شعره رحمه اللّه:

أيّها النازح المقيم بقلبى فى أمان أنّى حللت و رحب

جمع اللّه بيننا عن قريب فهو أقصى منای منك و حسبى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى تاج الدين عبد الخالق بن عبد السلام بن سعيد ببعلبكّ فى المحرّم، و له ثلاث و تسعون سنة.

و قاضى القضاة عزّ الدين عمر بن عبد اللّه بن عمر بن عوض الحنبلىّ بالقاهرة.

و الحافظ الزاهد جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد اللّه الظاهرىّ بمصر. و المحدث ضياء الدين عيسى بن يحيى السّبتىّ بالقاهرة فى رجب. و الزاهد شمس الدين محمد [بن حازم] بن حامد المقدسىّ فى ذى الحجّة. و أبو العباس أحمد بن عبد الكريم فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم كان قليلا جدّا. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا. ثم نقص و لم يوفّ فى تلك السنة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۷]

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور لاچين على مصر، و هى سنة سبع و تسعين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۲

فيها مسك الملك المنصور لاچين الأمير بدر الدين بيسرى الشمسىّ و حبسه و احتاط على موجوده.

و فيها أخذت العساكر المصريّة تلّ حمدون و قلعتها بعد حصار، و مرعش و غيرهما، و دقّت البشائر بمصر أياما بسبب ذلك.

و فيها قدم الملك المسعود نجم الدين خضر ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ من بلاد الأشكرى إلى مصر، فتلقّاه السلطان الملك المنصور لاچين فى الموكب أكرمه. و طلب الملك المسعود الحج فأذن له بذلك. و كان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أرسله إلى هناك. و سكن الملك المسعود بالقاهرة إلى أن مات بها حسب ما يأتى ذكره. و كان خضر هذا من أحسن الناس شكلا، و لما ختنه أبوه قال فيه القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر يهنّئ والده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس:

منأت بالعيد و ما على الهناء أقتصر

بل إنّها بشارة لها الوجود مفتقر

بلوحة قد جمعت ما بين موسى و الخضر

قد هيأت لوردكم ماء الحياة المنهمر

قلت: و أحسن من هذا قول من قال فى مليح حليق:

مرت الموسى على عارضه فكأنّ الماء بالاس غمر

مجمع البحرين أضحى خدّه إذ تلاقى فيه موسى و الخضر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۳

و فيها توفّى الشيخ الصالح الزاهد بقيّة المشايخ بدر الدين حسن ابن الشيخ الكبير القدوة العارف نور الدين أبى الحسن على بن منصور الحريرى فى يوم السبت عاشر شهر ربيع الآخر بزاويته بقرية بسر من أعمال زرع، و كان هو المتعيّن بعد أبيه فى الزاوية و على الطائفة الحريرية المنسوبين الى والده؛ و مات و قد جاوز الثمانين.

و فيها توفّى قاضى القضاة صدر الدين إبراهيم بن أحمد بن عقبة البصراوىّ الفقيه الحنفى المدرّس، أحد أعيان فقهاء الحنفية، ولى قضاء حلب ثم عزل ثم أعيد فمات قبل دخوله حلب، و كان عالما مفتّنا و له اليد الطّولى فى الجبر و المقابلة و الفرائض و غير ذلك.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر الفارسىّ الأبجىّ فى رمضان. و عائشة ابنة المجد عيسى بن [الإمام] الموفّق [عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة] المقدسىّ فى [تاسع عشر] شعبان و لها ست و ثمانون سنة. و قاضى حماة جمال الدين محمد بن سالم [بن نصر اللّه بن سالم] ابن واصل فى شوّال. و شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن [بن عبد المنعم بن نعمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۴

ابن سلطان بن سرور] النابلسىّ الحنبلىّ العابر. و الشيخ كمال الدين عبد الرحمن بن عبد اللطيف البغدادىّ بن المكبر فى ذى الحجة، و له ثمان و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع. و كان الوفاء آخر أيام النسيء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۸]

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، تقدّم ذكر مولده فى ترجمته الأولى من هذا الكتاب. أعيد إلى السلطنة بعد قتل الملك المنصور لاچين، فإنه كان لمّا خلع من الملك بالملك العادل كتبغا المنصورىّ أقام عند والدته بالدّور من قلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المنصور لاچين لمّا تسلطن إلى الكرك، فأقام الملك الناصر بالكرك إلى أن قتل الملك المنصور لاچين حسب ما ذكرناه. أجمع رأى الأمراء على سلطنته ثانيا، و خرج إليه الطلب من الديار المصرية صبيحة يوم الجمعة الحادى عشر من شهر ربيع الاخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و هو ثانى يوم قتل لاچين و سار الطلب إليه؛ فلمّا قتل طغجى و كرجى فى يوم الاثنين رابع عشره استحثوا الأمراء فى طلبه، و تكرّر سفر القصّاد له من الديار المصرية إلى الكرك، حتى إذا حضر إلى الديار المصرية فى ليلة السبت رابع جمادى الأولى من السنة، و بات تلك الليلة بالإسطبل السلطانىّ، و دام به إلى أن طلع إلى القلعة فى بكرة يوم الاثنين سادس جمادى الأولى المذكور.

و حضر الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد و القضاة، و أعيد إلى السلطنة و جلس على تخت الملك. و كان الذى توجّه من

القاهرة بطلبه الأمير الحاجّ آل ملك، و الأمير سنجر الجاولى. فلمّا قدما إلى الكرك كان لملك الناصر بالغور يتصيّد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۶

فتوجّها إليه و دخل آقوش نائب الكرك إلى أمّ السلطان و بشّرها، فخافت أن تكون مكيدة من لاچين فتوقّفت فى المسير، فما زال بها حتى أجابت.

و وصل الأميران إلى الملك الناصر بالغور و قبّلا الأرض بين يديه و أعلماه بالخبر، فرحّب بهما و عاد إلى البلد و تهيّأ، و أخذ فى تجهيز أمره، و البريد يترادف باستحثاثه إلى أن قدم القاهرة، فخرج الأمراء و جميع الناس قاطبة للقائه، و كادت القاهرة و مصر ألّا يتأخر بهما أحد فرحا بقدومه. و كان خروجهم فى يوم السبت، و أظهر الناس لعوده إلى الملك من السرور ما لا يوصف و لا يحدّ، و زيّنت القاهرة و مصر بأفخر زينة، و أبطل الناس معايشهم و ضجّوا له بالدعاء و الشكر للّه على عوده إلى الملك، و أسمعوا حواشى الملك العادل كتبغا و الملك المنصور لاچين من المكروه و الاستهزاء ما لا مزيد عليه، و استمروا فى الفرح و السرور إلى يوم الاثنين، و هو يوم جلوسه على تخت الملك. و جلس على تخت الملك فى هذه المرّة الثانية و عمره يومئذ نحو أربع عشرة سنة. ثم جدّد للملك الناصر العهد، و خلع على الأمير سيف الدين سلار بنيابة السلطنة، و على الأمير حسام الدين لاچين بالأستادارية على عادته، و استمرّ الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة دمشق على عادته، و خلع عليه و سفر بعد أيام.

و فى معنى سلطنة الملك الناصر محمد يقول الشيخ علاء الدين الوداعىّ الدّمشقىّ.

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس

عاد إلى كرسيّه مثلما عاد سليمان إلى الكرسى

و فى تاسع جمادى الأولى فرّقت الخلع على جميع من له عادة بالخلع من أعيان الدولة. و فى ثانى عشرة لبس الناس الخلع و ركب السلطان الملك الناصر بالخلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۷

الخليفتيّة و أبّهة السلطنة و شعار الملك، و نزل من قلعة الجبل إلى سوق الخيل ثم عاد إلى القلعة؛ و ترجّل فى خدمته جميع الأمراء و الأكابر و قبّلوا الأرض بين يديه.

و استقرّت سلطنته و تمّ أمره، و كتبت البشا و بذلك إلى الأقطار، و سرّ الناس بعوده إلى الملك سرورا زائدا بسائر الممالك.

و بعد أيام ورد الخبر عن غازان ملك التتار أنه قد عزم على قصد البلاد الشامية لمّا قدم عليه الأمير قبجق المنصورىّ نائب الشام و رفقته. ثم رأى غازان أن يجهّز سلامش بن أباجو فى خمسة و عشرين ألفا من الفرسان إلى بلاد الروم، على أنه يأخذ بلاد الروم، و يتوجّه بعد ذلك بسائر عساكره إلى الشام من جهة بلاد سيس و يجىء غازان من ديار بكر، و ينزلون على الفرات و يغيرون على البيرة و الرّحبة و قلعة الروم، و يكون اجتماعهم على مدينة حلب، فإن التقاهم أحد من العساكر المصرية و الشامية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۸

التقوه و إلّا دخلوا بلاد الشام؛ فاتّفق أنّ سلامش لما توجّه من عند قازان و دخل إلى الرّوم أطمعته نفسه بالملك؛ و ملك الروم و خلع طاعة غازان؛ و استخدم الجند، و أنفق عليهم و خلع على أكابر الأمراء ببلاد الروم، و كانوا أولاد قرمان قد أطاعوه، و نزلوا إلى خدمته، و هم فوق عشرة آلاف فارس. و هذا الخبر أرسله سلامش المذكور إلى مصر، و أرسل فى ضمن ذلك يطلب من المصريين النّجدة و المساعدة على غازان.

قلت: غازان و قازان كلاهما اسم لملك التتار. انتهى. و كان وصول رسول سلامش بهذا الخبر إلى مصر فى شعبان من السنة.

و أما قازان فإنه وصل إلى بغداد، و كانوا متولّين بغداد من قبله شكوا إليه من أهل السّيب و العربان أنّهم ينهبون التّجار القادمين من البحر، و أنّهم قد قطعوا السابلة فسار قازان بنفسه إليهم و نهبهم، و أقام بأرض دقوقا مشتيا. و لمّا بلغه خبر سلامش انثنى عزمه عن قصد

الشام و شرع فى تجهيز العساكر مع ثلاثة مقدّمين، و معهم خمسة و ثلاثون ألف فارس: منها خمسة عشر مع الأمير سوتاى و عشرة مع هندوجاغان و عشرة مع بولاى و هو المشار إليه من المقدّمين مع العساكر و سفّرهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۱۹

إلى الروم لقتال سلامش. ثم رحل قازان إلى جهة تبريز و معه الأمير قبجق المنصوريّ نائب الشام و بكتمر السلاح دار و الألبكى، و هؤلاء هم الّذين خرجوا من دمشق مغاضبين للملك المنصور لاچين، و سار التتار الذين أرسلهم غازان حتى وصلوا إلى الروم فى أواخر شهر رجب و التقوا مع سلامش، و كان سلامش قد عصى عليه أهل سيواس و هو يحاصرهم، فتركهم سلامش و تجهز، و جهز عساكره لملتقى التتار؛ و كان قد جمع فوق ستين ألف فارس. فلمّا قارب التتار فرّ من عسكر سلامش التتار و الروم و لحقوا بولاى مقدّم عساكر غازان.

و أمّا التّركمان فإنهم تركوه و صعدوا إلى الجبال على عادتهم و بقى سلامش فى جمع قليل دون خمسمائة فارس، فتوجه بهم من سيواس إلى جهة سيس، و سار منها فوصل إلى بهسنا فى أواخر شهر رجب. و كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد برز مرسومه إلى نائب الشام بأن يجرّد خمسة أمراء من حمص و خمسة من حماة و خمسة من حلب لتكملة خمسة عشر أميرا و يبعثهم نجدة إلى سلامش.

فلمّا وصل الخبر بقدوم سلامش إلى بهسنا منهزما توقّف العسكر عن المسير، ثم وصل سلامش إلى دمشق. و سلامش هذا هو من أولاد عمّ غازان، و هو سلامش بن أباجو بن هولاكو. و كان وصوله إلى دمشق فى يوم الخميس ثانى عشر شعبان، فتلقّاه نائب الشام و احتفل لملاقاته احتفالا عظيما و أكرمه، و قدّم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۰

فى خدمته نائب بهسنا الأمير بدر الدين بكتاش الزّردكاش، ثم سار سلامش من دمشق إلى جهة الديار المصرية إلى أن وصلها، فأكرمه السلطان غاية الإكرام، و أقام بمصر أياما قليلة ثم عاد إلى حلب، بعد أن اتفق معه أكابر دولة الملك الناصر محمد على أمر يفعلونه إذا قدم غازان إلى البلاد الشامية، ثم بعد خروجه جهز السلطان خلفه أربعة آلاف فارس من العسكر المصرى نجدة له لقتال التتار، و أيضا كالمقدّمة السلطان، و على كلّ ألف فارس أمير مائة و مقدّم ألف فارس، و هم: الأمير جمال الدين آقوش قتّال السّبع. و المبارز أمير شكار. و الأمير جمال الدين عبد اللّه.

و الأمير سيف الدين [بلبان] الحبشىّ، و هو المقدّم على الجميع؛ و ساروا الجميع إلى بلاد حلب، و تهيّأ السلطان للسفر، و تجهّزت أمراؤه و عساكره. و خرج من الديار المصرية بأمرائه و عساكره فى يوم الخميس سادس عشرين ذى الحجّة الموافق لسادس عشرين توت أحد شهور القبط.

هذا و العساكر الشامية فى التهيّؤ لقتال التتار، و قد دخلهم من الرعب و الخوف أمر لا مزيد عليه، و سار السلطان بعساكره إلى البلاد الشامية بعد أن تقدّمه أيضا جماعة من أكابر أمراء الديار المصرية غير أولئك، كالجاليش على العادة، و هم:

الأمير قطلوبك و الأمير سيف الدين نكيه و هو من كبار الأمراء، كان حما الملكين الصالح و الأشرف أولاد قلاوون، و جماعة أمراء أخر، و دخلوا هؤلاء الأمراء قبل السلطان إلى الشام بأيام، فاطمأنّ خواطر أهل دمشق بهم، و سافر السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۱

بالعساكر على مهل، و أقام بغزّة و عسقلان أياما كثيرة؛ ثم دخل إلى دمشق يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و ستمائة، و احتفل أهل دمشق لدخوله احتفالا عظيما، و دخل السلطان بتجمّل عظيم زائد عن الوصف حتى لعلّه زاد على الملوك الذين كانوا قبله، و نزل بقلعة دمشق بعد أن أقام بغزّة و غيرها نحو الشهرين فى الطريق إلى أن ترادفت عليه الأخبار بقرب التتار إلى البلاد الشامية، قدم دمشق و تعين حضوره إليها ليجتمع بعساكره السابقة له، و أقام السلطان بدمشق و جهّز عساكرها إلى جهة البلاد الحلبيّة

أمامه، ثم خرج هو بأمرائه و عساکره بعدهم فی یوم الأحد السابع عشر من شهر ربیع الأوّل من سنة تسع و تسعین المذکورة فی وسط النهار، و سار من دمشق إلی حمص، و ابتهل الناس له بالدعاء، و عظم خوف الناس و صیاحهم و بکاؤهم علی الإسلام و أهله. و وصل السلطان إلی حمص و أقام لابس السلاح ثلاثة أیام بلیالیها إلی أن حصل الملل و الضّجر، و غلت الأسعار بالعسکر و قلّت العلوفات. و بلغ السلطان أنّ التتار قد نزلوا بالقرب من سلمیة و أنّهم یریدون الرجوع إلی بلادهم لما بلغهم من کثرة الجیوش و اجتماعهم علی قتالهم. و کان هذا الخبر مکیدة من التتار، فرکب السلطان بعساکره من حمص بکرة یوم الأربعاء وقت الصبح السابع و العشرین من شهر ربیع الأول، و ساقوا الخیل إلی أن وصلوا إلیهم، و هم بالقرب من سلمیة بمکان یسمی وادی الخازندار؛ فرکب التتار للقائهم و کانوا تهیّئوا لذلک، و کان الملتقی فی ذلک المکان فی الساعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص۱۲۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۲

الخامسة من نهار الأربعاء المذکور و تصادما، و قد کلّت خیول السلطان و عساکره من السّوق، و التحم القتال بین الفریقین، و حملت میسرة المسلمین علیهم فکسرتهم أقبح کسرة، و قتلوا منهم جماعة کثیرة نحو خمسة آلاف أو أکثر؛ و لم یقتل من المسلمین إلّا الیسیر. ثم حملت القلب أیضا حملة هائلة و صدمت العدوّ أعظم صدمة، و ثبت کل من الفریقین ثباتا عظیما، ثم حصل تخاذل فی عسکر الإسلام بعضهم فی بعض.

بلاء من اللّه تعالی. فانهزمت میمنة السلطان بعد أن کان لاح لهم النصر! فلا قوّة إلا بالله. و لمّا انهزمت المیمنة انهزم أیضا من کان وراء السناجق السلطانیّة من غیر قتال، و ألقی اللّه تعالی الهزیمة علیهم فانهزم جمیع عساکر الإسلام بعد النصر، و ساق السلطان فی طائفة یسیرة من أمرائه و مدبّری مملکته إلی نحو بعلبکّ و ترکوا جمیع الأثقال، ملقاة، فبقیت العدد و السلاح و الغنائم و الأثقال ملات تلک الأراضی حتی بقیت الرماح فی الطرق کأنها القصب لا ینظر الیها أحد، و رمی الجند خوذهم عن رءوسهم و جواشنهم و سلاحهم تخفیفا عن الخیل لتنجیهم بأنفسهم، و قصدوا الجمیع دمشق. و کان أکثر من وصل إلی دمشق من المنهزمین من طریق بعلبک.

و لمّا بلغ أهل دمشق و غیرها کسرة السلطان عظم الضجیج و البکاء، و خرجت المخدّرات حاسرات لا یعرفن أین یذهبن و الأطفال بأیدیهنّ، و صار کلّ واحد فی شغل عن صاحبه إلی أن ورد علیهم الخبر أنّ ملک التتار قازان مسلم و أن غالب جیشه علی ملّة الإسلام، و أنّهم لم یتبعوا المنهزمین، و بعد انفصال الوقعة لم یقتلوا أحدا ممّن وجدوه؛ و إنما یأخذون سلاحه و مرکوبه و یطلقونه، فسکن بذلک روع أهل دمشق قلیلا،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۳

ثم صار من وصل إلی دمشق أخذ أهله و حواصله بحیث الإمکان و توجّه إلی جهة مصر، و بقی من بقی بدمشق فی خمدة و حیرة لا یدرون ما عاقبة أمرهم؛ فطائفة تغلّب علیهم الخوف و طائفة یترجون حقن الدماء و طائفة یترجّون أکثر من ذلک من عدل و حسن سیرة، و اجتمعوا فی یوم الأحد بمشهد علیّ، و اشتوروا فی أمر الخروج إلی ملک التتار غازان و أخذهم أمانا لأهل البلد فحضر من الفقهاء قاضی القضاة بدر الدین [محمد بن إبراهیم] بن جماعة، و هو یومئذ خطیب جامع أهل دمشق. و الشیخ زین الدین الفارقیّ. و الشیخ تقیّ الدین بن تیمیّة و قاضی قضاة دمشق نجم الدین [ابن] صصرّی. و الصاحب فخر الدین بن الشیرجی. و القاضی عزّ الدین بن الزکیّ.

و الشیخ وجیه الدین بن المنجّا. و الشیخ [الصدر الرئیس] عز الدین [عمر] بن القلانسیّ. و ابن عمّه بشرف الدین. و أمین الدین بن شقیر الحرّانیّ. و الشریف زین الدین بن عدنان و الصاحب شهاب الدین الحنفیّ. و القاضی شمس الدین بن الحریریّ. و الشیخ محمد بن قوام النابلسیّ. و جلال الدین أخو القاضی إمام الدین القزوینیّ. و قد خرج أخوه إمام الدین قبل ذلک مع جماعة جافلا إلی مصر. و جلال الدین ابن القاضی حسام الدین الحنفیّ. و جماعة کثیرة من العدول و الفقهاء و القراء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۴

و أمّا السلطان الملك الناصر و عساكره فإنه سار هو بخواصّه بعد الوقعة إلى جهة الكسوة. و أمّا العساكر المصرية و الشامية فلا يمكن أن يعبّر عن حالهم، فإنه كان أكبر الأمراء يرى و هو وحده و قد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته و هو مسرع فى السّير خائف متوجّه إلى جهة الكسوة لا يلوى على أحد، قد دخل قلوبهم الرّعب و الخوف، تشتمهم العامة و توبّخهم بسبب الهزيمة من التتار، و كونهم كانوا قبل ذلك يحكمون فى الناس و يتعاظمون عليهم، و قد صار أحدهم الآن أضعف من الهزيل، و أمعنوا العامّة فى ذلك و هم لا يلتفتون إلى قولهم، و لا ينتقمون من أحد منهم.

قلت: و كذا وقع فى زماننا هذا فى وقعة تيمور لنك و أعظم، فإنّ هؤلاء قاتلوا و كسروا ميمنة التّتار، إلّا أصحابنا فإنّهم سلّموا البلاد و العباد من غير قتال! حسب ما يأتى ذكره فى محلّه من ترجمة السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق. انتهى.

قال: و عجز أكثر الأمراء و الجند عن التوجّه إلى جهة مصر خلف السلطان بسبب ضعف فرسه، فصار الجندىّ يغير زيّه حتى يقيم بدمشق خيفة من توبيخ العامّة له، حتى بعضهم حلق شعره و صار بغير دبوقة.

قال الشيخ قطب الدين اليونينىّ: مع أنّ اللّه تعالى لطف بهم لطفا عظيما إذ لم يسق عدوّهم خلفهم و لا تبعهم إلا حول المعركة و ما قاربها، و كان ذلك لطفا من اللّه تعالى بهم، و بقى الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الاخر، فوصل أربعة من التتار و معهم الشريف القمّىّ و تكلّموا مع أهل دمشق، فلم ينبرم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۵

أمر. ثم قدم من الغد آخر و معه فرمان (يعنى مرسوما من غازان بالأمان) و قرئ بالمدرسة البادرائية، ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق و عرّفهم أنه يحب العدل و الإحسان للرّعية و إنصاف المظلوم من الظالم، و أشياء من هذا النمط، فحصل للناس بذلك سكون و طمأنينة. ثم دخل الأمير قبجق المنصورىّ الذى كان نائب دمشق قبل تاريخه، و هرب من الملك المنصور لاچين إلى غازان، و معه رفقته الأمير بكتمر السّلاح دار و غيره إلى دمشق، و كلّموا الأمير أرجواش المنصورىّ خشداشهم نائب قلعة دمشق فى تسليمها إلى غازان؛ و قالوا له: دم المسلمين فى عنقك إن لم تسلّمها؛ فأجابهم: دم المسلمين فى أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق و توجّهتم إلى غازان و حسّنتم له المجىء إلى دمشق و غيرها، ثم وبّخهم و لم يسلّم قلعة دمشق، و تهيّأ للقتال و الحصار؛ و استمرّ على حفظ القلعة. ثم ترادفت قصّاد غازان إلى أرجواش هذا، و طال الكلام بينهم فى تسليم القلعة؛ فثبّته اللّه تعالى و منع ذلك بالكلّية. و ملك قازان دمشق و خطب له بها فى يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر. و صورة الدعاء لغازان أن قال الخطيب: «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام و المسلمين مظفّر الدنيا و الدين محمود غازان». و صلّى الأمير قبجق المنصورىّ و جماعة من المغل بالمقصورة من جامع دمشق، ثم أخذ التّتار فى نهب قرى دمشق و الفساد بها، ثم بجبل الصالحية و غيرها،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۶

و فعلوا تلك الأفعال القبيحة، ثم قرّروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرّة، و حصل على أهل دمشق الذّلّ و الهوان و طال ذلك عليهم، و كان متولّى الطلب من أهل دمشق الصفىّ السّنجارىّ، و علاء الدين أستادار قبجق، و ابنا الشيخ الحريرىّ الحنّ و البن؛ و عمل الشيخ كمال الدين الزّملكانىّ فى ذلك قوله:

لهفى على جلّق يا شرّ ما لقيت من كلّ علج له فى كفره فنّ

بالطّمّ و الرّمّ جاءوا لا عديد لهم فالجنّ بعضهم و الحنّ و البنّ

و للشيخ عز الدين عبد الغنى الجوزىّ فى المعنى:

بلينا يقوم كالكلاب أخسّة علينا بغارات المخاوف قد شنّوا

هم الجنّ حقّا ليس فى ذاك ريبة و مع ذا فقد والاهم الحنّ و البنّ

و لابن قاضى شهبة:

رمتنا صروف الدهر حقّا بسبعة فما أحد منا من السبع سالم

غلاء و غازان و غزو و غارة و غدر و إغبان و غمّ ملازم

و فى المعنى يقول أيضا الشيخ علاء الدين الوداعىّ و أجاد:

أتى الشام مع غازان شيخ مسلّك على يده تاب الورى و تزهّدوا

فخلّوا عن الأموال و الأهل جملة فما منهم إلا فقير مجرّد

و دامت هذه الشدّة على أهل دمشق و الحصار عمّال فى كلّ يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۷

قلت: على أنّ أرجواش كان عنده سلامة باطن إلى الغاية. يأتى ذكر بعض أحواله فى الوفيات من سنين الملك الناصر محمد بن قلاوون. انتهى.

قال: و تمّ جبى المال، و أخذه غازان و سافر من دمشق فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى بعد أن ولّى الأمير قبجق المنصورىّ نيابة الشام على عادته أوّلا، و قرّر بدمشق جماعة أخر يطول الشرح فى ذكرهم. و أقام الأمير قطلو شاه مقدّم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقى من الأموال و لحصار قلعة دمشق، و دام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقيّة التتار فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى، و خرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه، و انقطع أمر المغل من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد و ذهبت أموالهم.

قال ابن المنجّا: إنّ الذى حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف و ستمائة ألف سوى ما محق عليهم من التّراسيم و البراطيل، و الاستخراج لغيره من الأمراء و الوزراء و غير ذلك، بحيث إن الصّيفىّ السّنجارىّ استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم، و للأمير إسماعيل مائتى ألف درهم، و للوزير نحو أربعمائة ألف و قس على هذا. و استمرّ بدمشق و رسم أن ينادى فى دمشق: بأنّ أهل القرى و الحواضر يخرجون إلى أماكنهم، رسم بذلك سلطان الشام حاجّ الحرمين سيف الدين قبجق، و صار قبجق يركب بالعصابة، و الشاويشية بين يديه، و اجتمع الناس عليه. كلّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۸

ذلك و القتال و المباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق و بين قبجق المذكور و نوّاب قازان، و الرسل تمشى بينهم فى الصلح، و أرجواش يأبى تسليم القلعة له، فللّه درّ هذا الرجل! ما كان أثبت جنانه مع تغفّل كان فيه حسب ما يأتى ذكره.

هذا و قبجق غير مستبدّ بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنوّاب قازان مثل بولاى و غيره. ثم سافر بولاى من دمشق بمن كان بقى معه من التتار فى عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب، و معه قبجق و قد أشيع أن قبجق يريد الانفصال عن التتار. و بعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد.

و فى يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، و للخليفة الحاكم بأمر اللّه على العادة، ففرح الناس بذلك. و كان أسقط اسم الملك الناصر محمد بن الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر، فالمدة مائة يوم. ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة فى البلد فزيّنت.

و أما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ثانى عشر شهر ربيع الآخر و تبعته العساكر المصرية و الشامية متفرّقين، و أكثرهم عراة مشاة ضعفاء، و ذاك الذى أوجب تأخّرهم عن الدخول مع السلطان إلى مصر، و أقاموا بعد ذلك أشهرا حتى استقام أمرهم، و لو لا حصول البركة بالديار المصرية و عظمها ما وسعت مثل هذه الخلائق و الجيوش التى دخلوها

فى جفلة التتار و بعدها، فمنّ اللّه تعالى بالخيل و العدد و الرزق، إلا أنّ جميع الأسعار غلت لا سيّما السّلاح و آلات الجنديّة من القماش و البرك و حوائج الخيل و غير ذلك حتى زادت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۲۹

عن الحدّ. و ممّا زاد سعر العمائم، فإنّ الجند كان على رءوسهم فى المصافّ الخوذ، فلمّا انكسروا رموا الخوذ تخفيفا و وضعوا على رءوسهم المناديل، فاحتاجوا لمّا حضروا إلى مصر إلى شراء العمائم، مع أن الملك الناصر أنفق فى الجيش بعد عوده، و استخدم جمعا كثيرا من الجند خوفا من قدوم غازان إلى الديار المصرية، و تهيّأ السلطان إلى لقاء غازان ثانيا. و جهّز العساكر و قام بكلفهم أتمّ قيام على صغر سنّه.

فلمّا ورد عليه الخبر بعدم مجيء قازان إلى الديار المصرية تجهّز و خرج بعساكره و أمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية إلى ملتقى غازان ثانيا، بعد أن خلع على الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة الشام على عادته، و على الأمير قرا سنقر المنصوريّ بنيابة حماة و حلب؛ و كان خروج السلطان من مصر بعساكره فى تاسع شهر رجب من سنة تسع و تسعين و ستمائة، و سار حتى نزل بمنزلة الصالحية بلغه عود قازان بعساكره إلى بلاده، فكلّم الأمراء السلطان فى عدم سفره و رجوعه إلى مصر فأبى عن رجوع العسكر، و سمع لهم فى عدم سفره، و أقام بمنزلة الصالحية.

و سافر الأمير سلّار المنصوريّ نائب السلطنة بالديار المصرية، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام. و لما سار سلار و بيبرس الجاشنكير إلى جهة الشام تلاقوا فى الطريق مع الأمير سيف الدين قبجق و الأمير يكتمر السلاح دار و الألبكى و هم قاصدون السلطان، فعتب الأمراء قبجق و رفقته عتبا هيّنا على عبور قازان إلى البلاد الشامية، فاعتذروا أن ذلك كان خوفا من الملك المنصور لاچين و حنقا من مملوكه مكوتمر، و أنّهم لمّا بلغهم قتل الملك المنصور لاچين كانوا قد تكلّموا مع قازان فى دخول الشام، و لا بقى يمكنهم الرجوع عمّا قالوه، و لا سبيل إلى الهروب من عنده، فقبلوا عذرهم و بعثوهم إلى الملك الناصر، فقدموا عليه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۰

بالصالحية و قبّلوا الأرض بين يديه، فعتبهم أيضا على ما وقع منهم، فذكروا له العذر السابق ذكره، فقبله منهم و خلع عليهم؛ و عاد السلطان إلى القاهرة و صحبته خواصّه و الأمير قبجق و رفقته، فطلع القلعة فى يوم الخميس رابع عشر شعبان. و دخل الأمراء إلى دمشق و معهم الأمير آقوش الأفرم الصغير نائب الشام و غالب أمراء دمشق، و فى العسكر أيضا الأمير قرا سنقر المنصوريّ متولّى نيابة حماة و حلب، و دخل الجميع دمشق بتجمّل زائد، و دخلوها على دفعات كلّ أمير بطلبه على حدة، و سرّ الناس بهم غاية السرور، و علموا أن فى عسكر الإسلام القوّة و المنعة و للّه الحمد.

و كان آخر من دخل إلى الشام الأمير سلّار نائب السلطنة، و غالب الأمراء فى خدمته، حتى الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوريّ نائب صرخد، و نزل جميع الجيش بالمرج و خلع على الأمير أرجواش المنصوريّ نائب قلعة دمشق باستمراره على عادته، و شكروا له الأمراء ما فعله من حفظ القلعة، و دخلوا الأمراء إلى دمشق و قلعة دمشق مغلقة و عليها الستائر و الطّوارف، فكلّموه الأمراء فى ترك ذلك.

فلما كان يوم السبت مستهلّ شهر رمضان أزال أرجواش الطوارف و الستائر من على القلعة؛ فأقام العسكر بدمشق أياما حتى أصلحوا أمرها، ثم عاد الأمير سلّار إلى نحو الديار المصرية بجميع أمراء مصر و عساكره فى يوم السبت ثامن شهر رمضان، و تفرّق باقى الجيش كلّ واحد إلى محلّ ولايته؛ و دخل سلّار إلى مصر بمن معه فى ثالث شوّال بعد أن احتفل الناس لملاقاتهم، و خرج أمراء مصر إلى بلبيس، و خلع السلطان على جميع من قدم من الأمراء رفقة سلّار، و كانت خلعة سلّار أعظم من الجميع. و دام السلطان بقيّة سنته بالديار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۱

فلمّا استهلّت سنة سبعمائة كثرت الأراجيف بالشام و مصر بحركة قازان و كان قازان قد تسمى محمودا، و صار يقال له السلطان محمود غازان. ثم وصلت فى أول المحرّم من سنة سبعمائة الأخبار و القصّاد من الشرق و أخبروا أنّ قازان قد جمع جموعا كثيرة و قد نادى فى جميع بلاده الغزاة إلى مصر، و أنه قاصد الشام؛ فجفل أهل الشام من دمشق و تفرّقوا فى السواحل و قصدوا الحصون و تشتّت غالب أهل الشام إلى البلاد من الفرات إلى غزّة؛ فعند ذلك تجهز الملك الناصر و جهّز عساكره و تهيّأ و خرج بجميع عساكره و أمرائه من القاهرة إلى مسجد التّبن فى يوم السبت ثالث عشر صفر، و سافر حتى قارب دمشق أقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر، و توجّه هو و عساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية، بعد أن لاقوا شدّة و مشقّة عظيمة من كثرة الأمطار و الثلوج و الأوحال و عدم المأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد و المطر و عدم جلب المأكول لهم و لدوابّهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دمشق؛ و كان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعة الجبل يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى. و قبل عود السلطان إلى مصر كان جهّز السلطان الأمير بكتمر السلاح دار و الأمير بهاء الدين يعقوبا إلى دمشق أمامه، فدخلوا دمشق. ثم أشيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة، فجفل غالب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۲

أهل دمشق منها، و نائب الشام لم يمنعهم بل يحسّن لهم ذلك. و قيل: إنّ والى دمشق بقى يجفّل الناس بنفسه، و صار يمرّ بالأسواق، و يقول: فى أىّ شىء أنتم قعود! و لما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادت المناداة بدمشق من قعد فدمه فى رقبته، و من لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة، فسافر فى ذلك اليوم معظم الناس.

و أمّا قازان فإنه وصل إلى حلب و وصل عساكره إلى قرون حماة و إلى بلاد سرمين، و سيّر معظم جيشه إلى بلاد أنطاكية و غيرها، فنهبوا من الدوابّ و الأغنام و الأبقار ما جاوز حدّ الكثرة، و سبوا عالما كثيرا من الرجال و النساء و الصبيان.

ثم أرسل اللّه تعالى على غازان و عساكره الأمطار و الثلوج بحيث إنه أمطر عليهم واحدا و أربعين يوما، وقت مطر و وقت ثلج، فهلك منهم عالم كثير؛ و رجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين، و قد تلفت خيولهم و هلك أكثرها، و عجّزهم اللّه تعالى و خذلهم، و ردّهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ. و وصل الخبر برجوعهم فى جمادى الآخرة، و قد خلت دمشق و جميع بلاد الشام من سكانها.

ثم فى شهر رجب من السنة وصل إلى القاهرة وزير ملك الغرب بسبب الحج، و اجتمع بالسلطان و بالأمير سلار نائب السلطنة و بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فقابلوه بالإكرام و أنعموا عليه و احترموه، فلمّا كان فى بعض الأيام جلس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۳

الوزير المغربىّ المذكور بباب القلعة عند بيبرس الجاشنكير و سلّار. فحضر بعض كتّاب النصارى، فقام إليه المغربىّ يتوهّم أنه مسلم ثم ظهر له أنه نصرانىّ فقامت قيامته، و قام من وقته و دخل إلى السلطان بحضرة الأمير سلّار و بيبرس مدبّرى مملكة الناصر محمد، و تحدّث معهم فى أمر النصارى و اليهود، و أنهم عندهم فى بلادهم فى غاية الذّل و الهوان، و أنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل، و لا من استخدامهم فى الجهات السلطانية و الديوانية، و أنكر على نصارى ديار مصر و يهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب و يركبون البغال و الخيل، و أنهم يستخدمونهم فى أجلّ الجهات و يحكّمونهم فى رقاب المسلمين؛ ثم إنه ذكر عهد ذمّتهم قد انقضت من سنة ستمائة من الهجرة النبويّة، و ذكر كلاما كثيرا من هذا النوع، فأثّر كلامه عند القلوب النّيّرة من أهل الدولة، و حصل له قبول من الخاصّ و العام بسبب هذا الكلام، و قام بنصرته الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير و جماعة كثيرة من الأمراء وافقوه على ذلك، و رأوا أنّ فى هذا الأمر مصلحة كبيرة لاظهار شعائر الاسلام. فلمّا كان [يوم الخميس العشرون من] شهر رجب جمعوا النصارى و اليهود و رسموا لهم ألّا يستخدموا فى الجهات السلطانيّة و لا عند الأمراء، و أن يغيّروا عمائمهم فيلبس النصارى عمائم زرقا و زنانيرهم مشدودة فى أوساطهم؛ و أنّ اليهود يلبسون عمائم صفرا، فسعوا الملّتان عند جميع أمراء الدولة و أعيانها، و ساعدهم أعيان القبط و بذلوا الأموال

الكثيرة الخارجة عن الحدّ للسلطان و الأمراء على أن يعفوا من ذلك، فلم يقبل منهم شيئا.

و شدّد عليهم الأمير بيبرس الجاشنكير الأستادار- رحمه اللّه- غاية التشديد، فإنه هو الذى كان القائم فى هذا الأمر، عفا اللّه تعالى عنه و أسكنه الجنة بما فعله، فإنه رفع الاسلام بهذه الفعلة و خفض أهل الملّتين بعد أن وعد بأموال جمّة فلم يفعل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۴

قلت: رحم اللّه ذلك الزمان و أهله ما كان أعلى هممهم، و أشبع نفوسهم! و ما أحسن قول المتنبّى:

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرّهم و أتيناه على الهرم

ثم رسم السلطان الملك الناصر محمد بغلق الكنائس بمصر و القاهرة، فضرب على كل باب منها دفوف و مسامير، و أصبح يوم الثانى و العشرين من شهر رجب المبارك من سنة سبعمائة، و قد لبسوا اليهود عمائم صفرا، و النصارى عمائم زرقا، و إذا ركب أحد منهم بهيمة يكفّ إحدى رجليه، و بطلوا من الخدم السلطانية و كذلك من عند الأمراء؛ و أسلم لذلك جماعة كثيرة من النصارى، منهم: أمين الملك مستوفى الصّحبة و غيره. ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك فى جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات.

فأمّا أهل الإسكندرية لما وصل إليهم المرسوم سارعوا إلى خراب كنيستين عندهم، و ذكروا أنهما مستجدّتان فى عهد الإسلام، ثم داروا إلى دورهم فما وجدوه أعلى على من جاورها من دور المسلمين هدموه، و كلّ من كان جاور مسلما فى حانوت أنزلوا مصطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، و فعلوا أشياء كثيرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۵

من هذا، و أقاموا شعار الإسلام كما ينبغى على العادة القديمة؛ و وقع ذلك بسائر الأقطار لا سيّما أهل دمشق، فإنهم أيضا أمعنوا فى ذلك. و عملت الشعراء فى هذا المعنى عدّة مقاطيع شعر، و مما قاله الشيخ شمس الدين الطيبىّ:

تعجّبوا للنصارى و اليهود معا و السامريّين لمّا عمّموا الخرقا

كأنّما بات بالأصباغ منسهلا نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

و مما قاله الشيخ علاء الدين كاتب ابن وداعة المعروف بالوداعىّ فى المعنى و أجاد:

لقد الزموا الكفّار شاشات ذلّة تزيدهم من لعنة اللّه تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما و لكنّهم قد ألبسوكم براطيشا

و فيها فى تاسع ذى القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أنس يخبر بحركة التتار، و أنّ التتار قد أرسلوا أمامهم رسلا، و أنّ رسلهم قد قاربت الفرات، ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية فى ليلة الاثنين خامس عشر ذى الحجّة، و أعيان القصّاد ثلاثة نفر: قاضى الموصل و خطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعى، و آخر عجمىّ و آخر تركىّ. و لما كان عصر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء و المقدّمين إلى القلعة و عملت الخدمة و لبسوا المماليك أفخر الثياب و الملابس، و بعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحوا من ألف شمعة، ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر، ثم أحضروا الرسل، و حضر القاضى بجملتهم و على رأسه طرحة، فقام و خطب خطبة بليغة وجيزة و ذكر آيات كثيرة فى معنى الصلح و اتّفاق الكلمة و رغّب فيه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۶

و من بعده للسلطان محمود غازان، و دعا للمسلمين و الأمراء و أدّى الرسالة.

و مضمونها: إنّما قصدهم الصلح و دفعوا إليهم كتابا مختوما من السلطان غازان، فأخذ منهم الكتاب و لم يقرءوه تلك الليلة، و أعيد الرسل إلى مكانهم. فلمّا كان ليلة الخميس فتح الكتاب و قرئ على السلطان و هو مكتوب بالمغلى و كتم الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشر ذى الحجّة حضر جميع الأمراء و المقدّمين و أكثر العسكر و أخرج إليهم الكتاب و قرئ عليهم، و هو مكتوب بخطّ غليظ

فى نصف قطع البغدادىّ، و مضمونه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، و ننهى بعد السلام إليه أنّ اللّه عزّ و جلّ جعلنا و إياكم أهل ملّة واحدة، و شرفنا بدين الإسلام و أيّدنا، و ندبنا لإقامة مناره و سدّدنا؛ و كان بيننا و بينكم ما كان بقضاء اللّه و قدره، و ما كان ذلك إلّا بما كسبت أيديكم، و ما اللّه بظلّام للعبيد! و سبب ذلك أنّ بعض عساكركم أغاروا على ماردين و بلادها فى شهر رمضان المعظّم قدره، الذى لم تزل الأمم يعظّمونه فى سائر الأقطار، و فيه تغلّ الشياطين و تغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها، و قتلوا و سبوا و فسقوا و هتكوا محارم اللّه بسرعة من غير مهلة؛ و أكلوا الحرام و ارتكبوا الآثام، و فعلوا ما لم تفعله عبّاد الأصنام؛ فأتونا أهل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال و الحريم، و قد استولى عليهم الشّقاء بعد النعيم؛ فلاذوا بجنابنا و تعلّقوا بأسبابنا، و وقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا؛ فهزّتنا نخوة الكرام، و حركتنا حميّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۷

الإسلام، فركبنا على الفور بمن كان معنا و لم يسعنا بعد هذا المقام؛ و دخلنا البلاد و قدّمنا النّية، و عاهدنا اللّه تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية؛ و علمنا أنّ اللّه تعالى لا- يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا فى الأرض فسادا [و اللّه لا يحبّ الفساد]، و أنه يغضب لهتك الحريم و سبى الأولاد؛ فما كان إلا أن لقيناكم بنيّة صادقة، و قلوب على الحميّة للدين موافقة؛ فمزّقنا كم كلّ ممزّق، و الذى ساقنا إليكم، هو الذى نصرنا عليكم؛ و ما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة الآية. فولّيتم الأدبار، و اعتصمتم من سيوفنا بالفرار، فعفونا عنكم بعد اقتدار، و رفعنا عنكم حكم السيف البتّار؛ و تقدمنا إلى جيوشنا ألّا يسعوا فى الأرض كما سعيتم، و أن ينشروا من العفو و العفاف ما طويتم، و لو قدرتم ما عفوتم و لا عففتم؛ و لم نقلّدكم منّة بذلك، بل حكم الإسلام فى قتال البغاة كذلك؛ و كان جميع ما جرى فى سالف القدم، و من قبل كونه جرى به فى اللّوح القلم؛ ثم لمّا رأينا الرعيّة تضرّروا بمقامنا فى الشام، لمشاركتنا لهم فى الشراب و الطعام؛ و ما حصل فى قلوب الرعيّة من الرّعب، عند معاينة جيوشنا التى هى كمطبّقات السّحب؛ فأردنا أن نسكّن تخوّفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر و التأييد، و العلوّ و المزيد؛ فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تونّس بهم، و تعود فى أمرها إليهم؛ و يحرسونهم من تعدّى بعضهم على بعض، بحيث إنّكم ضاقت بكم الأرض؛ إلى أن يستقرّ جأشكم، و تبصروا رشدكم؛ و تسيّروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، و أكرادكم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۸

المتمرّدين؛ و تقدّمنا إلى مقدّمى طوامين جيوشنا أنّهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم إلى الشام، أن يعودوا إلينا بسلام؛ فعادوا الينا بالنصر المبين، و الحمد للّه رب العالمين.

و الان فإنّا و إيّاكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، و ما بيننا ما يفرّق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين؛ و قد أخذنا منكم القصاص، و هو جزاء كلّ عاص؛ فنرجع الآن فى إصلاح الرعايا، و نجتهد نحن و إيّاكم على العدل فى سائر القضايا فقد انضرّت بيننا و بينكم حال البلاد و سكانها، و منعها الخوف من القرار فى أوطانها؛ و تعذّر سفر التجار، و توقّف حال المعايش لانقطاع البضائع و الأسفار؛ و نحن نعلم أنّنا نسأل عن ذلك و نحاسب عليه، و أنّ اللّه عزّ و جلّ لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و أنّ جميع ما كان و ما يكون فى كتاب لا- يغادر صغيرة و لا- كبيرة إلّا أحصاها. و أنت تعلم أيّها الملك الجليل، أنّنى و أنت مطالبون بالحقير و الجليل؛ و أننا مسئولون عمّا جناه، أقل من ولياه، و أنّ مصيرنا إلى اللّه؛ و أنا معتقدون الإسلام قولا و عملا [و نيّة، عاملون بفروضه فى كلّ وصيّة]. و قد حمّلنا قاضى القضاة علامة الوقت حجّة الإسلام بقيّة السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبد اللّه، أعزّه اللّه تعالى، مشافهة يعيدها على سمع الملك و العمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسيّر لنا هديّة الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۳۹

منكم فى إجابتنا للصلح صدق النيّة؛ و نهدى إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، و السلام الطيّب منا عليكم. إن شاء اللّه تعالى».

فلمّا سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء فى ذلك، و بعد أيام طلبوا قاضى الموصل (أعنى الرسول) المقدّم ذكره من عند قازان، و قالوا له: أنت من أكابر العلماء و خيار المسلمين، و تعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام و النصيحة للدّين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدّين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة و دهاء فنحن نحلف لك أنّ ما يطّلع على هذا القول أحد من خلق اللّه تعالى، و رغّبوه غاية الرغبة؛ فخلف لهم بما يعتقده أنّه ما يعلم من قازان و خواصّه غير الصلح و حقن الدماء و رواج التجّار و مجيئهم و إصلاح الرعية. ثم إنّه قال لهم: و المصلحة أنّكم تتفقون و تبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوّكم، و أنتم فلكم عادة فى كلّ سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين؛ و إن كان الأمر صحيحا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح و تحقن الدماء فيما بينكم. فلمّا سمعوا كلامه رأوه ما فيه غرض و هو مصلحة، فشرعوا لعيّنوا من يروح فى الرسالة، فعيّنوا جماعة، منهم الأمير شمس الدين [محمد] بن التّيتىّ، و الخطيب شمس الدين الجوزىّ خطيب جامع ابن طولون، فتشفّع ابن الجوزىّ حتى تركوه، و عيّنوا القاضى عماد الدين بن السّكّرىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۰

خطيب جامع الحاكم، و هو ناظر دار العدل بالديار المصرية، و شخصا أمير آخور من البرجيّة. ثم إنّ السلطان أخذ فى تجهيز أمرهم إلى ما يأتى ذكره.

ثم استقرّ السلطان فى سنة إحدى و سبعمائة بالأمير عزّ الدين أيبك البغدادىّ المنصورىّ، أحد الأمراء البرجية فى الوزارة عوضا عن شمس الدين سنقر الأعسر، و جلس فى قلعة الجبل بخلعة الوزارة، و طلع إليه جميع أرباب الدولة و أعيان الناس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۱

و أيبك هذا هو الرابع من الوزراء الأمراء الأتراك بالديار المصرية، الذين كان تضرب على أبوابهم الطبلخاناه على قاعدة الوزراء بالعراق زمن الخلفاء؛ فأوّلهم الأمير علم الدين سنجر الشّجاعىّ المنصورىّ. ثم ولى بعده الأمير بدر الدين بيدرا، و لمّا ولى بيدرا نيابة السلطنة أعيد الشجاعىّ، و بعده ابن السّلعوس و ليس هما من العدد، ثم الخليلىّ و ليس هو من العدد. ثم بعد الخليلى، ولى الأمير سنقر الأعسر الوزر، و هو الثالث. ثم بعده أيبك هذا و هو الرابع. و كان الوزير يوم ذاك فى رتبة النيابة بالديار المصرية، و نيابة السلطنة كانت يوم ذاك دون السلطنة. انتهى.

و فى يوم الأحد تاسع عشر المحرّم من سنة إحدى و سبعمائة، رسم السلطان لجميع الأمراء و المقدّمين بمصر و القاهرة أن يخرجوا صحبة السلطان إلى الصيد نحو العبّاسة، و أن يستصحبوا معهم عليق عشرة أيام، و سافر السلطان بأكثر العسكر و الجميع بعدّتهم فى بكرة يوم الاثنين فى العشرين من المحرّم. و نزل إلى بركة الحجّاج و تبعه جميع الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۲

و المقدّمين و العساكر، و بعد سفره سيّروا طلبوا القضاة الأربعة فتوجّهوا إليه، و اجتمعوا بالسلطان فى بركة الحجاج و عادوا إلى القاهرة، ثم شرعوا فى تجهيز رسل قازان، و تقدّم دهليز السلطان إلى الصالحية، و دخل السلطان و الأمراء إلى البريّة بسبب الصيد. فلمّا كان يوم الاثنين عشيّة النهار وصل السلطان و الأمراء إلى الصالحية، فخلع على جميع الأمراء و المقدّمين، و كان عدّة ما خلع أربعمائة و عشرين خلعة، و كان الرسل قد سفّروهم من القاهرة و أنزلوهم بالصالحية، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد. فلما حضر الأمراء قدّام السلطان بالخلع السنيه و تلك الهيئة الجميلة الحسنة أذهل عقول الرسل مما رأوا من حسن زىّ عسكر الديار المصرية بخلاف زىّ التتار، و أحضروا الرسل فى الليل إلى الدهليز إلى بين يدى السلطان، و قد أوقدوا شموعا كثيرة و مشاعل عديدة و فوانيس و أشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد بحيث إنّ البريّة بقيت حمراء تتلهّب نورا و نارا، فتحدّثوا معهم ساعة، ثم أعطوهم جواب الكتاب، و خلعوا عليهم خلع السفر و أعطوا لكلّ واحد من الرسل عشرة آلاف درهم و قماشا و غير ذلك. و نسخة الكتاب

المسيّر إليهم صورته:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم: علمنا ما أشار الملك إليه، و عوّل فى قوله [و فعله] عليه؛ فأمّا قول الملك: قد جمعتنا و إياكم كلمة الإسلام! و إنه لم يطرف بلادنا و لا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول [بل] هو عندنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۳

معلوم؛ و إنّ السبب فى ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين، و إنهم قتلوا و سبوا و هتكوا الحريم و فعلوا فعل من لاله دين؛ فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت فى بلادكم، مستمرّة من عهد آبائكم و أجدادكم؛ و أنّ من فعل ما فعل من الفساد، لم يكن برأينا و لا من أمرائنا و لا الأجناد؛ بل من الأطراف الطامعة ممّن لا يؤبه إليه، و لا يعوّل فى فعل و لا قول عليه؛ و أنّ معظم جيشنا كان فى تلك الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلّا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، و أنهم أكثر ليلهم سجّد و نهارهم صيام.

و أمّا قول الملك ابن الملك الذى هو من أعظم القان فيقول قولا يقع عليه الردّ من قريب، و يزعم أنّ جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب؛ و لو يعلم أنّه لو تقلّب فى مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلا أو راكبا؛ كان عندنا علم من ذلك فى الوقت القريب؛ [و يتحقق أنّ أقرب بطائنه إليه، هو العين لنا عليه، و إن كثر ذلك لديه،]. و نحن تحقّقنا أنّ الملك بقى عامين يجمع الجموع، و ينتصر بالتابع و المتبوع؛ و حشد و جمع من كلّ بلد و اعتضد بالنصارى و الكرج و الأرمن، و استنجد بكلّ من ركب فرسا من فصيح و ألكن؛ و طلب من المسوّمات خيولا- و ركاب، و كثر سوادا و عدّد أطلاب؛ ثم إنّه لمّا رأى أنه ليس له بجيشنا قبل فى المجال، عاد إلى قول الزّور و المحال، و الخديعة و الاحتيال؛ و تظاهر بدين الإسلام، و اشتهر به فى الخاص و العام؛ و الباطن بخلاف ذلك، حتّى ظنّ جيوشنا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۴

و أبطالنا أنّ الأمر كذلك؛ فلمّا [التقينا معه] كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله، و يبعد عن نزاله؛ و يقول: لا يجوز لنا قتال المسلمين، و لا يحلّ قتل من يتظاهر بهذا الدين!؛ فلهذا حصل منهم الفشل، و بتأخّرهم عن قتالكم حصل ما حصل؛ و أنت تعلم أنّ الدائرة كانت عليك. و ليس يرى من أصحابك الّا من هو نادم أو باكى، أو فاقد عزيز عنده أو شاكى؛ و الحرب سجال يوم لك، و يوم عليك؛ و ليس ذلك ممّا تعاب به الجيوش و لا تقهر، و هذا بقضاء اللّه و قدره المقدّر.

و أمّا قول الملك إنّه لما التقى بجيشنا مزّقهم كلّ ممزّق، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلّم به، و هو يعلم و إن كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته و أمراء عساكره عن وقائع جيوشنا و مراتع سيوفنا من رقاب آبائه و أجداده، و هى إلى الآن تقطر من دمائهم؛ و إن كنت نصرت مرّة فقد كسرت آباؤك مرار، و إن كان جيشك قد داس أرضنا مرّة فبلادكم لغارتنا مقام و لجيوشنا قرار؛ و كما تدين تدان.

و أمّا قول الملك: إنّه و من معه اعتقدوا الإسلام قولا و فعلا و عملا و نيّة، فهذا الذى فعلته ما فعله من هو متوجّه الى هذه البنيّة، أعنى الكعبة المضّية فإنّ الذى جرى بظاهر دمشق و جبل الصالحية ليس بخفىّ عنك و لا مكتوم، و ليس هذا هو فعل المسلمين، و لا من هو متمسّك بهذا الدين؛ فأين و كيف و ما الحجّة! و حرم البيت المقدس تشرب فيه الخمور، و تهتك الستور، و تفتضّ البكور؛ و يقتل فيه المجاورون،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۵

و يستأسر خطباؤه [و المؤذّنون]، ثم على رأس خليل الرحمن، تعلّق الصّلبان، و تهتك النسوان، و يدخل فيه الكافر سكران؛ فإن كان هذا عن علمك و رضاك، فواخيبتك فى دنياك و أخراك؛ و يا ويلك فى مبدئك و معادك، و عن قليل يؤذن بخراب عمرك و بلادك، و هلاك جيشك و أجنادك؛ و إن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوبا به سواك؛ و إن كنت كما زعمت أنّك على دين الإسلام، و أنت فى قولك صادق فى الكلام، و فى عقدك صحيح النظام؛ فاقتل الطّوامين الذين

فعلوا هذه الفعال، و أوقع بهم أعظم النّكال؛ لنعلم أنك على بيضاء المحجّة، و كان فعلك و قولك أبلغ حجّة؛ و لمّا وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة و تحقّقوا أنّكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص و خدعتم باليمين و الإيمان، و انتصرتم على قتالهم بعبدة الصّلبان؛ اجتمعوا و تأهّبوا و خرجوا بعزمات محمديّة، و قلوب بدريّة، و همم عليّة، عند اللّه مرضيّة؛ و حدّوا السير فى البلاد، ليتشفّوا منكم غليل الصدور و الأكباد؛ فما وسع جيشكم إلا الفرار، و ما كان لهم على اللّقاء صبر و لا قرار؛ فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزّخار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام؛ فخشينا على رعيتكم تهلك، و أنتم تهربون و لا تجدون إلى النجاة مسلك؛ فأمرناهم بالمقام، و لزوم الأهبة و الاهتمام؛ ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا.

و أمّا ما تحمّله قاضى القضاة من المشافهة، فإنّا سمعناه و وعيناه و تحقّقنا تضمنته مشافهة؛ و نحن نعلم علمه و نسكه و دينه و فضله المشهور، و زهده فى دار الغرور؛ و لكن قاضى القضاة غريب عنكم بعيد منكم، لم يطّلع على بواطن قضاياكم و أموركم، و لا يكاد يظهر له خفىّ مستوركم؛ فإن كنتم تريدون الصلح و الإصلاح، و بواطنكم كظواهركم متتابعة فى الصلاح؛ و أنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، و ليس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۶

فى قولك مين و لا يشوبه تنميق؛ فنحن نقلّدك [سيف] البغى، و من سلّ سيف البغى قتل به، و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله؛ فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم ممّن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فصل حكما انتهيتم إليه، أو جزم أمرا عوّلتم عليه؛ يكون له فى أوّل دولتكم حكم و تمكين، و هو فيما يعوّل عليه ثقة أمين؛ لنتكلّم معه فيما فيه الصلاح لذات البين، و إن لم يكن كذلك عاد بخفّى حنين.

و أمّا ما طلبه الملك من الهديّة من الديار المصريّة فليس نبخل عليه، و مقداره عندنا أجلّ مقدار و جميع ما يهدى إليه دون قدره، و إنّما الواجب أن يهدى أوّلا من استهدى؛ لتقابل هديته بأضعافها، و نتحقّق صدق نيّته، و إخلاص سريرته؛ و نفعل ما يكون فيه رضا اللّه عزّ و جلّ و رضا رسوله فى الدنيا و الآخرة، لعلّ صفقتنا رابحة فى معادنا غير خاسرة. و اللّه تعالى الموفّق للصواب». انتهى.

ثم سافر القصّاد المذكورون، و عاد السلطان من الصّيد فى ثالث صفر إلى بركة الحجّاج و التقى أمير الحاج و هو الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جاندار، و صحبته ركب الحاجّ و المحمل السلطانىّ، فنزل عنده السلطان و خلع عليه؛ ثم ركب و توجّه حتى صعد قلعة الجبل عصر النهار، و دخل عقيب دخوله المحمل و الحجاج، و شكر الحاجّ من حسن سيرة بكتمر المذكور مع سرعة مجيئه بخلاف العادة؛ فإن العادة كانت يوم ذاك دخول المحمل فى سابع صفر، و قبل ذلك و بعد ذلك. و عمل بكتمر فى هذه السّفرة من الخيرات و البرّ و الخلع على أمراء الحجاز و غيرهم شيئا كثيرا؛ قيل: إنّ جملة ما أنفقه فى هذه السفرة خمسة و ثمانون ألف دينار مصرية، تقبل اللّه تعالى منه. ثمّ فى صفر هذا وصل الخبر إلى السلطان بأنّ قازان على عزم الركوب و قصد الشام، و أنّ مقدّم عساكره الأمير بولاى قد قارب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۷

الفرات، و أنّ الذى أرسله من الرسل خديعة. فعند ذلك شرع السلطان فى تجهيز العساكر، و تهيّأ للخروج إلى البلاد الشامية، ثم فى أثناء ذلك ورد على السلطان قاصد الأمير كتبغا المنصورىّ نائب صرخد، و كتبغا هذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لاچين المقدّم ذكرهما، و أخبر أنه وقع بين حماة و حمص و حصن الأكراد برد و فيه شىء على صورة بنى آدم من الذكور و الإناث، و صور قرود و غير ذلك، فتعجب السلطان و غيره من ذلك. ثمّ فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى فى وقت السحر توفّى الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد بن علىّ الهاشمىّ العباسىّ بمسكنه بالكبش ظاهر القاهرة و مصر المطلّ على بركة الفيل، و خطب له فى ذلك اليوم بجوامع القاهرة و مصر، فإنهم أخفوا موته إلى بعد صلاة الجمعة، فلمّا انقضت الصلاة سيّر الأمير سلّار نائب السلطنة خلف جماعة الصوفية و مشايخ الزوايا و الرّبط و القضاة و العلماء و الأعيان من الأمراء و غيرهم للصلاة عليه،

و تولّى غسله و تكفينه الشيخ كريم الدين شيخ الشيوخ بخانقاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۸

سعيد السعداء، و رئيس المغسّلين بين يديه، و هو عمر بن عبد العزيز الطوخىّ، و حمل من الكبش إلى جامع أحمد بن طولون، و نزل نائب السلطنة الأمير سلّار، و الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الأستادار، و جميع الأمراء من القلعة إلى الكبش، و حضروا تغسيله و مشوا أمام جنازته إلى الجامع المذكور، و تقدّم للصلاة عليه الشيخ كريم الدين المذكور، و حمل إلى تربته بجوار السيدة نفيسة و دفن بها، بعد أن أوصى بولاية العهد إلى ولده أبى الربيع سليمان، و تقدير عمره فوق العشرين سنة. و كان السلطان طلبه فى أوّل نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، و أشهد عليه أنه ولّى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولّاه والده و فوّضه إليه، ثم عاد إلى الكبش. فلمّا فرغت الصلاة على الخليفة ردّ ولده المذكور و أولاد أخيه من جامع ابن طولون إلى دورهم، و نزل من القلعة خمسة خدّام من خدّام السلطان، و قعدوا على باب الكبش صفة الترسيم عليهم، و سيّر السلطان يستشير قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد الشافعىّ فى أمر سليمان المذكور، هل يصلح للخلافة أم لا؟ فقال: نعم يصلح و أثنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۴۹

عليه، و بقى الأمر موقوفا إلى يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور.

فلمّا كان بكرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة فطلع هو و أولاد أخيه بسبب المبايعة فأمضى السلطان ما عهد اليه والده المذكور بعد فصول و أمور يطول شرحها بينه و بين أولاد أخيه، و جلس السلطان و خلع على أبى الربيع سليمان هذا خلعة الخلافة، و نعت بالمستكفى، و هى جبّة سوداء و طرحة سوداء، و خلع على أولاد أخيه خلع الأمراء الأكابر خلعا ملوّنة. و بعد ذلك بايعه السلطان و الأمراء و القضاة و المقدّمون و أعيان الدولة، و مدّوا السّماط على العادة؛ ثم رسم له السلطان بنزوله إلى الكبش و أجرى راتبه الذى كان مقرّرا لوالده و زيادة، و نزلوا إلى الكبش و أقاموا به إلى يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة حضر من عند السلطان المهمندار و معه جماعة و صحبتهم جمال كثيرة، فنقلوا الخليفة و أولاد أخيه و نساءهم و جميع من يلوذ بهم إلى قلعة الجبل، و أنزلوهم بالقلعة فى دارين: الواحدة تسمّى بالصالحية، و الأخرى بالظاهريّة، و أجروا عليهم الرواتب المقرّرة لهم، و كان فى يوم الجمعة ثانى يوم المبايعة خطب بمصر و القاهرة للمستكفى هذا، و رسم بضرب اسمه على سكّة الدينار و الدرهم. انتهى.

و كان السلطان قبل ذلك أمر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلى لكثرة فساد العربان و تعدّى شرّهم فى قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجّار و أرباب المعايش بأسيوط و منفلوط فرائض جبوها شبه الجالية، و استخفّوا بالولاة و منعوا الخراج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۰

و تسمّوا بأسماء الأمراء، و جعلوا لهم كبيرين: أحدهما سمّوه سلّار، و الآخر بيبرس، و لبسوا الأسلحة و أخرجوا أهل السجون بأيديهم؛ فأحضر السلطان الأمراء و القضاة [و الفقهاء] و استفتوهم فى قتالهم، فأفتوهم بجواز ذلك؛ فاتّفق الأمراء على الخروج لقتالهم، و أخذت الطّرق عليهم لئلا يمتنعوا بالجبال و المنافذ، فيفوت الغرض فيهم، و استدعوا الأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى متولّى الجيزة و ندبوه لمنع الناس بأسرهم من السفر إلى الصعيد فى البر و البحر، و من ظهر أنه سافر كانت أرواح الولاة قباله و ما ملك، و أشاع الأمراء أنهم يريدون السفر إلى الشام و تجهّزوا، و كتبت أوراق الأمراء المسافرين و هم عشرون مقدّما بمضاقيهم، و عينوا أربعة أقسام: قسم يتوجّه فى البرّ الغربىّ. و قسم يتوجه فى البر الشرقىّ. و قسم يركب النيل. و قسم يمضى فى الطريق السالكة. و توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، و كان قد قدم من الشام، إلى الواح فى خمسة أمراء، و قرّروا أن يتأخّر مع السلطان أربعة أمراء من المقدّمين، و رسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۱

إلى كلّ من تعيّن من الأمراء لجهة أن يضع السيف فى الكبير و الصغير و الجليل و الحقير، و لا يبقوا شيخا و لا صبيّا و يحتاطوا على سائر الأموال، و سار الأمير سلّار نائب السلطنة فى رابع جمادى الآخرة و معه جماعة من الأمراء فى البر الغربىّ، و سار الأمير بيبرس

الجاشنكير بمن معه من الحاجر فى البرّ الغربىّ أيضا من طريق الواحات و سار الأمير بكتاش أمير سلاح بمن معه فى البرّ الشرقىّ و سار الأمير قتّال السبع و بيبرس الدوادار و بلبان الغلمشى و غيره من الشرقية إلى السّويس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۲

و الطور، و سار الأمير قبجق المنصورىّ نائب الشام بمن كان معه إلى عقبة السيل، و سار طقصبا والى قوص بعرب الطاعة، و أخذ عليهم المفازات؛ و قد عمّيت أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد لمنع المسافرين إليها فطرقوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۳

الأمراء البلاد على حين غفلة من أهلها، و وضعوا السيف من الجيزة بالبرّ الغربىّ و الإطفيحية من الشرقىّ، فلم يتركوا أحد إلّا قتلوه، و وسّطوا نحو عشرة آلاف رجل، و ما منهم إلا من أخذوا ماله و سبوا حريمه، فكان إذا ادّعى أحد منهم أنه حضرىّ، قيل له: قل دقيق، فإن قال: دقيق بالكاف لغات العرب قتل، و إن قال: بالقاف المعهودة أطلق، و وقع الرعب فى قلوب العربان حتى طبّق عليهم الأمراء و أخذوهم من كلّ جهة فرّوا إليها، و أخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا من جانبى النيل إلى قوص، و جافت الأرض بالقتلى، و اختفى كثير منهم بمغاور الجبال فأوقدت عليهم النّيران حتى هلكوا بأجمعهم، و أسر منهم نحو ألف و ستمائة لهم فلاحات و زروع، و حصّل من أموالهم شىء عظيم جدّا تفرّقته الأيدى، و أحضر منه إلى الديوان السلطانىّ ستة عشرة ألف رأس من الغنم، و ذلك من جملة ثمانين ألف رأس ما بين ضأن و ما عز، و من السلاح نحو مائتين و ستين جملا من السيوف و السلاح و الرماح، و من الأموال على بغال محملة مائتين و ثمانين بغلا، و نحو أربعة آلاف فرس، و اثنين و ثلاثين ألف جمل، و ثمانية آلاف رأس من البقر، غير ما أرصد فى المعاصر، و صار لكثرة ما حصّل للاجناد و الغلمان و الفقراء الذين اتّبعوا العسكر فباعوا الكبش الكبير السمين من ثلاثة دراهم إلى درهم، و المعز بدرهم الرأس، و الجزّة الصوف بنصف درهم، و الكساء بخمسة دراهم، و الرّطل السمن بربع درهم، و لم يوجد من يشترى الغلال لكثرتها؛ فإنّ البلاد طرقت و أهلها آمنون، و قد كسروا الخراج سنتين. ثم عاد العسكر فى سادس عشر شهر رجب من سنة إحدى و سبعمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۴

و قد خلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشى فلا يجد فى طريقه أحدا و ينزل القرية فلا يرى إلا النساء و الصبيان؛ ثم أفرج السلطان عن المأسورين و أعادهم إلى بلادهم لحفظ البلاد.

و عند عود الأمراء المذكورين من بلاد الصعيد ورد الخبر من حلب أن تكفور متملّك سيس منع الحمل و خرج عن الطاعة و انتمى لغازان، فرسم بخروج العساكر لمحاربته، و خرج الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار بمضافيهما من الأمراء و غيرهم فى شهر رمضان، فساروا إلى حماة فتوجه معهم نائبها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ فى خامس عشرين شوّال.

و توجّهوا إلى بلاد سيس و أحرقوا الزروع و انتهبوا ما قدر عليه، و حاصروا مدينة سيس و غنموا من سفح قلعتها شيئا كثيرا من جفّال الأرمن؛ و عادوا من الدّربند إلى مرج أنطاكية. ثمّ قدموا حلب فى تاسع عشر ذى القعدة. ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس بأنّ الفرنج أنشئوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۵

أرواد، و عمّروها بالعدد و الآلات، و كثر فيها جمعهم، و صاروا يركبون البحر و يأخذون المراكب. فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوان حربيّة فى محرّم سنة اثنتين و سبعمائة ففعل ذلك، و نجّزت عمارة الشوانى و جهّزت بالمقاتلة و آلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارئ العلائىّ والى البهنسا، و اجتمع الناس لمشاهدة لعب الشوانى فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم، و نزل السلطان و الأمراء لمشاهدة ذلك، و اجتمع من العالم ما لا يحصيه إلّا اللّه تعالى حتّى بلغ كراء المركب الّتى تحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم؛

و امتلأ البرّ من بولاق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۶

إلى الصّناعة حتّى لم يوجد موضع قدم، و وقف العسكر على برّ بستان الخشّاب و ركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، و برزت الشوانى تجاه المقياس تلعب كأنّها فى الحرب، فلعب الشينىّ الأوّل و الثانى و الثالث، و أعجب الناس إعجابا زائدا لكثرة ما كان فيها من المقاتلة و النفوط و آلات الحرب، و تقدّم الرابع و فيه الأمير آقوش فما هو إلّا أنّه خرج من الصناعة بمصر و توسّط فى النيل إذا بالريح حرّكته فمال به ميلة واحدة انقلب و صار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها الحبالى، و تكدّر ما كانوا فيه من الصّفو فتلاحق الناس بالشّينىّ و أخرجوا ما سقط منه فى الماء، فلم يعدم منه سوى الأمير آقوش و سلم الجميع، فتكدّر السلطان و الأمراء بسببه، و عاد السلطان بأمرائه إلى القلعة و انفضّ الجمع. و بعد ثلاثة أيام أخرج الشّينىّ فإذا امرأة الريّس و ابنها و هى ترضعه فى قيد الحياة، فاشتدّ عجب الناس من سلامتها طول هذه الأيام! قاله المقريزى و غيره، و العهدة عليهم فى هذا النقل. ثم شرع العمل فى إعادة الشّينى الذى غرق حتى نجزّ، و ندب السلطان الأمير سيف الدين كهرداش الزرّاق المنصورىّ إلى السفر فيه عوضا عن آقوش الذى غرق، رحمه اللّه تعالى، و توجّه الجميع إلى طرابلس ثم إلى جزيرة أرواد المذكورة، و هى بالقرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۷

من أنطرطوس، فأخربوها و سبوا و غنموا، و كان الأسرى منها مائتين و ثمانين نفرا، و قدم الخبر بذلك إلى السلطان فسّر و سرّ الناس قاطبة و دقّت البشائر لذلك أياما؛ و اتّفق فى ذلك اليوم أيضا حضور الأمير بكتاش الفخرىّ أمير سلاح من غزو سيس.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب بأنّ قازان على عزم الحركة إلى الشام، فوقع الاتّفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، و عيّن من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير، و طغريل الإيغانىّ، و كراى المنصورىّ، و حسام الدين لاچين أستادار بمضافيهم و ثلاثة آلاف من الأجناد، و ساروا من مصر فى ثامن عشر شهر رجب، و تواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات، و وصل عسكره إلى الرحبة، و بعث أمامه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفا، و كتب إلى الأمير عزّ الدين [أيبك] الأفرم نائب الشام يرغّبه فى طاعته، و دخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق فى نصف شعبان، و لبث يستحثّ السلطان على الخروج. و أقبل الناس من حلب و حماة إلى دمشق جافلين من التّتار، فاستعدّ أهل دمشق للفرار و لم يبق إلّا خروجهم، فنودى بدمشق من خرج منها حلّ ماله و دمه، و خرج الأمير بهادر آص و الأمير قطلوبك المنصورىّ، و أنس الجمدار فى عسكر إلى حماة، و لحق بهم عساكر طرابلس و حمص. فاجتمعوا على حماة عند نائبها الملك العادل كتبغا المنصورىّ، و بلّغ التتار ذلك فبعثوا طائفة كثيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتّركمان، فتوجّه إليهم أسندمر كرجى نائب طرابلس و بهادر آص

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۸

و كجكن و إغزلو العادلى و تمر الساقى و أنص الجمدار و محمد بن قرا سنقر فى ألف و خمسمائة فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض فى حادى عشر شعبان على غفلة، فافترقوا عليهم أربع فرق، و قاتلوهم قتالا شديدا من نصف النهار إلى العصر حتّى كسروهم و أفنوهم، و كانوا التّتار، فيما يقال، أربعة آلاف، و استنقذوا التّركمان و حريمهم و أولادهم من أيدى التتار، و هم نحو ستة آلاف أسير، و لم يفقد من العسكر الإسلامى إلا الأمير أنص الجمدار المنصورى و محمد بن باشقرد الناصرىّ و ستة و خمسون من الأجناد، و عاد من انهزم من التتار إلى قطلوشاه، و أسر العسكر المصرىّ مائة و ثمانين من التتار، و كتب إلى السلطان بذلك و دقّت البشائر [بدمشق]. و كان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره و أمرائه من الديار المصريّة إلى جهة البلاد الشاميّة فى ثالث شعبان، و خرج بعده الخليفة المستكفى باللّه، و استناب السلطان بديار مصر الأمير عزّ الدين أيبك البغدادىّ.

و جدّ قطلوشاه مقدّم التتار بالعساكر فى المسير حتّى نزل قرون حماة فى ثالث عشر شعبان، فاندفعت العساكر المصريّة التى كانت بحماة بين يديه إلى دمشق، و ركب نائب حماة الأمير كتبغا الذى كان تسلطن و تلقّب بالملك العادل فى محفّة لضعفه، و اجتمع

الجميع بدمشق و اختلف رأيهم فى الخروج إلى لقاء العدوّ أو انتظار قدوم السلطان، ثم خشوا من مفاجأة العدوّ فنادوا بالرحيل، و ركبوا فى أوّل شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها و أخذوا فى الرحيل منها على وجوههم، و اشتروا الحمار بستمائة درهم و الجمل بألف درهم، و ترك كثير منهم حريمه و أولاده و نجا بنفسه إلى القلعة، فلم يأت اللّيل إلا و بوادر التتار فى سائر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۵۹

نواحى المدينة، و سار العسكر مخفّا، و بات الناس بدمشق فى الجامع يضجّون بالدعاء إلى اللّه تعالى، فلمّا أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة.

و بلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجّهوا إليه من مرج راهط فلقوه على عقبة الشّحورا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان و قبّلوا الأرض، ثم ورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتار فى خمسين ألفا مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسكر بأجمعه السلاح، و اتّفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب؛ و كان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر، فصفّت العساكر الإسلامية، فوقف السلطان فى القلب و بجانبه الخليفة، و الأمير سلّار النائب، و الأمير بيبرس الجاشنكير، و عزّ الدين أيبك الخازندار، و بكتمر الجوكندار، و آقوش الأفرم نائب الشام، و الأمير برلغى، و الأمير أيبك الحموىّ، و بكتمر الأبوبكرىّ، و قطلوبك، و نوغاى السلاح دار، و مبارز الدين أمير شكار، و يعقوبا الشّهرزورىّ، و مبارز الدين أوليا بن قرمان؛ و وقف فى الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة و العربان و جماعة كثيرة من الأمراء؛ و وقف فى الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، و الأمير قرا سنقر نائب حلب بعساكرها، و الأمير بتخاص نائب صفد بعساكرها؛ و الأمير طغريل الإيغانى، و بكتمر السلاح دار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۰

و بيبرس الدّوادار بمضافيهم. و مشى السلطان على التتار و الخليفة بجانبه و معهما القرّاء يتلون القرآن و يحثّون على الجهاد و يشوّقون إلى الجنة، و صار الخليفة يقول:

يا مجاهدون لا- تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن دين نبيّكم صلّى اللّه عليه و سلّم و عن حريمكم! و الناس فى بكاء شديد، و منهم من سقط عن فرسه إلى الأرض! و وصّى بيبرس و سلّار على الثبات فى الجهاد. و كلّ ذلك و السلطان و الخليفة يكرّ فى العساكر يمينا و شمالا- ثم عاد السلطان و الخليفة إلى مواقفهما، و وقف خلفه الغلمان و الأحمال و العساكر صفّا واحدا، و قال لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه و لكم سلبه. فلمّا تمّ الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع اللّيل، و كان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ثانى رمضان المذكور. و أقبل قطلوشاه بمن معه من الطّوامين، و حملوا على الميمنة فثبت لهم الميمنة و قاتلوهم أشدّ قتال حتى قتل من أعيان الميمنة الأمير حسام الدين لاچين الأستادار، و أوليا بن قرمان، و الأمير سنقر الكافورى، و الأمير أيدمر الشّمسىّ القشّاش، و الأمير آقوش الشمسىّ الحاجب، و حسام الدين على بن باخل و نحو الألف فارس، كلّ ذلك و هم فى مقابلة العدوّ و القتال عمّال بينهم. فلما وقع ذلك أدركتهم الأمراء من القلب و من الميسرة، و صاح سلّار: هلك و اللّه أهل الإسلام! و صرخ فى بيبرس الجاشنكير و فى البرجيّة فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم و صدم بهم العدوّ و قصد مقدّم التتار قطلوشاه، و تقدّم عن الميمنة حتّى أخذت الميمنة راحة، و أبلى سلّار فى ذلك اليوم هو و بيبرس الجاشنكير بلاء حسنا، و سلّموا نفوسهم إلى الموت. فلمّا رأى باقى الأمراء منهم ذلك ألقوا نفوسهم إلى الموت، و اقتحموا القتال، و كانت لسلّار و الجاشنكير فى ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۱

اليوم اليد البيضاء على المسلمين- رحمهما اللّه تعالى- و استمرّوا فى القتال إلى أن كشفوا التّتار عن المسلمين، و كان جوبان و قرمجى من طوامين التتار قد ساقا تقوية لبولاى و هو خلف المسلمين؛ فلمّا عاينوا الكسرة على قطلوشاه أتوه نجدة و وقفوا فى وجه سلّار و بيبرس، فخرج من عسكر السلطان [أسندمر] و الأمير قطلوبك و الأمير قبجق و المماليك السلطانية و أردفوا سلّار و بيبرس، و قاتلوا أشدّ قتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار على الأمير برلغى فى موقفه، فتوجّهوا الجماعة المذكورون إلى برلغى، و استمرّ

القتال بينهم.

و أمّا سلّار فإنّه قصد قطلوشاه مقدّم التتار و صدمه بمن معه، و تقاتلا و ثبت كلّ منهما، و كانت الميمنة لمّا قتل الأمراء منها انهزم من كان معهم، و مرّت التتار حلفهم فجفل الناس و ظنّوا أنّها كسرة، و أقبل السواد الأعظم على الخزائن السلطانية فكسروها و نهبوا ما فيها من الأموال، و جفل النساء و الأطفال. و كانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، و كشف النساء عن وجوههنّ و أسبلن الشعور و ضجّ ذلك الجمع العظيم بالدعاء، و قد كادت العقول أن تطيش و تذهب عند مشاهدة الهزيمة! و استمرّ القتال بين التتار و المسلمين إلى أن وقف كلّ من الطائفتين عن القتال.

و مال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، و صعد عليه و فى نفسه أنّه انتصر، و أنّ بولاى فى أثر المنهزمين من المسلمين، فلمّا صعد الجبل رأى السهل و الوعر كلّه عساكر و الميسرة السلطانية ثابتة، و أعلامها تخفق، فبهت قطلوشاه و تحيّر و استمرّ بموضعه حتّى كمل معه جمعه و أتاه من كان خلف المنهزمين من السلطانية و معهم عدّة من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأمير عزّ الدين أيدمر نقيب المماليك السلطانيّة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۲

فأحضره قطلوشاه و سأله من أين أنت؟ فقال: من أمراء مصر، و أخبره بقدوم السلطان، و كان قطلوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت، فعند ذلك جمع قطلوشاه أصحابه و شاورهم فيما يفعل، و إذا بكوسات السلطان و البوقات قد زحفت و أزعجت الأرض و أرجفت القلوب بحسها، فلم يثبت بولاى و خرج من تجاه قطلوشاه فى نحو العشرين ألفا من التتار، و نزل من الجبل بعد المغرب و مرّ هاربا.

و بات السلطان و سائر عساكره على ظهور الخيل و الطّبول تضرب، و تلاحق بهم من كان انهزم شيئا بعد شىء، و هم يقصدون ضرب الطبول السلطانية و الكوسات، و احتاط عسكر السلطان بالجبل الذى بات عليه التتار، و صار بيبرس و سلّار و قبجق و الأمراء و الأكابر فى طول الليل دائرين على الأمراء و الأجناد يوصونهم و يرتّبونهم و يؤكّدون عليهم فى التيقّظ، و وقف كلّ أمير فى مصافّه مع أصحابه، و الحمل و الأثقال قد وقف على بعد، و ثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس، و شرع قطلو شاه فى ترتيب من معه و نزلوا مشاة و فرسانا و قاتلوا العساكر، فبرزت المماليك السلطانيّة بمقدّميها إلى قطلو شاه و جوبان، و عملوا فى قتالهم عملا عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام و تارة يواجهونهم بالرماح، و اشتغل الأمراء أيضا بقتل من فى جهتهم يتناوبون القتال أميرا بعد أمير، و ألحّت المماليك السلطانية فى القتال و أظهروا فى ذلك اليوم من الشجاعة و الفروسية ما لا يوصف حتّى إنّ بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل، و ما زال الأمراء على ذلك حتّى انتصف نهار الأحد، صعد قطلو شاه الجبل و قد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلا، و جرح الكثير و اشتدّ عطشهم، و اتّفق أنّ بعض من كان أسره التتار هرب و نزل إلى السلطان، و عرّفه أنّ التتار قد أجمعوا على النزول فى السّحر لمصادمة العساكر السلطانية، و أنّهم فى شدّة من العطش،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۳

فاقتضى الرأى أن يفرج لهم عند نزولهم و يركب الجيش أقفيتهم. فلمّا باتوا على ذلك و أصبحوا نهار الاثنين ركب التتار فى الرابعة من النهار و نزلوا من الجبل فلم يتعرّض لهم أحد و ساروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلك ركبهم بلاء اللّه من المسلمين و أيّدهم اللّه تعالى بنصره حتى حصدوا رءوس التتار عن أبدانهم و وضعوا فيهم السيف و مرّوا فى أثرهم قتلا و أسرا إلى وقت العصر. و عادوا إنى السلطان و عرّفوه بهذا النصر العظيم، فكتبت البشائر فى البطائق، و سرّحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غزة.

و كتب إلى غزّة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، و تتبع من نهب الخزائن السلطانية و الاحتفاظ بمن يمسك منهم، و عيّن السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتّاح للمسير بالبشارة إلى مصر.

ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار، و بات السلطان ليلته و أصبح يوم الثلاثاء و قد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها فى عالم

عظيم من الفرسان و الأعيان و العامّة و النساء و الصبيان لا يحصيهم إلّا اللّه تعالى، و هم يضجّون بالدعاء و الهناء و الشكر للّه سبحانه و تعالى على هذه المنّة! و تساقطت عبرات الناس فرحا و دقت البشائر بسائر الممالك، و كان هذا اليوم يوما لم يشاهد مثله. و سار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق، و قد زيّنت المدينة، و استمرّت الأمراء و بقيت العساكر فى طلب التتار إلى القريتين، و قد كلّت خيول التتار و ضعفت نفوسهم و ألقوا أسلحتهم و استسلموا للقتل، و العساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة و الغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا و غنموا عدّة غنائم، و قتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها؛ ثم أدركت عربان البلاد التتار و أخذوا فى كيدهم كأنّهم يهدونهم إلى طريق قريبة مفازة، فيوصّلونهم إلى البريّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۴

و تركوهم بها فماتوا عطشا، و منهم من دار بهم و أوصلوهم إلى غوطة دمشق، فخرجت إليهم عامّة دمشق فقتلوا منهم خلقا كثيرا. ثم تتبّعت الحكّام النّهبة و عاقبوا منهم جماعة كثيرة حتّى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن و لم يفقد منه إلّا القليل. ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم، ثم حضر الأمير برلغى و قد كان انهزم فيمن انهزم، فلم يأذن له السلطان فى الدخول عليه، و قال: بأىّ وجه تدخل علىّ أو تنظر فى وجهى! فما زال به الأمراء حتى رضى عنه. ثم قبض على رجل من أمراء حلب كان قد انتمى إلى التتار و صار يدلّهم على الطّرقات، فسمّر على جمل و شهّر بدمشق و ضواحيها، و استمرّ الناس فى شهر رمضان كلّه فى مسرّات تتجدد، ثم صلّى السلطان صلاة عيد الفطر و خرج فى ثالث شوّال من دمشق يريد الديار المصريّة.

و أمّا التتار فإنّه لمّا قتل أكثرهم و دخل قطلو شاه الفرات فى قليل من أصحابه و وصل خبر كسرته إلى همذان، و وقعت الصّرخات فى بلادهم، و خرج أهل تبريز و غيرها إلى لقائهم و استعلام خبر من فقد منهم حتّى علموا ذلك، فقامت النّياحة فى مدينة تبريز شهرين على القتلى.

ثم بلغ الخبر غازان فاغتمّ غمّا عظيما و خرج من منخريه دم كثير حتّى أشفى على الموت و احتجب عن حواشيه، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كلّ عشرة واحد! ممن كان انتخبهم من خيار جيشه. ثم بعد ذلك بمدّة جلس قازان و أوقف قطلو شاه مقدّم عساكره و جوبان و سوتاى و من كان معهم من الأمراء، و أنكر على قطلو شاه و أمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه و أبعده من قدّامه حتى صار على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۵

مسافة بعيدة بحيث يراه، و قام إليه، [و قد مسكه الحجاب] و سائر من حضروهم خلق كثير جدّا، و صار كلّ منهم يبصق فى وجهه حتى بصق الجميع! ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاى عدّة عصىّ و أهانه. و فى الجملة فإنّه حصل على غازان بهذه الكسرة من القهر و الهمّ ما لا مزيد عليه، و للّه الحمد.

و سار السلطان الملك الناصر بعساكره و أمرائه حتى وصل إلى القاهرة، و دخلها فى يوم ثالث عشرين شوّال حسب ما يأتى ذكره. و كان نائب الغيبة رسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة؛ و كتب بإحضار سائر مغانى العرب بأعمال الديار المصرية كلّها، و تفاخر الناس فى الزينة و نصبوا القلاع، و اقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، و زيّنوا ما يخصّ كلّ واحد منهم و عملوا به قلعة بحيث نودى من استعمل صانعا فى غير صنعة القلاع كانت عليه جناية السلطان، و تحسّن سعر الخشب و القصب و آلات النّجارة، و تفاخروا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۶

فى تزيين القلاع المذكورة، و أقبل أهل الرّيف إلى القاهرة للفرجة على قدوم السلطان و على الزينة، فإنّ الناس كانوا أخرجوا الحلىّ و الجواهر و اللآلئ و أنواع الحرير فزيّنوا بها، و لم ينسلخ شهر رمضان حتّى تهيّأ أمر القلاع؛ و عمل ناصر الدين محمد ابن الشّيخىّ والى القاهرة قلعة بباب النصر فيها سائر أنواع الجدّ و الهزل و نصب عدّة أحواض ملأها بالسّكّر و اللّيمون و أوقف مماليكه بشربات حتّى

يسقوا العسكر.

قلت: لو فعل هذا فى زماننا والى القاهرة لكان حصل عليه الإنكار بسبب إضاعة المال، و قيل له: لم لا حملت إلينا ما صرفته؟ فإنّه كان أنفع و خيرا من هذا الفشار، و إنما كانت نفوس أولئك غنيّة و هممهم عليّة، و ما كان جلّ قصدهم إلا إظهار النّعمة و التفاخر فى الحشم و الأسمطة و الإنعامات حتى يشاع عنهم ذلك و يذكر إلى الأبد، فرحم اللّه تلك الأيام و أهلها!.

و قدم السلطان إلى القاهرة فى يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوّال، و قد خرج الناس إلى لقائه و للفرجة عليه، و بلغ كراء البيت الذى يمرّ عليه السلطان من خمسين درهما إلى مائة درهم، فلمّا وصل السلطان إلى باب النصر ترجّل الأمراء كلّهم، و أوّل من ترجّل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح و أخذ يحمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكبر سنّه و يحمل السلاح خلفه فامتنع و مشى، و حمل الأمير مبارز الدين سوار الرومى أمير شكار القبة، و الطير على رأس السلطان، و حمل الأمير بكتمر أمير جاندار العصا، و الأمير سنجر [الجمقدار] الدّبّوس؛ و مشى كلّ أمير فى منزلته و فرش كلّ منهم الشّقق من قلعته إلى قلعة غيره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۷

التى أنشئوها بالشوارع. و كان السلطان إذا تجاوز قلعة فرشت القلعة المجاورة لها الشّقق، حتّى يمشى عليها بفرسه مشيا هيّنا من غير هرج بسكون و وقار لأجل مشى الأمراء بين يديه. و كان السلطان كلّما رأى قلعة أمير أمسك عن المشى و وقف حتّى يعاينها و يعرف ما اشتملت عليه هو و الأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك.

هذا و الأمراء من التتار بين يديه مقيّدون و رءوس من قتل منهم معلّقة فى رقابهم، و ألف رأس على ألف رمح، و عدّة الأسرى ألف و ستمائة، و فى أعناقهم أيضا ألف و ستمائة رأس، و طبولهم قدّامهم مخرّقة. و كانت القلاع التى نصبت أوّلها قلعة الأمير ناصر الدين ابن الشّيخى والى القاهرة بباب النصر، و يليها قلعة الأمير علاء الدين مغلطاى أمير مجلس، و يليها قلعة ابن أيتمش السّعدىّ، ثم يليها قلعة الأمير سنجر الجاولى، و بعده قلعة الأمير طغريل الإيغانىّ ثم قلعة بهادر اليوسفىّ، ثم قلعة سودى، ثم قلعة بيليك الخطيرى، ثم قلعة برلغى، ثم قلعة مبارز الدين أمير شكار، ثم قلعة أيبك الخازندار، ثم قلعة سنقر الأعسر، ثم قلعة بيبرس الدّوادار، ثم قلعة سنقر الكاملىّ، ثم قلعة موسى ابن الملك الصالح، ثم قلعة الأمير آل ملك، ثم قلعة علم الدين الصوابى، ثم قلعة الأمير جمال الدين الطّشلاقىّ، ثم قلعة الأمير [سيف الدين] آدم، ثم قلعة الأمير سلّار [النائب]، ثم قلعة الأمير بيبرس الجاشنكير، ثم قلعة بكتاش أمير سلاح، ثم قلعة الطّواشى مرشد الخازندار، و كانت قلعته على باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۸

المدرسة المنصوريّة،، ثم بعده قلعة بكتمر أمير جاندار، ثم قلعة أيبك البغدادىّ نائب الغيبة، ثم قلعة ابن أمير سلاح، ثم قلعة بكتوت الفتّاح، ثم قلعة تاكز الطغريلىّ، ثم قلعة قلّى السلاح دار، ثم قلعة لاچين زيرباج الجاشنكير، ثم قلعة طيبرس الخازندارى نقيب الجيش، ثم قلعة بلبان طرنا، ثم قلعة سنقر العلانى، ثم قلعة بهاء الدين يعقوبا، ثم قلعة الأبوبكرى، ثم قلعة بهادر المعزى، ثم قلعة كوكاى، ثم قلعة قرا لاچين، ثم قلعة كراى المنصورىّ، ثم قلعة جمال الدين آقوش قتال السبع، و قلعته كانت على باب زويلة؛ و كان عدّتها سبعين قلعة. و عند ما وصل السلطان إلى باب البيمارستان المنصورى بين القصرين نزل و دخل و زار قبر والده الملك المنصور قلاوون و قرأ القرّاء أمامه، ثم ركب إلى باب زويلة و وقف حتّى أركب الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، ثم سار السلطان على شقق الحرير إلى داخل قلعة الجبل. هذا و التهانى فى دور السلطان و الأمراء و غيرهم قد امتلأت منهم البيوت و الشوارع بحيث إنّ الرجل كان لا يسمع كلام من هو بجانبه إلا بعد جهد، و كان يوما عظيما عظم فيه سرور الناس قاطبة لا سيّما أهل مصر، فإنّهم فرحوا بالنصر و أيضا بسلامة سلطانهم الملك الناصر محمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۶۹

و أقام الملك الناصر بالديار المصريّة إلى سنة ثلاث و سبعمائة ورد عليه الخبر بموت غازان بمدينة الرّىّ و قام بعده أخوه خربندا بن

أرغون بن أبغا بن هولاكو فى ثالث عشر شوال و جلس خربندا على تخت الملك فى ثالث عشر ذى الحجّة و تلقّب غياث الدين محمدا، و كتب إلى السلطان بجلوسه و طلب الصلح و إخماد الفتنة.

ثم فى السنة استأذن الأمير سلّار نائب السلطنة فى الحجّ فأذن له، فحجّ كما حجّ الأمير بيبرس الجاشنكير فى السنة الماضية سنة اثنتين و سبعمائة إلّا أنّ سلّار صنع من المعروف فى هذه السنة و الإحسان إلى أهل مكّة و المجاورين و غيرهم و عاد، ثم حجّ الأمير بيبرس الجاشنكير ثانيا فى سنة أربع و سبعمائة. و ورد الخبر على السلطان الملك الناصر بقدوم رجل من بلاد التتار إلى دمشق يقال له الشيخ براق فى تاسع جمادى الأولى و معه جماعة من الفقراء نحو المائة لهم هيئة عجيبة، على رأسهم كلاوت لباد مقصّص بعمائم فوقها، و فيها قرون من لباد يشبه قرون الجواميس، و فيها أجراس، و لحاهم محلّقة دون شواربهم، و لبسهم لبابيد بيض، و قد تقلّدوا بحبال منظومة بكعاب البقر، و كلّ منهم مكسور الثّنيّة العليا، و شيخهم من أبناء الأربعين سنة، و فيه إقدام و جرأة و قوّة نفس و له صولة، و معه طبلخاناه تدقّ له نوبة، و له محتسب على جماعته، يؤدّب كلّ من يترك شيئا من سنّته، يضرب عشرين عصاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۰

تحت رجليه، و هو و من معه ملازمون التعبّد و الصلاة، و إنه قيل له عن زيّه، فقال:

أردت أن أكون مسخرة الفقراء. و ذكر أنّ غازان لما بلغه خبره استدعاه و ألقى عليه سبعا ضاريا فركب على ظهر السّبع و مشى به فجلّ فى عين قازان و نثر عليه عشرة آلاف دينار، و أنّه عند ما قدم دمشق كان النائب بالميدان الأخضر فدخل عليه، و كان هناك نعامة قد تفاقم ضررها و شرّها و لم يقدر أحد على الدنوّ منها، فأمر النائب بإرسالها عليه فتوجّهت نحوه، فوثب عليها و ركبها فطارت به فى الميدان قدر خمسين ذراعا فى الهواء حتّى دنا من النائب، و قال له: أطير بها إلى فوق شيئا آخر؟ فقال له النائب: لا، و أنعم عليه و هاداه الناس، فكتب السلطان بمنعه من القدوم إلى الديار المصريّة، فسار إلى القدس ثم رجع إلى بلاده. و فى فقرائه يقول سراج الدين عمر الورّاق من موشّحة طويلة أوّلها:

[جتنا عجم من جوّ الروم] صور تحير فيها الأفكار

لها قرون مثل الثّيران إبليس يصيح منهم زنهار

و قد ترجمنا براق هذا فى تاريخنا المنهل الصافى بأوسع من هذا. انتهى.

ثم إنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع و سبعمائة ضجر من الحجر عليه من تحكّم الأميرين سلّار و بيبرس الجاشنكير و منعه من التصرّف و ضيق يده، و شكا ذلك لخاصّته، و استدعى الأمير بكتمر الجوكندار و هو أمير جاندار يوم ذاك فى خفية و أعلمه بما عزم عليه من القيام على الأميرين سلّار و بيبرس، فقرّر معه بكتمر أنّ القلعة إذا أغلقت فى اللّيل و حملت مفاتيحها إلى السلطان على العادة لبست مماليك السلطان السلاح و ركبت الخيول من الإسطبل و سارت إلى إسطبلات الأمراء، و دقّت كوسات السلطان بالقلعة حربيّا ليجتمع المماليك تحت القلعة بمن هو فى طاعة السلطان، قال بكتمر: و أنا أهجم على بيتى سلّار و بيبرس بالقلعة أيضا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۱

قلت: أعنى أنّ بكتمر كان سكنه بالقلعة، فيهجم هو أيضا على بيتى سلّار و بيبرس بالقلعة أيضا، و يأخذهما قبضا باليد.

و كان لكلّ من بيبرس و سلّار أعين عند السلطان، فبلّغوهما ذلك فاحترزا على أنفسهما، و أمرا الأمير [سيف الدين] بلبان الدّمشقىّ والى القلعة، و كان خصيصا بهما، أن يوهم أنّه أغلق باب القلعة و يطرّف أقفالها و يعبر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك. و ظنّ السلطان و مماليكه أنّهم قد حصلوا على غرضهم، و انتظروا بكتمر الجوكندار أن يحضر إليهم فلم يحضر، فبعثوا إليه فإذا هو مع بيبرس و سلّار و قد حلف لهما على القيام معهما. فلمّا طلع النهار ظنّ السلطان أنّ بكتمر قد غدر به و ترقّب المكروه من الأمراء و ليس الأمر كذلك، و ما هو إلّا أنّ سلّار و بيبرس لمّا بلغهما الخبر خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة، و عزم بيبرس أن يهجم على بكتمر و يقتله

فمنعه سلّار لما كان عنده من التثبّت و التّؤدة، و أشار بالإرسال إليه و يحضره حتّى تبطل حركة السلطان؛ فلمّا أتى بكتمر الرسول تحيّر فى أمره و قصد الامتناع، و ألبس مماليكه السلاح و منعهم و خرج إليهم، فعنّفه سلّار و لامه على ما قصد فأنكر و حلف لهم على أنّه معهم، و أقام عندهم إلى الصباح و دخل مع الأمراء إلى الخدمة عند الأمير سلّار النائب، و وقف ألزام سلّار و بيبرس على خيولهم بباب الإسطبل مترقّبين خروج المماليك السلطانية، و لم يدخل أحد من الأمراء إلى خدمة السلطان و تشاوروا، و قد أشيع فى القاهرة أنّ الأمراء يريدون قتل السلطان الملك الناصر أو إخراجه إلى الكرك، فعزّ عليهم ذلك لمحبّتهم له، فلم تفتح الأسواق، و خرج العامّة و الأجناد إلى تحت القلعة، و بقى الأمراء نهارهم مجتمعين و بعثوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۲

بالاحتراس على السلطان خوفا من نزوله من باب السّر، و ألبسوا عدّة مماليك و أوقفوهم مع الأمير سيف الدين سمك أخى سلّار على باب الإسطبل. فلمّا كان نصف الليل وقع بداخل الإسطبل حسّ و حركة من قيام المماليك السلطانية و لبسهم السلاح لينزلوا بالسلطان على حميّة من الإسطبل و توقّعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك، و أراد الأمير سمك إقامة الحرمة فرمى بالنّشّاب و دقّ الطّبل فوقع سهم من النّشّاب بالرّفرف السّلطانىّ، و استمرّ الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول: ما سبب هذا الركوب على باب إسطبلى؟ إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلّع إليه، فخذوه و ابعثونى أىّ. وضع أردتم! فردّوا إليه الجواب مع الأمير بيبرس الدّوادار و الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار و الأمير برلغى الأشرفى بأنّ السبب هو من عند السلطان و من المماليك الذين يحرّضونه على الأمراء، فأنكر أن يكون أحد من مماليكه ذكر له شيئا عن الأمراء؛ و فى عود الجواب من عند السلطان وقعت صيحة بالقلعة سببها أنّ العامة كان جمعهم قد كثر، و كان عادتهم أنّهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من المماليك، بل إن كان و لا بدّ يكون الذى يلى الملك من بنى قلاوون. و كانوا مع ذلك شديدى المحبّة للملك الناصر محمد بن قلاوون.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۳

فلمّا رأوا العامة أنّ الملك الناصر قد وقف بالرّفرف من القلعة، و حواشى بيبرس و سلّار قد وقفوا على باب الإسطبل محاصرينه، حنقوا من ذلك و حملوا و صرخوا يدا واحدة على الأمراء بباب الإسطبل، و هم يقولون: يا ناصر يا منصور! فأراد سمك قتالهم، فمنعه من كان معه من الأمراء و خوّفه الكسرة من العوامّ، فتقهقروا عن باب الإسطبل السلطانىّ وسطا عليهم العامّة و أفحشوا فى حقّهم. و بلغ ذلك بيبرس و سلّار فأركبا الأمير بتخاص المنصورىّ فى عدّة مماليك فنزلوا إلى العامة ينحّونهم و يضربونهم بالدبابيس ليتفرّقوا فاشتدّ صياحهم: يا ناصر يا منصور! و تكاثر جمعهم و صاروا يدعون للسلطان، و يقولون: اللّه يخون الخائن، اللّه يخون من يخون ابن قلاوون! ثم حمل طائفة منهم على بتخاص و رجمه طائفة أخرى، فجرّد السيف ليضعه فيهم فخشى تكاثرهم عليه، فأخذ يلاطفهم، و قال لهم: طيّبوا خاطركم، فإنّ السلطان قد طاب خاطره على أمرائه، و ما زال يحلف لهم حتّى تفرّقوا؛ و عاد بتخاص إلى سلّار و بيبرس و عرّفهم شدّة تعصّب العامّة للسلطان؛ فبعث الأمراء عند ذلك ثانيا إلى السلطان بأنّهم مماليكه و فى طاعته، و لا بدّ من إخراج الشباب الذين يرمون الفتنة بين السلطان و الأمراء، فامتنع السلطان من ذلك و اشتدّ، فما زال به بيبرس الدّوادار و برلغى حتّى أخرج منهم جماعة و هم: يلبغا التّركمانىّ، و أيدمر المرقبى، و خاصّ ترك؛ فهدّدهم بيبرس و سلّار و وبّخاهم و قصد سلّار أن يقيّدهم، فلم توافق الأمراء على ذلك رعاية لخاطر السلطان؛ فأخرجوا إلى القدس من وقتهم على البريد. و دخل جميع الأمراء على السلطان و قبّلوا الأرض ثم قبّلوا يده فخلع على الأمير بيبرس و سلّار، ثم سأل الأمراء السلطان أن يركب فى أمرائه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۴

إلى الجبل الأحمر حتّى تطمئنّ قلوب العامّة عليه و يعلموا أنّ الفتنة قد خمدت، فأجاب لذلك. و بات ليلته فى قلق زائد و كرب عظيم لإخراج مماليكه المذكورين إلى القدس.

ثم ركب بالأمراء من الغد إلى قبّة النّصر تحت الجبل الأحمر، و عاد بعد ما قال لبيبرس و سلار: إنّ سبب الفتنة إنما كان من بكتمر

الجوكندار، و ذلك أنه رآه قد ركب بجانب الأمير بيبرس الجاشنكير و حادثه فتذكّر غدره به فشقّ عليه ذلك فتلطّفوا به فى أمره؛ فقال و اللّه ما بقيت لى عين تنظر إليه، و متى أقام فى مصر لا جلست على كرسى الملك أبدا فأخرج من وقته إلى قلعة الصّبيبة، و استقرّ عوضه أمير جاندار الأمير بدر الدين بكتوب الفتاح. فلمّا مات سنقر شاه بعد ذلك استقرّ بكتمر الجوكندار فى نيابة صفد عوضه فنقل إليها من الصّبيبة. و اجتاز السلطان بخانقاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۵

الأمير بيبرس الجاشنكير داخل باب النصر فرآها فى ممرّه، و كان قد نجز العمل منها فى هذه الأيام، و طلع السلطان إلى القلعة و سكن الحال، و الأمراء فى حصر من جهة العامّة من تعصّبهم للسلطان، و السلطان فى حصر بسبب حجر الأمراء عليه و إخراج مماليكه من عنده. و استمرّ ذلك إلى أن كان العاشر من جمادى الآخرة من سنة ثمان و سبعمائة عدّى السلطان الجيزة و أقام حول الأهرام يتصيّد عشرين يوما، و عاد و قد ضاق صدره و صار فى غاية الحصر من تحكّم بيبرس الجاشنكير و سلّار عليه، و عدم تصرّفه فى الدولة من كلّ ما يريد، حتّى إنّه لا يصل إلى ما تشتهى نفسه من المأكل لقلة المرتّب له! فلو لا ما كان يتحصّل له من أملاكه و أوقاف أبيه لما وجد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه، و طال الأمر عليه سنين، فأخذ فى عمل مصلحة نفسه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۶

و أظهر أنّه يريد الحجّ بعياله، و حدّث بيبرس و سلّار فى ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه، و أعجب البرجيّة خشداشية بيبرس سفره لينالوا أغراضهم و شرعوا فى تجهيزه، و كتب إلى دمشق و الكرك و غزّة برمى الإقامات، و ألزم عرب الشرقية بحمل الشّعير، فتهيّأ ذلك، و أحضر الأمراء تقادمهم له من الخيل و الجمال فى العشرين من شهر رمضان فقبلها منهم و شكرهم على ذلك. و ركب فى خامس عشرين شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحجّ، و نزل من القلعة و معه جميع الأمراء، و خرج العامّة حوله و حاذوا بينه و بين الأمراء، و هم يتباكون حوله و يتأسّفون على فراقه و يدعون له إلى أن نزل بركة الحجّاج. و تعيّن للسفر مع السلطان من الأمراء:

عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، و سيف الدين آل ملك الجوكندار، و حسام الدين قرا لاچين أمير مجلس، و سيف الدين بلبان [المحمدىّ] أمير جاندار، و عزّ الدين أيبك الرومى السّلاح دار، و ركن الدين بيبرس الأحمدىّ، و علم الدين سنجر الجمقدار، و سيف الدين تقطاى الساقى، و شمس الدين سنقر السّعدىّ النقيب؛ و من المماليك خمسة و سبعون نفرا. و ودّعه سلّار و بيبرس بمن معهم من الأمراء، و هم على خيولهم من غير أن يترجّلوا له و عاد الأمراء، فرحل السلطان من ليلته و خرج إلى جهة الصالحيّة و تصيّد بها، ثم سار إلى الكرك و معه من الخيل مائة و خمسون فرسا، فوصل إلى الكرك فى يوم الأحد عاشر شوّال بمن معه من الأمراء و مماليكه. و احتفل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك بقدومه و قام له بما يليق به، و زيّن له القلعة و المدينة، و فتح له باب السّرّ من قلعة الكرك و مدّ الجسر على الخندق، و كان له مدّة سنين لم يمدّ و قد ساس خشبه لطول مكثه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۷

فلمّا عبرت الدوابّ عليه و أتى السلطان فى آخرهم انكسر الجسر تحت رجلى فرس السلطان بعد ما تعدّى يدا الفرس الجسر، فكاد فرس السلطان أن يسقط لو لا أنهم جبدوا عنان الفرس حتّى خرج من الجسر و هو سالم، و سقط الأمير بلبان طرنا أمير جاندار و جماعة كثيرة، و لم يمت منهم سوى رجل واحد و سقط أكثر خاصّكيّة السلطان فى الخندق و سلموا كلّهم إلا اثنين، و هم: الحاج عزّ الدين أزدمر رأس نوبة الجمداريّة انقطع نخاعه و بطل نصفه و عاش كذلك لسنة ستّ عشرة و سبعمائة، و الآخر مات لوقته.

قال ابن كثير فى تاريخه: و لما توسط السلطان الجسر انكسر فسلم من كان قدّامه و قفز به فرسه فسلم، و سقط من كان وراءه و كانوا خمسين فمات أربعة و تهشّم أكثرهم فى الوادى تحته. انتهى.

و قال غيره: لمّا انقطعت سلسلة الجسر و تمزق الخشب صرخ السلطان على فرسه و كان قد نزلت رجله فى الخشب فوثب الفرس إلى

داخل الباب، و وقع كلّ من كان على الجسر و كانوا أكثر من مائة مملوك، فوقعوا فى الخندق فمات منهم سبعة و انهشم منهم خلق كثير و ضاق صدر السلطان، فقيل له: هذه شدّة يأتى من بعدها فرج!.

و لمّا جلس السلطان بقلعة الكرك و وقف نائبها الأمير آقوش خجلا و جلا خائفا أن يتوهّم السلطان أن يكون ذلك مكيدة منه فى حقّه، و كان النائب المذكور قد عمل ضيافة عظيمة للسلطان غرم عليها جملة مستكثرة، فلم تقع الموقع لاشتغال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۸

السلطان بهمّه و بما جرى على مماليكه و خاصّ كيته. ثم إنّ السلطان سأل الأمير آقوش عن الجسر المذكور فقال: ما سبب انقطاعه؟ فقال آقوش بعد أن قبّل الأرض: أيّد اللّه مولانا السلطان، هذا الجسر عتيق و ثقل بالرجال فما حمل، فقال السلطان: صدقت، ثم خلع عليه و أمره بالانصراف. و عند ما استقرّ السلطان بقلعة الكرك عرّف الأمراء أنّه قد انثنى عزمه عن الحجّ، و اختار الإقامة بالكرك و ترك السلطنة، و خلع نفسه ليستريح خاطره.

و قال ابن كثير: لمّا جرى على السلطان ما جرى و استقرّ فى قلعة الكرك خلع على النائب، و أذن له فى التوجّه إلى مصر فسافر.

و قال صاحب النّزهة: لمّا بات السلطان تلك اللّيلة فى القلعة و أصبح طلب نائب الكرك و قال له: يا جمال الدّين، سافر إلى مصر و اجتمع بخشداشيتك فباس الأرض، و قال: السمع و الطاعة، ثم إنّه خرج فى تلك الساعة بمماليكه و كلّ من يلوذ به. ثم بعد ثلاثة أيام نادى السلطان بالقلعة و الكرك لا يبقى هنا أحد لا كبير و لا صغير حتّى يخرج فيجيب ثلاثة أحجار من خارج البلد، فخرج كلّ من بالقلعة و البلد.

ثم إنّ السلطان أغلق باب الكرك و رجعت الناس و معهم الأحجار فرأوا الباب مغلقا فقيل لهم: كلّ من له أولاد أو حريم يخرج إليه و لا يبقى أحد بالكرك، فخرج الناس بمتاعهم و أولادهم و أموالهم، و ما أمسى المساء و فقى فى الكرك أحد من أهلها غيره و مماليكه. ثم طلب مملوكه أرغون الدّوادار و قال له: سر إلى عقبة أيّلة و أحضر بيتى و أولادى، فسار إليهم أرغون و أقدمهم عليه. و وجد الملك الناصر من الأموال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۷۹

بالكرك سبعة و عشرين ألف دينار عينا، و ألف ألف درهم و سبعمائة ألف درهم.

ثم إنّ السلطان طلب الأمراء الذين قدموا معه و عرفهم أنّه اختار الإقامة بالكرك كما كان أوّلا، و أنه ترك السلطنة فشقّ عليهم ذلك و بكوا و قبلوا الأرض يتضرّعون إليه فى ترك هذا الخاطر و كشفوا رءوسهم فلم يقبل و لا رجع إلى قولهم. ثم استدعى القاضى علاء الدين على بن أحمد بن سعيد بن الأثير كاتب السرّ، و كان قد توجّه معه، و أمره أن يكتب للأمراء بالسلام عليهم، و يعرّفهم أنّه قد رجع عن الحجّ و أقام بالكرك و نزل عن السلطنة، و سألهم الإنعام عليه بالكرك و الشّوبك؛ و أعطى الكتب للأمراء و أمرهم بالعودة إلى الديار المصريّة، و أعطاهم الهجن التى كانت معه برسم الحجّ، و عدّتها خمسمائة هجين و الجمال و المال الذى قدّمه له الأمراء برسم التّقدمة قبل خروجه من القاهرة، فساروا الجميع إلى القاهرة.

و أمّا إخراج السلطان أهل قلعة الكرك منها لأنّه قال: أنا أعلم كيف باعوا الملك السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس بالمال لطرنطاى! فلا يجاورونني، فخرج كلّ من كان فيها بأموالهم و حريمهم من غير أن يتعرّض إليهم أحد البتّة.

و أمّا النائب آقوش فإنّه أخذ حريمه و سافر إلى مصر بعد أن قدّم ما كان له من الغلال إلى السلطان، و هو شىء كثير، فقبله السلطان منه. فلمّا قدم آقوش إلى مصر قال له سلّار و بيبرس: من أمرك بتمكين السلطان من الطلوع إلى القلعة؟

(يعنى قلعة الكرك) فقال: كتابكم وصل إلىّ يأمرنى بأن أنزل إليه و أطلعه إلى القلعة، فقال: و أين الكتاب؟ فأخرجه، فقالا: هذا غير الكتاب الذى كتبناه فاطلبوا ألطنبغا، فطلبوه فوجدوه قد هرب إلى الكرك عند السلطان فسكتوا عنه. انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۰

و أمّا الكتاب الذى كتبه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى بيبرس و سلّار مضمونه، بسم اللّه الرحمن الرحيم:

حرس اللّه تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين الغازيين المجاهدين، وفّقهما اللّه تعالى توفيق العارفين! أمّا بعد فقد طلعت إلى قلعة الكرك و هى من بعض قلاعى و ملكى، و قد عوّلت على الإقامة فيها، فإن كنتم مماليكى و مماليك أبى فأطيعوا نائبى (يعنى نائبه سلّار) و لا تخالفوه فى أمر من الأمور، و لا تعملوا شيئا حتّى تشاورونى فأنا ما أريد لكم إلّا الخير، و ما طلعت إلى هذا المكان إلّا لأنّه أروح لى و أقلّ كلفة، و إن كنتم ما تسمعون منى فأنا متوكّل على اللّه و السلام.

فلمّا وصل الكتاب إلى الأمراء قرءوه و تشاوروا ساعة، ثم قاموا من باب القلعة و ذهبوا إلى دار بيبرس و اتفقوا على أن يرسلوا إلى الملك الناصر كتابا، فكتبوه و أرسلوه مع البروانىّ على البريد، فسار البروانىّ إلى أن وصل إلى الكرك و اجتمع بالملك الناصر و قبّل الأرض بين يديه و ناوله الكتاب، فأعطاه الملك الناصر لأرغون الدّوادار، فقرأه فتبسّم السلطان و قال: لا إله إلّا اللّه! و كان فى الكتاب: ما علمنا ما عوّلت عليه، و طلوعك إلى قلعة الكرك و إخراج أهلها و تشييعك نائبها، [و هذا أمل بعيد] فخلّ عنك شغل الصّبىّ، و قم و احضر إلينا و إلّا بعد ذلك تطلب الحضور و لا يصحّ لك، و تندم و لا ينفعك النّدم، فياليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك و ما عوّلت عليه، غير أنّ لكلّ ملك انصرام، و لانقضاء الدولة أحكام، و لحلول الأقدار سهام؛ و لأجل هذا أمرك غيّك بالتطويل، و حسّن لك زخرف الأقاويل؛ فاللّه اللّه حال وقوفك على هذا الكتاب، يكون الجواب حضورك بنفسك و معك مماليكك، و إلا تعلم أنّا ما نخلّيك فى الكرك، [و لو كثر شاكروك] و يخرج الملك من يدك؛ و السلام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨١

فقال الملك الناصر: لا إله إلا اللّه، كيف أظهروا ما فى صدورهم! ثم أمر بإحضار آلة الملك مثل العصائب و السناجق و الكوسات [و الهجن] و كلّ ما كان معه من آلة الملك و سلّمها إلى البروانىّ، و قال له: قل لسلّار ما أخذت لكم شيئا من بيت المال، و هذا الذى أخذته قد سيرته لكم، و انظروا فى حالكم فأنا ما بقيت أعمل سلطانا، و أنتم على هذه الصورة! فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج اللّه تعالى إمّا بالموت و إمّا بغيره. فأخذ البروانىّ الكتاب و جميع ما أعطاه السلطان و سار إلى أن وصل إلى الديار المصريّة؛ و دفع الكتاب لسلّار و بيبرس، فلما قرأا الكتاب قالا: و لو كان هذا الصبىّ يجىء ما بقى يفلح و لا يصلح للسلطنة، و أىّ وقت عاد إلى السلطنة لا نأمن غدره. فلمّا سمعت الأمراء ذلك اجتمعت على سلطنة الأمير سلّار، فخاف سلّار من ذلك و خشى العاقبة فامتنع، فاختار الأمراء ركن الدين بيبرس الجاشنكير و أكثرهم البرجية فإنّهم خشداشيته. و بويع له بعد أن أثبت كتاب الملك الناصر محمد بن قلاوون على القضاة بالديار المصريّة بأنّه خلع نفسه، و كانت البيعة لبيبرس فى الثالث و العشرين من شوّال من سنة ثمان و سبعمائة فى يوم السبت بعد العصر فى دار سلّار. يأتى ذكر ذلك كلّه فى أوّل ترجمة بيبرس، إن شاء اللّه تعالى. و كانت مدّة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى هذه المرّة الثانية عشر سنين و خمسة أشهر و تسعة عشر يوما.

و تأتى بقيّة ترجمته فى سلطنته الثالثة، بعد أن نذكر سلطنة بيبرس و أيّامه، كما نذكر أيّام الملك الناصر هذا قبل ترجمة بيبرس المذكور على عادة هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى. و الحمد للّه وحده.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٢

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، على أن الملك المنصور لاچين كان حكم منها مائة يوم.

فيها كان قتل الملك المنصور حسام الدين لاچين المذكور و مملوكه منكوتمر حسب ما تقدّم.

و فيها فى العشر الأوسط من المحرّم ظهر كوكب ذو ذؤابة فى السماء ما بين أواخر برج الثّور إلى أوّل برج الجوزاء، و كانت ذؤابته إلى ناحية الشمال، و كان فى العشر الأخير من كانون الثانى و هو شهر طوبة.

و فيها توفّى القاضى نظام الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبد السلام الحصيرىّ الحنفىّ فى

يوم الخميس ثامن المحرّم و دفن يوم الجمعة بمقابر الصوفيّة عند والده، و كان إماما عالما بارعا ذكيّا و له ذهن جيّد و عبارة طلقة مفيدة، و درّس بالنّورية و غيرها و أفتى سنين و أقرأ، و ناب فى الحكم بدمشق عن قاضى القضاة حسام الدين الحنفيّ و حسنت سيرته رحمه اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۳

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الموصلىّ [المنصورىّ] نائب طرابلس و الفتوحات الطرابلسيّة فى أوّل صفر مسموما. و كان من أجلّ الأمراء و له مواقف مشهورة.

و فيها توفّى قتيلا الأمير سيف الدين طغجى بن عبد اللّه الأشرفىّ. أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون. و قتل أيضا الأمير سيف الدين كرجى.

و الأمير نوغاى الكرمونى السلاح دار، و هؤلاء الذين قتلوا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين و مملوكه منكوتمر، ثم قتلوا بعده بثلاثة أيام حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه فى آخر ترجمة الملك المنصور لاچين مفصّلا، و قتل معهم تمام اثنى عشر نفرا من الأمراء و الخاصّكيّة ممّن تألّبوا على قتل لاچين.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بدر [الحبشىّ] الصّوابىّ [الخادم] فى ليلة الخميس تاسع جمادى الأولى بقرية الخيارة، كان خرج إليها فمرض بها و مات، و قيل بل مات فجأة و هو الأصحّ فحمل منها إلى جبل قاسيون، و دفن بتربته التى أعدّها لنفسه.

و كان أميرا مباركا صالحا ديّنا خيّرا. قال عزّ الدين بن عبد الدائم: أقام أمير مائة و مقدّم ألف أكثر من أربعين سنة، و ولى إمرة الحاجّ بدمشق غير مرّة. رحمه اللّه.

و فيها توفّى العلّامة حجّة العرب الإمام الأستاذ بهاء الدين أبو عبد اللّه محمد ابن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبىّ النحوىّ المعروف بابن النحّاس، مات بالقاهرة فى يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى و أخرج من الغد، و دفن بالقرافة بالقرب من تربة الملك المنصور لاچين، و مولده فى سنة سبع و عشرين و ستمائة بحلب، و كان إماما عالما علّامة بارعا فى العربيّة، نادرة عصره فى فنون كثيرة. و له نظم و نثر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۴

قال العلّامة أثير الدين أبو حيّان: قال حدّثنا الشيخ بهاء الدين ابن النحاس قال: اجتمعت أنا و الشّهاب مسعود السنبلىّ و الضياء المناوىّ فأنشد كلّ منا له بيتين، فكان الذى أنشده السّنبلى فى مليح مكارى:

علقته مكاريا شرّد عن عينى الكرى

قد أشبه البدر فلا يملّ من طول السّرى

و أنشد المناوىّ فى مليح اسمه جمرىّ:

أفدى الذى يكبت بدر الدّجى لحسنه الباهر من عبده

سمّوه جمريّا و ما أنصفوا ما فيه جمرىّ سوى خدّه

و أنشد الشيخ بهاء الدين هذا فى مليح مشروط:

قلت لما شرطوه و جرى دمه القانى على الوجه اليقين

غير بدع ما أتوا فى فعلهم هو بدر ستروه بالشّفق

قلت: و نظم الثلاثة نظم متوسّط ليس بالطبقة العليا. و أحسن من الأوّل قول من قال:

أفدى مكاريّا تراه إذا سعى كالبرق ينتهب العيون و يخطف

أخذ الكرا منّى و أحرمنى الكرى بينى و بينك يا مكارى الموقف

و أحسن من الأخير قول من قال، و هو نجم الدين عبد المجيد بن محمد التّنوخىّ:

أنظر إليه و سلّ قل بك عن محبته لعلّك

ملك الفؤاد بغير شر ط حسنه و الشّرط أملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٥

غيره فى المعنى:

شرّطوه فبكى من ألم فغدا ما بين دمع و دم

ناثرا من ذا و من ذا لؤلؤا و عقيقا ليس بالمنتظم

و فيها توفّى الصاحب تقىّ الدين أبو البقاء [الربعىّ] توبة بن علىّ بن مهاجر بن شجاع بن توبة التّكريتىّ [المعروف بالبيع] فى ليلة الخميس ثامن جمادى الآخرة و دفن بقاسيون. و كان رئيسا فاضلا ولى الوزر بدمشق لخمسة سلاطين: أوّلهم المنصور قلاوون، ثانيهم ابنه الأشرف خليل، ثم لأخيه الناصر محمد، ثم للعادل كتبغا، ثم للمنصور لاچين. انتهى. و كان مولده سنة عشرين و ستمائة.

و فيها فى أوّل ذى القعدة و قيل فى شوّال توفّى بالقاهرة الأمير الكبير بدر الدين بيسرى بن عبد اللّه الشّمسىّ الصالحىّ النّجمىّ بالسّجن بقلعة الجبل، و دفن بتربته بالقاهرة. كان أميرا جليلا معظّما فى الدّول؛ كان الظاهر بيبرس يقول: هذا ابن سلطاننا فى بلادنا! و عرضت عليه السلطنة لما قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون فامتنع، و كانت قد عرضت عليه قبل ذلك بعد الملك السّعيد بن الظاهر فلم يقبل، و هو آخر من بقى من أكابر مماليك الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و ترقّى حتى صار أمير مائة و مقدّم ألف، و عظم فى الدّول حتّى قبض عليه خشداشه المنصور قلاوون و حبسه تسع سنين إلى أن أطلقه ابنه الأشرف خليل و أعاده إلى رتبته، فاستمر إلى أن قبض عليه المنصور لاچين و حبسه إلى أن قتل لاچين، و أعيد الناصر محمد بن قلاوون فكلّموه فى إطلاقه فأبى إلا حبسه إلى أن مات فى الحبّ. و كانت له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٦

دار عظيمة ببين القصرين و قد تغيّرت رسومها الآن. و كان عالى الهمّة كثير الصدقات و المعروف، كان عليه فى أيام إمرته رواتب لجماعة من مماليكه و حواشيه و خدمه، فكان يرتّب لبعضهم فى اليوم من اللّحم سبعين رطلا و ما تحتاج إليه من التّوابل و سبعين عليقة، و لأقلّهم خمسة أرطال و خمس علائق و ما بين ذلك، و كان ما يحتاج إليه فى كلّ يوم لسماطه و لدوره و المرتّب عليه ثلاثة آلاف رطل لحم و ثلاثة آلاف عليقة فى كلّ يوم؛ و كانت صدقته على الفقير ما فوق الخمسمائة و لا يعطى أقلّ من ذلك، و كان إنعامه ألف اردبّ غلّة و ألف قنطار عسل و ألف دينار و أشياء يطول شرحها.

و فى الجملة أنّه كان من أعظم أمراء مصر بلا مدافعة. (و بيسرى: اسم مركب من لفظتين: تركية و عجمية) و صوابه فى الكتابة (پاى سرى) فپاى فى اللغة التركية بالتفخيم هو السعيد، و سرى بالعجمى الرأس، فمعنى الاسم سعيد الرأس.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٨٧

قلت: و كان سعيد الرأس كما قيل. و هذا بخلاف مذهب النّجاة فإنّ هذا الاسم عين المسمّى. انتهى.

و فيها توفّى الأستاذ جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد اللّه المستعصمىّ الرّومىّ الطّواشىّ صاحب الخطّ البديع الذى شاع ذكره شرقا و غربا، كان خصيصا عند أستاذه الخليفة المستعصم باللّه العبّاسىّ آخر خلفاء بنى العبّاس ببغداد، ربّاه و أدّبه و تعهّده حتّى برع فى الأدب، و نظم و نثر و انتهت إليه الرياسة فى الخط المنسوب.

و قد سمّى بهذا الاسم جماعة كثيرة قد ذكر غالبهم فى هذا التاريخ، منهم كتّاب و غير كتّاب، و هم: ياقوت أبو الدرّ [الكاتب مولى أبى المعالى أحمد بن على بن النجار] التاجر الرومى، وفاته بدمشق سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة. و ياقوت الصّقلبىّ الجمالى أبو الحسن مولى الخليفة المسترشد العباسىّ، وفاته سنة ثلاث و ستين و خمسمائة.

و ياقوت أبو سعيد مولى أبى عبد اللّه عيسى بن هبة اللّه بن النّقّاش، وفاته سنة أربع و سبعين و خمسمائة. و ياقوت [بن عبد اللّه] الموصلى الكاتب أمين الدين المعروف بالملكى نسبة إلى أستاذه السلطان ملكشاه السّلجوقىّ، و ياقوت هذا أيضا ممن انتشر خطّه فى الآفاق، و وفاته بالموصل سنة ثمانى عشرة و ستمائة. و ياقوت [بن عبد اللّه] الحموىّ الرومى شهاب الدين أبو الدرّ كان من خدّام بعض التّجّار ببغداد يعرف بعسكر الحموىّ، و ياقوت هذا هو صاحب التصانيف و الخط أيضا، و وفاته سنة ستّ و عشرين و ستمائة. و ياقوت [بن عبد اللّه] مهذّب الدّين الرّومى مولى أبى منصور التاجر الجيلىّ، و ياقوت هذا كان شاعرا ماهرا و هو صاحب القصيدة التى أوّلها:

إن غاض دمعك و الأحباب قد بانوا فكلّ ما تدّعى زور و بهتان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۸

و وفاته سنة اثنتين و عشرين و ستمائة. فهؤلاء الذين تقدّموا ياقوت المستعصمىّ صاحب الترجمة بالوفاة، و كلّ منهم له ترجمة و فضيلة و خطّ و شعر. و قد تقدّم ذكر غالبهم فى هذا الكتاب، و إنما ذكرناهم هنا جملة لكون جماعات كثيرة من الناس مهما رأوه من الخطوط و التصانيف يقرءوه لياقوت المستعصمىّ، و ليس الأمر كذلك بل فيهم من رجّح خطّه ابن خلّكان على ياقوت هذا.

قلت: و قد خرجنا عن المقصود لكثرة الفائدة و لنعد إلى بقية ترجمة ياقوت المستعصمىّ. فمن شعره قوله:

تجدّد الشمس شوقى كلّما طلعت إلى محيّاك يا سمعى و يا بصرى

و أسهر اللّيل ذا أنس بوحشته إذ طيب ذكرك فى ظلمائه سمرى

و كلّ يوم مضى [لى] لا أراك به فلست محتسبا ماضيه من عمرى

ليلى نهارى إذا ما درت فى خلدى لأنّ ذكرك نور القلب و البصر

و له أيضا:

صدّقتم فىّ الوشاة و قد مضى فى حبّكم عمرى و فى تكذيبها

و زعمتم أنّى مللت حديثكم من ذا يملّ من الحياة و طيبها

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى السلطان الملك المنصور حسام الدين لاچين المنصورىّ. و من الغد قتل نائبه منكوتمر. ثم قتلوا الأميرين كرجى و طغجى الأشرفيّين. و أحضر السلطان الملك الناصر و عاد إلى السلطنة.

و فيها توفى الإمام جمال الدين محمد بن سليمان بن النقيب الحنفىّ صاحب التفسير بالقدس فى المحرّم. و العلّامة بهاء الدين محمد [بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم] أبو عبد اللّه الحلبىّ ابن النحاس فى جمادى الأولى. و الصاحب تقىّ الدّين توبة بن علىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۸۹

[ابن مهاجر] التّكريتىّ فى جمادى الآخرة. و الزاهد الملقّن علىّ بن محمد [بن علىّ] ابن بقاء الصالحىّ فى شوّال. و المسند ناصر الدين عمر بن عبد المنعم بن عمر [ابن عبد اللّه بن غدير] بن القوّاس فى ذى القعدة. و صاحب حماة الملك المظفر تقى الدين محمود ابن المنصور محمد [بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه]. و الملك الأوحد يوسف ابن الملك الناصر داود بن المعظّم عيسى. و العماد عبد الحافظ بن بدران بن شبل النابلسىّ فى ذى الحجّة، و قد قارب التسعين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۹۹]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة تسع و تسعين و ستمائة.

فيها كانت وقعة السلطان الملك الناصر محمد المذكور مع قازان على حمص.

و قد تقدّم ذكرها.

و فيها توفى القاضى علاء الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن خلف بن محمود [بن علىّ] ابن بدر العلامىّ المعروف بابن بنت الأعزّ. كان لطيف العبارة جميل الصورة لطيف المزاج، تولّى حسبة القاهرة و نظر الأجباس، و درّس بعدّة مدارس و حجّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۸؛ ص۱۸۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۰

و دخل اليمن ثم عاد إلى القاهرة و مات بها فى شهر ربيع الآخر، و كان له نظم و نثر.

و من شعره قصيدة أوّلها:

إن أومض البرق فى ليل بذى سلم فإنّه ثغر سلمى لاح فى الظّلم

و فيها توفّى الشيخ المسند المعمّر شرف الدين أحمد بن هبة اللّه ابن تاج الأمناء أحمد بن محمد [بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسين] بن عساكر بدمشق، و بها دفن بمقابر الصوفيّة بتربة الشيخ فخر الدين بن عساكر، و كان من بقايا المسندين تفرّد سماعا و إجازة.

ذكر من عدم فى هذه السنة فى وقعة حمص مع التّتار

قاضى القضاة حسام الدّين الحنفىّ. و الشيخ عماد الدين إسماعيل ابن تاج الدين [أحمد بن سعيد] بن الأثير الكاتب. و الأمير جمال الدين المطروحى. و الأمير سيف الدين كرت. و الأمير ركن الدين الجمالى نائب غزّة، و لم يظهر للجميع خبر، غير أنّهم ذكروا أن قاضى القضاة حسام الدين المذكور أسروه التتار و باعوه للفرنج، و وصل قبرص و صار بها حكيما، و داوى صاحب قبرص من مرض مخيف فشفى فأوعده أن بطلقه، فمرض القاضى حسام الدين المذكور و مات. كذا حكى بعض أجناد الإسكندرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۱

و فيها توفى الشيخ الصالح الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج بن أحمد بن اللّخمىّ الإشبيلى بدمشق، و دفن بمقابر الصوفية، و كان حافظا ديّنا خيّرا زاهدا متورّعا، عرض عليه جهات كثيرة فأعرض عنها، و هو صاحب القصيدة المشتملة على صفات الحديث:

غرامى صحيح و الرّجا فيك معضل و حزنى و دمعى مرسل و مسلسل

و صبرى عنكم يشهد العقل أنّه ضعيف و متروك و ذلّى أجمل

فلا حسن إلا سماع حديثكم مشافهة تملى علىّ فأنقل

و أمرى موقوف عليك و ليس لى على أحد إلّا عليك المعوّل

و لو كان مرفوعا إليك لكنت لى على رغم عذّالى ترقّ و تعدل

و عذل عذول منكر لا أسيغه و زور و تدليس يردّ و يهمل

أقضّى زمانى فيك متّصل الأسى و منقطعا عمّا به أتوصّل

و هأنا فى أكفان هجرك مدرج تكلّفنى ما لا أطيق فأحمل

و هى أطول من ذلك.

و فيها توفّى قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة محيى الدين يحيى ابن محمد بن علىّ بن الزكىّ فى يوم الأحد

حادى عشر ذى الحجّة. و كان من أعيان الدمشقيين، و درّس بعدّة مدارس و انتفع به الناس. رحمه اللّه.

و فيها توفى الشيخ الإمام العالم مفتى المسلمين القاضى شمس الدين محمد ابن الشيخ الإمام العلّامة شيخ المواهب قاضى القضاة صدر الدين أبى الربيع سليمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۲

ابن أبى العزّ وهيب الحنفى الدّمشقى فى يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة بالمدرسة النورية بدمشق، و دفن بتربة والده بقاسيون، و كان فقيها عالما مفتيا بصيرا بالأحكام متصدّيا للفتوى و التدريس، أفتى مدّة أربع و ثلاثين سنة و قرأ عليه جماعة كثيرة و انتفع الناس به، و كان نائبا فى القضاء عن والده و سئل بالمناصب الجليلة فامتنع من قبولها. رحمه اللّه.

قلت: و بنو العز بيت كبير بدمشق مشهورون بالعلم و الرياسة.

و فيها توفّى صاحب الأندلس أمير المسلمين أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر ملك الأندلس و ما ولاها بعد موت والده سنة إحدى و سبعين و ستمائة، و امتدت أيامه و قوى سلطانه، و مات فى عشر الثمانين رحمه اللّه تعالى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: فيها توفّى الإمام شمس الدين محمد بن عبد القوىّ المقدسىّ النحوىّ. و عماد الدين يوسف بن أبى نصر الشقارىّ، و قاضى القضاة إمام الدين عمر بن عبد الرحمن القزوينىّ بمصرفى ربيع الآخر.

و عبد الدائم بن أحمد المحجّى [القبّانى] الوزّان. و على بن أحمد بن عبد الدائم و أخوه عمر. و أحمد بن زيد [بن أبى الفضل الصالحى الفقير المعروف] بالجمّال:

و شرف الدين أبو الفضل أحمد بن هبة اللّه بن أحمد بن عساكر فى جمادى الأولى.

و عيسى بن بركة بن والى. و محمد بن أحمد بن نوال الرصافى. و على بن مطر المحجّى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۳

البقّال. و صفيّة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفرّاء، و ابن عمها إبراهيم بن أبى الحسن [بن عمرو بن موسى أبو إسحاق الفرّاء]. و أحمد بن محمد الحدّاد. و خديجة بنت [التّقىّ محمد بن محمود بن عبد المنعم] المراتبىّ. و الحافظ شهاب الدين أحمد بن فرج اللّخمىّ الإشبيلىّ فى جمادى الآخرة. و أبو العبّاس أحمد بن سليمان بن أحمد المقدسىّ الحرّانى.

و الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد الحقّ. و الخطيب موفّق الدين محمد بن محمد [المعروف ب] ابن حبيش فى جمادى الآخرة بدمشق. و المعمّرة زينب بنت عمر ابن كندى ببعلبكّ. و الأمير علم الدين [سنجر البرنلى] الدّوادارى فى رجب بحصن الأكراد. و المؤيّد علىّ بن إبراهيم بن يحيى ابن خطيب عقرباء. و شمس الدين محمد ابن على بن أحمد بن فضل الواسطىّ فى رجب، و له أربع و ثمانون سنة. و العلّامة نجم الدين أحمد بن مكّى فى جمادى الآخرة. و الإمام شمس الدين محمد بن سلمان بن حمائل سبط غانم. و الشيخ بدر الدين حسن بن على بن يوسف بن هود المرسىّ فى رجب.

و الإمام شمس الدين محمد ابن الفخر عبد الرحمن بن يوسف البعلبكّىّ فى رمضان.

و الشريف شمس الدين محمد بن هاشم بن عبد القاهر العباسىّ العدل فى رمضان،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۴

و له أربع و تسعون سنة. و الشيخ بهاء الدين أيّوب بن أبى بكر [بن إبراهيم بن هبة اللّه أبو صابر] بن النحاس مدرس القليجيّة فى شوّال. و المفتى جمال الدين عبد الرحيم بن عمر الباجربقى. و العدل بهاء الدين محمد بن يوسف البرزالىّ عن اثنتين و ستين سنة. و الأديب جمال الدين عمر بن إبراهيم بن العقيمىّ الرّسعنىّ، و له أربع و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع وعدة أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ أصابع، و كان الوفاء ثالث عشر توت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۰]

السنة الثالثة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة سبعمائة من الهجرة.

فيها توفّى الأمير سيف الدّين بلبان الطّبّاخىّ بالعسكر المنصور على الساحل، و كان من أعيان الأمراء و أحشمهم و أشجعهم و أكثرهم عدّة و مماليك و حاشية.

و ولى نيابة حلب قبل ذلك بمدّة، ثم ولى الفتوحات بالساحل و دام عليها سنين.

و كان جميل السّيرة و الطريقة و له المواقف المشهورة و النّكاية فى العدوّ. رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأديب البارع شهاب الدين أبو جلنك الحلبىّ الشاعر المشهور صاحب النوادر الظّريفة، كان بارعا ماهرا و فيه همّة و شجاعة. و لما كانت وقعة التّتار فى هذه السنة نزل أبو جلنك المذكور من قلعة حلب لقتال التّتار، و كان ضخما

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۵

سمينا فوقع عن فرسه من سهم أصاب الفرس فبقى راجلا، فأسروه و أحضروه بين يدى مقدّم التتار، فسأله عن عسكر المسلمين، فرفع شأنهم فغضب مقدّم التتار، عليه اللعنة، من ذلك فضرب عنقه. رحمه اللّه تعالى. و من شعر أبى جلنك المذكور قوله:

و شادن يصفع مغرى به براحة أندى من الوابل

فصحت فى الناس ألا فاعجبوا بحر غدا يلطم فى الساحل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدىّ رحمه اللّه: و كان أبو جلنك قد مدح قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلّكان فوقّع له برطلى خبز، فكتب أبو جلنك على بستانه:

للّه بستان حللنا دوحه كجّنة قد فتّحت أبوابها

و البان تحسبه سنانيرا رأت قاضى القضاة فنفّشت أذنابها

قلت: لعل الصلاح الصّفدىّ و هم فى ابن خلّكان، و الصواب أنّ القصّة كانت مع قاضى القضاة كمال الدين بن الزّملكانىّ. انتهى.

و من شعر أبى جلنك فى أقطع.

و بى أقطع ما زال يسخو بماله و من جوده ما ردّ فى الناس سائل

تناهت يداه فاستطال عطاؤها و عند التّناهى يقصر المتطاول

قلت: و وقع فى هذا المعنى عدّة مقاطيع جيّدة فى كتابى المسمى ب «حلية الصفات فى الأسماء و الصناعات» فمن ذلك:

أفديه أقطع يشدو ساروا و لا ودّعونى

ما أنصفوا أهل ودى واصلتهم قطعونى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۶

و لشمس الدين بن الصائغ الحنفىّ:

و أقطع قلت له هل أنت لصّ أوحد

فقال هذى صنعة لم يبق لى فيها يد

و فى المعنى هجو:

تجنّب كلّ أقطع فهو لصّ يريد لك الخيانة كلّ ساعه

و ما قطعوه بعد الوصل لكن أرادوا كفّه عن ذى الصّناعه

غيره فى المعنى:

من يكن فى الأصل لصّا لم يكن قطّ أمينا

فثقوا منه برهن أو خذوا منه يمينا

و فيها توفّى الشيخ الصالح المسند عزّ الدين أبو الفدى إسماعيل بن عبد الرحمن ابن عمر بن موسى بن عميرة المعروف بابن الفرّاء المرداوىّ ثم الصالحىّ الحنبلىّ، مولده سنة عشر و ستّمائة و سمع الكثير و حدّث، و خرّج له الحافظ شمس الدين الذّهبىّ مشيخة، و كان ديّنا خيّرا و له نظم. من ذلك قوله:

أين من عهد آدم و إلى الآ ن ملوك و سادة و صدور

مزّقتهم أيدى الحوادث و استو لت عليهم رحى المنون تدور

و له فى المعنى و قيل هما لغيره:

ثم انقضت تلك السّنون و أهلها فكأنّها و كأنّهم أحلام

و كذاك من يأتى و حقّك بعدهم أمضاه ربّ قادر علّام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۷

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى عزّ الدين أحمد ابن العماد عبد الحميد بن عبد الهادى فى المحرّم، و له ثمان و ثمانون سنة. و عماد الدين أحمد [بن محمد] بن سعد المقدسىّ و له ثلاث و ثمانون سنة. و عز الدين إسماعيل ابن عبد الرحمن بن عمر الفرّاء فى جمادى الآخرة، و له تسعون سنة. و أبو على يوسف ابن أحمد بن أبى بكر الغسولىّ فى الشهر، و له نحو من تسعين سنة. و الحافظ شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبى بكر البخارىّ الفرضىّ بماردين فى ربيع الأوّل، و له ستّ و خمسون سنة. و شمس الدين أبو القاسم الخضر بن عبد الرحمن [بن الخضر بن الحسين ابن الخضر بن الحسين] بن عبد اللّه بن عبدان الأزدىّ فى ذى الحجة. و المقرئ شمس الدين محمد بن منصور الحاضرىّ فى صفر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم و الحديث (أعنى مجموع النيل) فى هذه السنة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۱]

السنة الرابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة إحدى و سبعمائة.

فيها فى ثالث عشر من شهر ربيع الأوّل سافر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إلى الإسكندريّة و صحبته جماعة كثيرة من الأمراء بسبب الصّيد، و رسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۱۹۸

له السلطان أنّ مدّة مقامه بالإسكندريّة يكون دخلها له، ثم أعطى السلطان لجميع الأمراء دستورا لمن أراد السفر لإقطاعه لعمل مصالح بلاده، و كان إذ ذاك يربّعون خيولهم شهرا واحدا لأجل العدوّ المخذول.

و فيها توفّى مسند العصر شهاب الدين أحمد بن رفيع الدّين إسحاق بن محمد بن المؤيّد الأبرقوهىّ بمكّة فى العشرين من ذى الحجّة. و مولده سنة خمس عشرة و ستمائة بابرقوه من أعمال شيراز، و كان سمع الكثير و حدّث و طال عمره و تفرّد بأشياء.

و فيها توفّى الحافظ شرف الدين أبو الحسين على ابن الإمام أبى عبد اللّه محمد بن أبى الحسين أحمد بن عبد اللّه بن عيسى بن أحمد بن محمد اليونينىّ فى يوم الخميس حادى عشر شهر رمضان ببعلبكّ. و مولده فى حادى عشر شهر رجب سنة إحدى و عشرين و ستمائة ببعلبك.

و فيها توفّى الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه المعروف بأرجواش المنصورىّ نائب قلعة دمشق فى ليلة السبت ثانى عشرين ذى الحجّة و كان شجاعا. و هو الذى حفظ قلعة دمشق فى نوبة غازان و أظهر من الشجاعة ما لا يوصف على تغفّل كان فيه؛ حسب ما

قدّمنا من ذكره فى أصل ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون ما فعله و كيف كان حفظه لقلعة دمشق. و أمّا أمر التّغفّل الذى كان به:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ١٩٩

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك فى تاريخه: حكى لى عنه عبد الغنى الفقير المعروف قال: لمّا مات الملك المنصور قلاوون (أعنى أستاذه) قال لى:

أحضر لى مقرئين يقرءون ختمة للسلطان، فأحضرت إليه جماعة فجعلوا يقرءون على العادة، فأحضر دبوسا و قال: كيف تقرءون للسلطان هذه القراءة! تقرءون عاليا، فضجّوا بالقراءة جهدهم، فلمّا فرغوا منها، قلت: يا خوند فرغت الختمة، فقال: يقرءون أخرى فقرءوها و قفزوا ما أرادوا، فلمّا فرغوا أعلمته، قال ويلك! السماء ثلاثة، و الأرض ثلاثة، و الأيام ثلاثة، و المعادن ثلاثة، و كل ما فى الدنيا ثلاثة، يقرءون أخرى! فقلت: اقرءوها و احمدوا اللّه تعالى على أنّه ما علم أن هذه الأشياء سبعة سبعة، فلمّا فرغوا [من] الثلاثة و قد هلكوا من صراخهم، قال:

دعهم عندك فى التّرسيم إلى بكرة، و رح اكتب عليهم حجّة بالقسامة الشريفة باللّه تعالى، و بنعمة السلطان أنّ ثواب هذه الختمات لمولانا السلطان الملك المنصور قلاوون؛ ففعلت ذلك و جئت إليه بالحجّة، فقال: هذا جيّد، أصلح اللّه أبدانكم و صرف لهم أجرتهم. و حكى عنه عدّة حكايات من هذا تدلّ على تغفّل كبير.

قلت: و يلحق أرجواش هذا بعقلاء المجانين فإنّ تدبيره فى أمر قلعة دمشق و قيامه فى قتال غازان له المنتهى فى الشجاعة و حسن التدبير. انتهى.

و فيها توفّى شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير فى سابع عشر ذى القعدة بدمشق، و كان رئيسا فاضلا كاتبا، كتب الإنشاء بدمشق سنين.

و فيها توفّى الشريف نجم الدين أبو نمىّ محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٠٠

ابن محمد بن موسى بن عبد اللّه المحض بن موسى [بن عبد اللّه] بن الحسن بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب الحسنىّ المكىّ صاحب مكّة المشرّفة فى يوم الأحد رابع صفر بعد أن أقام فى إمرة مكّة أربعين سنة، و قدم القاهرة مرارا، و كان يقال لو لا أنّه زيدىّ لصلح للخلافة لحسن صفاته.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاث أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٠٢]

السنة الخامسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة اثنتين و سبعمائة.

فيها فى أوّل المحرّم قدم الأمير بيبرس الجاشنكير من الحجاز و معه الشريفان حميضة و رميثة فى الحديد فسجنا بقلعة الجبل.

و فيها فى رابع جمادى الآخرة ظهر بالنيل دابّة كلون الجاموس بغير شعر، و أذناها كأذن الجمل، و عيناها و فرجها مثل الناقة، و يغطّى فرجها ذنب طوله شبر و نصف،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٠١

طرفه كذنب السّمك، و رقبتها مثل ثخن التّلّيس المحشوّ تبنا، و فمها و شفتاها مثل الكربال، و لها أربع أنياب [اثنتان فوق اثنتين] فى طول نحو شبر و عرض إصبعين، و فى فمها ثمانية و أربعون ضرسا و سنّا مثل بيادق الشّطرنج، و طول يدها من باطنها شبران و نصف،

و من ركبتها إلى حافرها مثل أظافير الجمل، و عرض ظهرها قدر ذراعين و نصف، و من فمها إلى ذنبها خمس عشرة قدما، و فى بطنها ثلاث كروش، و لحمها أحمر له ذفرة السّمك، و طعمه مثل لحم الجمل، و ثخانة جلدها أربع أصابع، لا تعمل فيه السّيوف؛ و حمل جلدها على خمسة جمال فى مقدار ساعة من ثقله، و كان ينقل من جمل إلى جمل و قد حشى تبنا حتّى وصل إلى قلعة الجبل.

و فيها كان بمصر و القاهرة زلزلة عظيمة أخربت عدّة منائر و مبان كثيرة من الجوامع و البيوت حتّى أقامت الأمراء و مباشرو الأوقاف مدّة طويلة ترمّ و تجدّد ما تشعّث فيها من المدارس و الجوامع حتّى منارة الإسكندريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۲

و فيها أبطل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عيد الشهيد بمصر، و هو أنّ النصارى كان عندهم تابوت فيه اصبع يزعمون أنّها من أصابع بعض شهدائهم، و أنّ النيل لا يزيد ما لم يرم فيه هذا التابوت، فكان يجتمع النصارى من سائر النواحى إلى شبرا، و يقع هناك أمور يطول الشرح فى ذكرها، حتى إنّ بعض النصارى باع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۳

فى أيّام هذا العيد باثنى عشر ألف درهم خمرا من كثرة الناس التى تتوجّه إليه للفرجة، و كان تثور فى هذا العيد فتن و تقتل خلائق. فأمر الأمير بيبرس رحمه اللّه بإبطال ذلك، و قام فى ذلك قومة عظيمة، فشقّ ذلك على النصارى، و اجتمعوا بالأقباط الذين أظهروا الإسلام، فتوجّه الجميع إلى التاج بن سعيد الدولة كاتب بيبرس، و كان خصيصا به و أوعدوا بيبرس بأموال عظيمة، و خوّفه من عدم طلوع النيل و من كسر الخراج، فلم يلتفت إلى ذلك و أبطله إلى يومنا هذا.

و فيها توفّى الشيخ كمال الدين أحمد بن أبى الفتح محمود بن أبى الوحش أسد ابن سلامة بن سليمان بن فتيان المعروف بابن العطّار، أحد كتّاب الدّرج بدمشق فى رابع عشر ذى القعدة. و مولده سنة ستّ و عشرين و ستمائة، و كان كثير التلاوة محبّا لسماع الحديث و سمع و حدّث، و كان صدرا كبيرا فاضلا و له نظم و نثر، و أقام يكتب الدّرج أربعين سنة.

و فيها توفّى الشيخ شهاب الدين أحمد ابن الشيخ القدوة برهان الدين إبراهيم ابن معضاد الجعبرىّ بالقاهرة؛ و قد تقدم ذكر وفاة والده، و دفن بزاويته خارج باب النصر من القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۴

و فيها توفّى الأمير فارس الدين ألبكى الساقى أحد مماليك الملك الظاهر بيبرس، كان من أكابر أمراء الديار المصريّة، ثم اعتقل إلى أن أفرج عنه الملك المنصور قلاوون و أنعم عليه بإمرة؛ ثم نقله إلى نيابة صفد فأقام بها عشر سنين، و فرّ مع الأمير قبجق إلى غازان و تزوّج بأخته، ثم قدم مع غازان و لحق بالسلطان، فولّاه نيابة حمص حتى مات بها فى يوم الثلاثاء ثامن ذى القعدة. و كان مليح الشكل كثير الأدب ما جلس قطّ بلا خفّ، و إذا ركب و نزل حمل جمداره شاشه، فإذا أراد الركوب لفّه مرّة واحدة بيده كيف كانت.

و فيها استشهد بوقعة شقحب الأمير عزّ الدين أيدمر العزّى نقيب المماليك السلطانيّة [فى أيّام لاچين]، و أصله من مماليك الأمير عزّ الدين أيدمر [الظاهرى] نائب الشام و كان كثير الهزل، و إليه تنسب سويقة العزّى خارج القاهرة بالقرب من جامع ألجاى اليوسفىّ.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۵

و فيها استشهد الأمير سيف الدين أيدمر الشمسى القشّاش، و كان قد ولى كشف الغربية و الشرقية جميعا و اشتدّت مهابته، و كان يعذّب أهل الفساد بأنواع قبيحة من العذاب، منها: أنّه كان يغرس خازوقا بالأرض و يجعل عوده قائما و يرفع الرّجل و يسقطه عليه! و أشياء كثيرة ذكرناها فى ترجمته فى تاريخنا المنهل الصافى، و لم يجسر أحد من الفلّاحين فى أيّامه أن يلبس مئزرا أسود و لا يركب فرسا و لا يتقلّد بسيف و لا يحمل عصا مجلّبة حتى و لا أرباب الإدراك، ثم استعفى من الولاية و لزم داره، و خرج لغزوة شقحب فى محفّة إلى وقت القتال لبس سلاحه و ركب فرسه و هو فى غاية الألم، فقيل له: أنت لا تقدر تقاتل، فقال: و اللّه لمثل هذا اليوم أنتظر، و إلّا بأىّ شىء يتخلّص القشّاش من ربّه بغير هذا! و حمل على العدوّ و قاتل حتّى قتل و رئى فيه- بعد أن مات- ستّة جراحات.

و فيها أيضا استشهد الأمير أوليا بن قرمان أحد أمراء الظاهريّة و هو ابن أخت قرمان، و كان شجاعا مقداما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۶

و فيها استشهد أيضا الأمير عزّ الدين أيبك الأستادار، و كان من كبار الأمراء المنصوريّة.

و استشهد الأمير جمال الدين آقوش الشمسى الحاجب. و الأمير سيف الدين بهادر أحد الأمراء بحماة. و الأمير صلاح الدين بن الكامل. و الأمير علاء الدين [على] ابن الجاكى. و الشيخ نجم الدين [أيّوب] الكردىّ. و الأمير شمس الدين سنقر الشمسى [الحاجب]. و الأمير شمس الدين سنقر الكافرى. و الأمير سنقر شاه أستادار بيبرس الجالق. و الأمير حسام الدين علىّ بن باخل. و الأمير لاچين الرومىّ [المنصورى] أستادار الملك المنصور قلاوون و يعرف بالحسام.

قلت: و رأيت أنا من ذريّته الصارمى إبراهيم بن الحسام. و كلّ هؤلاء استشهدوا فى نوبة غازان بشقحب بيد التتار.

و فيها توفّى الملك العادل كتبغا المنصورىّ نائب حماة بها و هو فى الكهوليّة فى ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى. و قد تقدّم ذكره فى ترجمته من هذا الكتاب عند ذكر سلطنته بالديار المصريّة، و ما وقع له حتى خلع و توجّه لنيابة صرخد، ثم نقل إلى نيابة حماة فمات بها.

و فيها توفّى قاضى القضاة تقىّ الدين محمد ابن الشيخ مجد الدين علىّ بن وهب ابن مطيع بن أبى الطاعة القشيرىّ المنفلوطىّ الفقيه المالكىّ ثم الشافعىّ المعروف بابن دقيق العيد قاضى قضاة الشافعيّة بالديار المصريّة. كان إماما عالما، كان مالكيّا ثم انتقل إلى مذهب الشافعىّ. و مولده فى عشرين شعبان سنة خمس و عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۷

و ستمائة، و مات فى يوم الجمعة حادى عشر صفر، و كان تفقّه بأبيه ثم بالشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام و غيره، و سمع من ابن المقيّر و ابن رواح و ابن عبد الدئم و غيرهم، و خرّج لنفسه تساعيات، و صار من أئمة العلماء فى مذهبى مالك و الشافعىّ مع جودة المعرفة بالأصول و النحو و الأدب، إلّا أنّه كان قهره الوسواس فى أمر المياه و النّجاسات، و له فى ذلك حكايات و وقائع عجيبة. و روى عنه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس، و قاضى القضاة علاء الدين القونوىّ، و قاضى القضاة علم الدين الإخنائى و غيرهم و كان أبو حيّان النحوىّ يطلق لسانه فى حقّ قاضى القضاة المذكور، و قد أوضحنا ذلك فى ترجمته فى المنهل الصافى باستيعاب. و من نظمه قصيدته المشهورة فى مدح النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم التى أوّلها:

يا سائرا نحو الحجاز مشمّرا اجهد فديتك فى المسير و فى السّرى

و إذا سهرت اللّيل فى طلب العلا فحذار ثم حذار من خدع الكرى

و له أيضا:

سحاب فكرى لا يزال هاميا و ليل همّى لا أراه راحلا

قد أتعبتنى همّتى و فطنتى فليتنى كنت مهينا جاهلا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا سواء، و كان الوفاء فى سابع عشرين مسرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۳]

السنة السادسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاون الثانية على مصر، و هى سنة ثلاث و سبعمائة.

فيها انتدب الأمراء لعمارة ما خرب من الجوامع بالزّلزلة فى السنة الماضية، و أنفقوا فيها مالا جزيلا.

و فيها كملت عمارة المدرسة الناصريّة ببين القصرين، و نقل الملك الناصر محمد ابن قلاوون أمّه من التّربة المجاورة للمشهد النّفيسىّ

إليها. و موضع هذه المدرسة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۰۹

الناصريّة كان دارا تعرف بدار سيف الدين بلبان الرشيدىّ فاشتراها الملك العادل زين الدين كتبغا و شرع فى بنائها مدرسة، و عمل بوّابتها من أنقاض مدينة عكّا و هى بوّابة كنيسة بها ثم خلع كتبغا، فاشتراها الملك الناصر محمد هذا على يد قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف و أتمّها و عمل لها أوقافا جليلة، من جملتها:

قيساريّة أمير علىّ بالشرابشيين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۰

و الرّبع المعروف بالدهيشة قريبا من باب زويلة، و حوانيت باب الزّهومة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۱

و الحمّام المعروفة بالفخرية بجوار المدرسة الفخرية، و عدّة أوقاف أخرى فى مصر و الشام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۲

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الحموىّ كان أصله من مماليك الملك المنصور صاحب حماة، فطلبه منه الملك الظاهر بيبرس هو و أبو خرص [علم الدين سنجر] من الملك المنصور، فسيّرهما إليه فرقّاهما ثم أمّرهما، ثم ولّى الملك الأشرف خليل أيبك هذا نيابة دمشق بعد سنجر الشجاعىّ حتّى عزله الملك العادل كتبغا بمملوكه إغزلوا العادلىّ، و ولى بعد ذلك نيابة صرخد ثم حمص و بها مات فى تاسع عشر ربيع الآخر.

و فيها توفى الأمير ركن الدين بيبرس التّلاوىّ و كان يلى شدّ دمشق، و كان فيه ظلم و عسف، و تولّى عوضه شدّ دمشق الأمير قيران [المنصورى] الدوادارى.

و فيها توفّى القاضى شمس الدين سليمان بن إبراهيم بن إسماعيل الملطىّ ثم الدّمشقىّ الحنفىّ أحد نوّاب الحكم بدمشق و مصر، كان فقيها عالما ديّنا مباركا حسن السّيرة.

و فيها توفّى القان إيل خان معزّ الدين قازان، و قيل غازان، و كلاهما يصح معناه ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى خان بن چنكز خان ببلاد قزوين فى ثانى عشر شوال و حمل إلى تربته و قبّته التى أنشأها خارج تبريز. و كان جلوسه على تخت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۳

الملك فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و أسلم فى سنة أربع و تسعين؛ و نثر الذهب و الفضّة و اللؤلؤ على رءوس الناس، و فشا الإسلام بإسلامه فى ممالك التتار، و أظهر العدل و تسمّى محمودا، و كان أجلّ ملوك المغل من بيت هولاكو، و هو صاحب الوقعات مع الملك الناصر محمد بن قلاوون و الذى ملك الشام. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أصل هذه الترجمة.

و فيها توفّى القاضى فتح الدين أبو محمد عبد اللّه ابن الصاحب عزّ الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد القيسرانىّ فى يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر بالقاهرة، و قد وزر جدّه موفّق الدين خالد للملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد، و كانت لديه فضيلة و عنى بالحديث و جمع و ألّف كتابا فى معرفة الصحابة، و كان له نظم و نثر، و خرّج لنفسه أربعين حديثا، و روى عنه الدّمياطىّ من شعره، و أخذ عنه الحافظ فتح الدين ابن سيّد الناس، و البرزالىّ و الذهبىّ.

و من شعره:

بوجه معذّبى آيات حسن فقل ما شئت فيه و لا تحاشى

و نسخة حسنه قرئت فصحّت وها خطّ الكمال على الحواشى

و فيها توفّى القاضى كمال الدين أبو الفتح موسى ابن قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن شهاب الدين محمد بن خلّكان، كان

فاضلا اشتغل فى حياة والده و درس، و كانت سيرته غير مشكورة، و هو كان أكبر الأسباب فى عزل والده، و مات فى شهر ربيع الأوّل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۴

و فيها توفّى الشريف أبو فارس عبد العزيز بن عبد الغنى بن سرور بن سلامة المنوفىّ أحد أصحاب أبى الحجّاج الأقصرىّ. مات فى ليلة الاثنين خامس عشر ذى الحجة بمصر عن مائة و عشرين سنة.

و فيها توفّى الشريف جمّاز بن شيحة [بن هاشم بن قاسم بن مهنّا] أمير المدينة النبويّة مصروفا عن ولايتها، و الأصح وفاته فى القابلة.

و فيها توفّى الإمام المحدّث تاج الدين علىّ بن أحمد بن عبد المحسن الحسينىّ الغرّافى الإسكندرانىّ فى سابع ذى الحجّة.

و فيها توفّى الأمير الوزير ناصر الدين محمد، و يقال ذبيان، الشيخىّ، تحت العقوبة فى سابع ذى القعدة.

و فيها توفّى الشريف شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن محمد الأرموىّ نقيب الأشراف فى تاسع عشر شوّال، و كان فاضلا رئيسا. و قيل وفاته فى الآتية، و هو الأقوى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عدّة أصابع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا. و كان الوفاء أوّل أيام النّسىء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۵

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۴]

السنة السابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة أربع و سبعمائة.

فيها توجّه الأمير بيبرس الجاشنكير إلى الحجاز مرّة ثانية و معه علاء الدين أيدغدى الشّهرزورىّ رسول ملك الغرب، و الأمير بيبرس المنصورىّ الدّوادار، و الأمير بهاء الدين يعقوبا و جماعة كثيرة من الأمراء، و خرج ركب الحاجّ فى عالم كثير من الناس مع الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار زوج بنت الملك الظاهر بيبرس.

و فيها ظهر فى معدن الزّمرّد قطعة زنتها مائة و خمسة و سبعون مثقالا فأخفاها الضامن ثم حملها إلى بعض الملوك، فدفع فيها مائة ألف و عشرين ألف درهم فأبى يبيعها، فأخذها الملك منه غصبا و بعث بها إلى السلطان فمات الضامن غمّا.

و فيها توفّى القاضى فتح الدين أحمد بن محمد بن سلطان القوصىّ الشافعىّ وكيل بيت المال بقوص و أحد أعيانها، كان من الرؤساء و مات بها فى حادى عشر المحرّم.

و فيها توفّى القاضى زين الدين أحمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنّا فى ليلة الخميس ثامن صفر، و كان فقيها فاضلا متديّنا وافر الحرمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۶

و فيها توفّى شمس الدين أحمد بن علىّ بن هبة اللّه بن السّديد الإسنائىّ خطيب إسنا و نائب الحكم بها و بأدفو و قوص فى شهر رجب، و كانت قد انتهت إليه رياسة الصعيد، و بنى بقوص مدرسة، و كان قوىّ النفس كثير العطاء مهابا ممدوحا يبذل فى بقاء رياسته الآلاف الكثيرة، يقال إنه بذل فى نيابة الحكم بالصعيد مائتى ألف، و صادره الأمير كراى المنصورىّ و أخذ منه مائة و ستين ألف درهم، فقدم القاهرة و مات بها.

و فيها توفّى الأمير بيبرس الموفّقى المنصورىّ أحد الأمراء بدمشق بها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الآخرة مخنوقا و هو سكران. نسأل اللّه حسن الخاتمة بمنّه و كرمه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۷

و فيها توفّى الأمير الشريف عزّ الدين جمّاز بن شيحة أمير المدينة، و قد تقدّم فى الماضية. و الأصح أنّه فى هذه السنة.

و فيها توفّى الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبى سعيد بن التّيتىّ الآمدىّ أحد الأمراء و نائب دار العدل بقلعة الجبل، كان رئيسا فاضلا.

و فيها توفّى الأمير مبارز الدين سوار الرومىّ المنصورىّ أمير شكار، و كان من أعيان الأمراء و فيه شجاعة و حشمة و رياسة، و كان معظّما فى الدول.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بهادر بن عبد اللّه المنصورىّ المعروف بسمز (أعنى سمينا) مقتولا بأيدى عرب الشام بعد أن قتل منهم مقتلة كبيرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا، و كان الوفاء رابع توت.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۵]

السنة الثامنة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة خمس و سبعمائة.

فيها قدمت هدية الملك المؤيّد هزبر الدين داود صاحب اليمن فوجدت قيمتها أقلّ من العادة؛ فكتب بالإنكار عليه و التهديد.

و فيها استسقى أهل دمشق لقلّة الغيث فسقوا بعد ذلك، و للّه الحمد.

و فيها توفّى خطيب دمشق شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزارىّ الفقيه المقرئ النحوى المحدّث الشافعى فى شوّال عن خمس و سبعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۸

و فيها توفّى الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن ابن شرف بن الخضر بن موسى الدّمياطىّ الشافعىّ أحد الأئمة الأعلام و الحفّاظ و الثقات. مولده فى سنة ثلاث عشرة و ستمائة بتونة و هى بلدة فى بحيرة تنّيس من عمل دمياط، و قيل فى سنة عشر و ستمائة، و اشتغل بدمياط و حفظ التنبيه فى الفقه، و سمع بها و بالقاهرة من الحافظ عبد العظيم المنذرىّ و أخذ عنه علم الحديث، و قرأ القرآن بالروايات، و برع فى عدّة فنون و سمع من خلائق؛ استوعبنا أسماء غالبهم فى ترجمته فى المنهل الصافى. و رحل إلى الحجاز و دمشق و حلب و حماة و بغداد، و حدّث و سمع منه خلائق مثل اليونينىّ و القونوىّ و المزّىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۱۹

و أبى حيّان و البرزالىّ و الذهبىّ و ابن سيّد الناس و خلق سواهم، و صنّف مصنّفات كثيرة ذكرنا غالبها فى المنهل الصافى، [و له كتاب فضل الخيل، و قد سمعت أنا هذا الكتاب بقراءة الحافظ قطب الدين الخيضرىّ فى أربعة مجالس آخرها فى سلخ شعبان سنة خمس و أربعين و ثمانمائة بالقاهرة فى منزل المسمع بحارة برجوان] على الشيخ الإمام العلّامة مؤرّخ الديار المصريّة تقىّ الدين أحمد [ابن علىّ بن عبد القادر] المقريزىّ بسماعه جميعه على الشيخ ناصر الدين محمد بن علىّ بن الطّبردار الحرّاوى بسماعه جميعه على الشيخ مؤلّفه الحافظ شرف الدين الدّمياطىّ صاحب الترجمة- رحمه اللّه- و كانت وفاته فجأة بالقاهرة بعد أن صلّى العصر غشى عليه فى موضعه، فحمل إلى منزله فمات من ساعته فى يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة.

و من شعره:

روينا بإسناد عن ابن مغفّل حديثا شهيرا صحّ من علّة القدح

بأنّ رسول اللّه حين مسيره لثامنة وافته من ليلة الفتح

و فيها توفّى الملك الأوحد، و قيل الزاهر، تقى الدين شادى ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شير كوه الصغير ابن الأمير ناصر الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۰

محمد ابن الملك المنصور اسد الدين شير كوه الكبير ابن شادى بن مروان الأيّوبى فى ثالث صفر و هو يوم ذاك أحد أمراء دمشق.

و فيها توفى المسند أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر الحرّانى الحنبلىّ.

مولده بحرّان سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و سمع من ابن روزبة و المؤتمن بن قميرة، و سمع بمصر من ابن الجميزىّ و غيره و تفرّد بأشياء، و كان فيه دعابة و دين، و تلا بمكّة ألف ختمة.

و فيها توفّى قاضى قضاة الشافعيّة بحلب شمس الدين محمد بن محمد بن بهرام بها فى أوّل جمادى الأولى، و كان فقيها فاضلا.

و فيها توفّى الشيخ الإمام شرف الدين أبو زكريّا يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الجذامىّ الإسكندرانى المالكىّ شيخ القراءات بها فى هذه السنة، و كان إماما عالما بالقراءات، و له مشاركة فى فنون. رحمه اللّه.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يحرّر، و زاد البحر حتى بلغ ثمانى أذرع و نصفا ثم توقّف إلى ثامن مسرى، ثم زاد حتّى أوفى فى رابع توت. و بلغ ست عشرة ذراعا و خمس عشرة إصبعا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۶]

السنة التاسعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ست و سبعمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۱

فيها وقع بين الأمراء: علم الدين سنجر البروانىّ و سيف الدين الطشلاقىّ على باب قلعة الجبل مخاصمة بحضرة الأمراء لأجل استحقاقهما فى الإقطاعات، لأنّ الطشلاقىّ نزل على إقطاع البروانىّ، و كان كل منهما فى ظلم و عسف. و البروانىّ من خواصّ بيبرس الجاشنكير، و الطشلاقىّ من ألزام سلّار لأنه خشداشه، كلاهما مملوك الملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون. و مات فى حياة والده قلاوون. فسطا الطشلاقىّ على البروانىّ و سفه عليه، فقام البروانىّ إلى بيبرس و اشتكى منه فطلبه بيبرس و عنّفه، فأساء الطشلاقىّ فى ردّ الجواب و أفحش فى حقّ البروانىّ، و قال:

أنت واحد منفىّ تجعل نفسك مثل مماليك السلطان! فاستشاط بيبرس غضبا و قام ليضرب، فجرّد الطشلاقىّ سيفه يريد ضرب بيبرس، فقامت قيامة بيبرس و أخذ سيفه ليضربه، فترامى عليه من حضر من الأمراء و أمسكوه عنه، و أخرجوا الطشلاقىّ من وجهه بعد ما كادت مماليك بيبرس و حواشيه تقتله بالسيوف، و فى الوقت طلب بيبرس الأمير سنقر الكمالىّ الحاجب و أمر بنفى الطشلاقىّ إلى دمشق، فخشى سنقر من النائب سلّار و دخل عليه و أخبره، فأرسل سلّار جماعة من أعيان الأمراء إلى بيبرس، و أمرهم بملاطفته حتى يرضى عن الطشلاقىّ و أنّ الطشلاقىّ يلزم داره، فلمّا سمع بيبرس ذلك من الذين حضروا صرخ فيهم و حلف إن بات الطشلاقىّ الليلة بالقاهرة عملت فتنة كبيرة، فعاد الحاجب و بلّغ سلّار ذلك فلم يسعه إلّا السكوت لأنّهما (أعنى بيبرس و سلّار) كانا غضبا على الملك الناصر محمد و تحقّق كلّ منهما متى وقع بينهما الخلف وجد الملك الناصر طريقا لأخذهما واحدا بعد واحد، فكان كلّ من بيبرس و سلّار يراعى الآخر و قد اقتسما مملكة مصر، و ليس للناصر معهما إلّا مجرّد الاسم فى السلطنة فقط. انتهى. و أحرج الطشلاقىّ من وقته و أمر سلّار الحاجب بتأخيره فى بلبيس حتّى يراجع بيبرس فى أمره، فعند

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۲

ما اجتمع سلّار مع بيبرس فى الخدمة السلطانية من الغد بدأ بيبرس سلّار بما كان من الطشلاقىّ فى حقّه من الإساءة، و سلّار يسكّنه و لا يسكن بل يشتدّ فأمسك سلار عن الكلام على حقد فى الباطن، و صار السلطان يريد إثارة الفتنة بينهما فلم يتمّ له ذلك. و توجّه الطشلاقى إلى الشام منفيّا.

و فيها قدم البريد على الملك الناصر من حماة بمحضر ثابت على القاضى بأن ضيعة تعرف بباربن بين جبلين فسمع للجبلين فى اللّيل قعقعة عظيمة فتسارع الناس فى الصباح إليهما، و إذا أحد الجبلين قد قطع الوادى و انتقل منه قدر نصفه إلى الجبل الآخر، و المياه فيما

بين الجبلين تجرى فى الوادى فلم يسقط من الجبل المنتقل شىء من الحجارة، و مقدار النصف المنتقل من الجبل مائة ذراع و عشر أذرع، و مسافة الوادى الذى قطعه هذا الجبل مائة ذراع، و أن قاضى حماة خرج بالشهود حتى عاين ذلك و كتب به محضرا. فكان هذا من الغرائب.

و فيها وقعت الوحشة بين بيبرس الجاشنكير و سلّار بسبب كاتب بيبرس التاج ابن سعيد الدولة، فإنّه كان أساء السيرة، و وقع بين هذا الكاتب المذكور و بين الأمير سنجر الجاولى، و كان الجاولى صديقا لسلّار إلى الغاية؛ فقام بيبرس فى نصرة كاتبه، و قام سلّار فى نصرة صاحبه الجاولى، و وقع بينهما بسبب ذلك أمور؛ و كان بيبرس من عادته أنّه يركب لسلّار عند ركوبه و ينزل عند نزوله، فمن يومئذ لم يركب معه و كادت الفتنة أن تقع بينهما، ثم استدركا أمرها خوفا من الملك الناصر و اصطلحا بعد أمور يطول شرحها؛ و تكلّما فى أمر الوزر و من يصلح لها، فعيّن سلار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۳

كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة المقدّم ذكره تقرّبا لخاطر بيبرس بذلك، فقال بيبرس: ما يرضى، فقال سلّار: دعنى و إيّاه، فقال بيبرس: دونك، و تفرّقا.

فبعث سلّار للتاج المذكور و أحضره فلمّا دخل عليه عبّس وجهه و صاح بإزعاج هاتوا خلعة الوزارة فأحضروها، و أشار إلى تاج الدولة المذكور بلبسها فتمنّع فصرخ فيه و حلف لئن لم يلبسها ضرب عنقه فخاف الإخراق به لما يعلمه من بغض سلار له فلبس التشريف، و كان ذلك يوم الخميس خامس عشر المحرّم من السنة و قبّل يد سلّار فشّ فى وجهه و وصاه؛ و خرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل إلى قاعة الصاحب بها، و بين يديه النّقباء و الحجّاب، و أخرجت له دواة الوزارة و البغلة فعلّم على الأوراق و صرّف الأمور إلى بعد العصر ثم نزل الى داره.

و هذا كلّه بعد أن أمسك بيبرس سنجر الجاولى و صادره ثم نفاه إلى دمشق على إمرة طبلخاناه، و ولّى مكانه أستادارا الأمير أيدمر الخطيرىّ صاحب الجامع ببولاق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۲۴

و فيها توفّى الصاحب شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عطاء اللّه الأذرعىّ الدمشقىّ الحنفى محتسب دمشق و وزيرها، و كان رئيسا فاضلا حسن السّيرة.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك بن عبد اللّه الطويل الخازندار المنصورىّ فى حادى عشر شهر ربيع الأوّل بدمشق، و كان ديّنا كثير البرّ و الصدقات و المعروف.

و فيها توفّى الأمير بدر الدين بكتاش بن عبد اللّه الفخرىّ الصالحىّ النجمىّ أمير سلاح. أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل إلى ملك الملك الصالح نجم الدين أيّوب، فترقّى فى الخدم حتّى صار من أكابر الأمراء، و غزا غير مرّة و عرف بالخير و علوّ الهمّة و سداد الرأى و كثرة المعروف.

و لمّا قتل الملك المنصور لاچين أجمعوا على سلطنته فامتنع و أشار بعود السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و بعدها ترك الإمرة فى حال مرضه الذى مات فيه.

رحمه اللّه تعالى.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين كاوركا المنصورىّ أحد أعيان الأمراء بالديار المصريّة.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصورىّ، و كان ولى نيابة قلعة صفد و شدّ دواوين دمشق ثم نيابة قلعتها، ثم نقل إلى نيابة حمص فمات بها، و كان مشكور السيرة.

و فيها توفّى القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه بن مجلّى العمرىّ الدمشقى أخو كاتب السرّ القاضى شرف الدين عبد الوهاب و

محيى الدين يحيى و قد جاوز سبعين سنة. و هذا أوّل بدر الدين من بنى فضل اللّه، و يأتى ذكر ثان و ثالث، و الثالث هو كاتب السر بمصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٥

و فيها توفّى الأمير فارس الدين أصلم الردّادىّ فى نصف ذى القعدة، و كان رئيسا حشيما من أعيان الدولة الناصرية.

و فيها توفّى الأمير بهاء الدين يعقوبا الشّهرزورىّ بالقاهرة فى سابع عشر ذى الحجّة، و كان أميرا حشيما شجاعا و هو من حواشى بيبرس الجاشنكير.

و فيها توفّى الطواشى عزّ الدين دينار العزيزى الخازندار الظاهرىّ فى يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأوّل، و كان ديّنا خيّرا كثير الصدقات و المعروف.

و فيها توفّى ملك الغرب أبو يعقوب يوسف [بن يعقوب] بن عبد الحقّ، وثب عليه سعادة الخصىّ أحد مواليه فى بعض حجره و قد خضّب رجليه بالحنّاء و هو مستلق على قفاه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه، و خرج فأدرك و قتل، و مات السلطان من جراحه فى آخر يوم الأربعاء سابع ذى القعدة، و أقيم بعده فى الملك أبو ثابت عامر ابن الأمير أبى عامر [عبد اللّه] ابن السلطان أبى يعقوب هذا أعنى حفيده. و كان مدّة ملكه إحدى و عشرين سنة.

و فيها توفّى الطّواشى شمس الدين صواب السّهيلى بالكرك عن مائة سنة، و كان مشكور السيرة.

و فيها توفّى الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن محمد بن على الطوسىّ الفقيه الشافعىّ بدمشق فى تاسع عشرين جمادى الأولى، و كان فقيها نحويّا مصنّفا شرح «الحاوى» فى الفقه و «مختصر ابن الحاجب» و غير ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٦

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عدّة أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع أصابع، و كان الوفاء فى رابع عشر مسرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٠٧]

السنة العاشرة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة سبع و سبعمائة.

فيها ورد الخبر عن ملك اليمن هزبر الدين داود بأمور تدلّ على عصيانه، فكتب السلطان و الخليفة بالإنذار، ثم رسم السلطان للأمراء أن يعمل كلّ أمير مركبا يقال لها: جلبة، و عمارة قياسة يقال لها: فلوة برسم حمل الأزواد و غيرها لغزو بلاد اليمن.

و فيها عمّر الأمير بيبرس الجاشنكير الخانقاه الرّكنيّة داخل باب النصر موضع دار الوزارة برحبة باب العيد من القاهرة، و وقف عليها أوقافا جليلة و مات قبل فتحها، فأغلقها الملك الناصر فى سلطنته الثالثة مدّة، ثم أمر بفتحها ففتحت.

و فيها عمّر الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم الصغير نائب دمشق جامعا بالصالحية، و بعث يسأل فى أرض يوقفها عليه فأجيب إلى ذلك.

و فيها وقع الاهتمام على سفر اليمن و عوّل الأمير سلّار أن يتوجّه إليها بنفسه خشية من السلطان الملك الناصر، و ذلك بعد أن أراد السلطان القبض عليه و على بيبرس الجاشنكير عند ما اتّفق السلطان مع بكتمر الجوكندار، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٧

فى أصل هذه الترجمة، و أيضا أنه شقّ عليه ما صار إليه بيبرس الجاشنكير من القوّة و الاستظهار عليه بكثرة خشداشيته البرجيّة، و البرجية كانت يوم ذاك مثل مماليك الأطباق الآن، و صار غالب البرجية أمراء، فاشتد شوكة بيبرس بهم بحيث إنّه أخرج الأمير سنجر الجاولى و صادره بغير اختيار سلّار، و عظمت مهابته و انبسطت يده بالتحكّم و انفرد بالركوب فى جمع عظيم، و قصد البرجية فى نوبة بكتمر الجوكندار إخراج الملك الناصر محمد إلى الكرك و سلطنة بيبرس، لو لا ما كان من منع سلّار لسياسة و تدبير كانا فيه.

فلمّا وقع ذلك كلّه خاف سلّار عواقب الأمور من السلطان و من بيبرس و تحيّل فى الخلاص من ذلك بأنه يحجّ فى جماعته، ثم يسير إلى اليمن فيملكها و يمتنع بها، ففطن بيبرس لهذا فدسّ عليه جماعة من الأمراء من أثنى عزمه عن ذلك، ثم اقتضى الرأى تأخير السفر حتى يعود جواب صاحب اليمن.

و فيها حبس الشيخ تقىّ الدين بن تيميّة بعد أمور وقعت له.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر السنانىّ بدمشق، و كان فاضلا و له شعر و خبرة بتفسير المنامات. و من شعره:

تجد النّسيم إلى الحبيب رسولا دنف حكاه رقّة و نحولا

تجرى العيون من العيون صبابة فتسيل فى إثر الغريق سيولا

و تقول من حسد له يا ليتنى: كنت اتّخذت مع الرّسول سبيلا

و فيها توفّى الأمير ركن الدين بيبرس العجمىّ الصالحى المعروف بالجالق، و (الجالق باللّغة التركيّة: اسم للفرس الحادّ المزاج الكثير اللّعب)، و كان أحد البحريّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٨

و كبير الأمراء بدمشق، و مات فى نصف جمادى الأولى بمدينة الرملة عن نحو الثمانين سنة، و كان ديّنا فيه مروءة و خير. (و جالق بفتح الجيم و بعد الألف لام مكسورة و قاف ساكنة).

و فيها توفّى الأمير الطّواشى شهاب الدين فاخر المنصورىّ مقدّم المماليك السلطانية، و كانت له سطوة و مهابة على المماليك السلطانية بحيث إنّه كان لا يستجرئ أحد منهم أن يمرّ من بين يديه كائنا من كان بحاجة أو بغير حاجة، و حيثما وقع بصره عليه أمر بضربه.

قلت: للّه درّ ذلك الزمان و أهله! ما كان أحسن تدبيرهم و أصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم و تعظيم كبيرهم! حتى ملكوا البلاد، و دانت لهم العباد، و استجلبوا خواطر الرعيّة، فنالوا الرتب السنية. و أما زماننا هذا فهو بخلاف ذلك كلّه، فالمقدّم مؤخّر و الصغير متنمّر، و القلوب متنافرة، و الشرور متظاهرة، و إن شئت تعلم صدق مقالتى حرّك تر. انتهى.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد عمر بن يعقوب بن أحمد [السعودى فى جمادى الآخرة].

[و فيها توفّى الشيخ فخر الدين عثمان] بن جوشن السّعودىّ فى يوم الأربعاء من شهر رجب، و كان رجلا صالحا معتقدا.

و فيها توفّى الصاحب تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنّا، و مولده فى تاسع شعبان سنة أربعين و ستمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٢٩

و جدّه لأمّه الوزير شرف الدين صاعد الفائزىّ. و كانت له رياسة ضخمة و فضيلة، و مات بالقاهرة فى يوم السبت خامس جمادى الآخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ستّ أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

[ما وقع من الحوادث سنة ٧٠٨]

السنة الحادية عشرة من ولاية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، و هى سنة ثمان و سبعمائة، و هى التى خلع فيها الملك الناصر المذكور من ملك مصر و أقام بالكرك و تسلطن من بعده بيبرس الجاشنكير حسب ما تقدّم ذكره.

فيها أفرج عن الملك المسعود خضر ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ من البرج بقلعة الجبل، و أسكن بدار الأمير عزّ الدين الأفرم

الكبير بمصر، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل.

و فيها كان خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة من القاهرة قاصدا الحجّ و سار إلى الكرك و خلع نفسه.

و فيها توفّى الشيخ علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبى الوحش رئيس الأطباء بالديار المصريّة و البلاد الشاميّة، و كان بارعا فى الطبّ محظوظا عند الملوك، و نالته السعادة من ذلك، حتّى إنّه لمّا مات خلّف ثلثمائة ألف دينار غير القماش و الأثاث.

و فيها توفّى الأمير عز الدين أيبك الشجاعىّ الأشقر شادّ الدواوين بالقاهرة فى المحرّم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۰

و فيها توفّى الأمير علاء الدين ألطبرس المنصورىّ والى باب القلعة و الملقّب بالمجنون المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنونة على الخليج الكبير خارج القاهرة، عمّرها للشيخ شهاب الدين العابر و لفقرائه و عقدها قبوا. و فى ذلك يقول علم الدين ابن الصاحب:

و لقد عجبت من الطبرس و صحبه و عقولهم بعقوده مفتونه

عقدوه عقدا لا يصح لأنهم عقدوا لمجنون على مجنونه

و كان ألطبرس المذكور عفيفا ديّنا غير أنه كان له أحكام قراقوشية من تسلطه على النساء و منعهنّ من الخروج إلى الأسواق و غيرها، و كان يخرج أيام الموسم إلى القرافة و ينكّل بهن فامتنعن من الخروج فى زمانه إلا لأمر مهم مثل الحمّام و غيره.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيدمر الرشيدىّ أستادار الأمير سلّار نائب السلطنة بالديار المصرية فى تاسع عشر شوال، و كان عاقلا رئيسا و له ثروة واسعة و جاه عريض.

و فيها توفّى الشيخ المعتقد عبد الغفّار [بن أحمد بن عبد المجيد بن نوح] القوصىّ القائم بخراب الكنائس بقوص و غيرها فى ليلة الجمعة سابع ذى القعدة، و كان له أتباع و مريدون و للناس فيه اعتقاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۱

و فيها توفّى ظهير الدين أبو نصر بن الرشيد بن أبى النصر السّامرىّ الدمشقى الكاتب فى حادى عشرين شهر رمضان بدمشق، و مولده سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، كان أوّلا- سامريّا ثم أسلم فى أيام الملك المنصور قلاوون، و تنقّل فى الخدم حتّى ولى نظر جيش دمشق إلى أن مات.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة مثل السنة الماضية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۷۰۹]

ذكر سلطنة الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر

السلطان الملك المظفّر ركن الدين بيبرس بن عبد اللّه المنصورىّ الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجيّة، و كان جركسىّ الجنس، و لم نعلم أحدا ملك مصر من الجراكسة قبله إن صحّ أنه كان جركسيّا. و تأمّر فى أيّام أستاذه المنصور قلاوون، و بقى على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون. و لما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل صار بيبرس هذا أستادارا إلى أن تسلطن الملك العادل زين الدين كتبغا عزله عن الأستادارية بالأمير بتخاص، و قيل: إنّه قبض على بيبرس هذا و حبسه مدّة، ثم أفرج عنه و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصريّة.

و استمرّ على ذلك حتّى قتل الملك المنصور حسام الدين لاچين فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعود الملك الناصر محمد بن

قلاوون إلى الملك. فلمّا عاد الناصر إلى ملكه تقرّر بيبرس هذا أستادارا على عادته و سلّار نائبا، فأقاما على ذلك سنين إلى أن صار هو و سلّار كفيلى الممالك الشريفة الناصرية، و الملك الناصر محمد معهما آلة فى السلطنة إلى أن ضجر الملك الناصر منهما و خرج إلى الحجّ فسار إلى الكرك و خلع نفسه من الملك. و قد ذكرنا ذلك كلّه فى ترجمة الملك الناصر محمد. فعند ذلك وقع الاتّفاق على سلطنة بيبرس هذا بعد أمور نذكرها؛ فتسلطن و جلس على تخت الملك فى يوم السبت الثالث و العشرين من شوّال من سنة ثمان و سبعمائة. و هو السلطان الحادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۳

عشر من ملوك الترك و السابع ممن مسّهم الرّقّ، و الأوّل من الجراكسة إن صحّ أنه جركسىّ الجنس، و دقّت البشائر و حضر الخليفة أبو الربيع سليمان و فوّض إليه تقليد السلطنة، و كتب له عهدا و شمله بخطّه، و كان من جملة عنوان التقليد: إنّه من سليمان و إنّه بسم اللّه الرحمن الرحيم. ثم جلس الأمير بتخاص و الأمير قلّى و الأمير لاچين الجاشنكير لاستحلاف الأمراء و العساكر، فحلفوا الجميع و كتب بذلك إلى الأقطار.

و الآن نذكر ما وعدنا بذكره من سبب سلطنة بيبرس هذا مع وجود سلار و آقوش قتّال السّبع و هما أكبر منه و أقدم و أرفع منزلة، فنقول:

لمّا خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصريّة إلى الحجّ ثم ثنى عزمه عن الحج و توجّه إلى الكرك خلع نفسه، فلمّا حضر كتابه الثانى بتركه السلطنة، و قد تقدّم ذكر ذلك فى أواخر ترجمة الناصر بأوسع من هذا، أثبت الكتاب على القضاة.

فلمّا أصبح نهار السبت الثالث و العشرين من شوّال جلس الأمير سلّار النائب بشبّاك دار النيابة بالقلعة و حضر إلى عنده الأمير بيبرس الجاشنكير هذا و سائر الأمراء و اشتوروا فيمن يلى السلطنة، فقال الأمير آقوش قتّال السّبع، و الأمير بيبرس الدّوادار، و الأمير أيبك الخازندار و هم أكابر الأمراء المنصوريّة:

ينبغى استدعاء الخليفة و القضاة و إعلامهم بما وقع، فخرج الطّلب لهم و حضروا و قرئ عليهم كتاب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و شهد عند قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف الأميران: عز الدين أيدمر الخطيرىّ و الأمير الحاج آل ملك و من كان توجّه معهم إلى الكرك فى الرسليّة بنزول الملك الناصر عن الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۴

و تركه مملكة مصر و الشام فأثبت ذلك، و أعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلّار، فقال سلّار: نعم على شرط، كلّ ما أشير به لا تخالفوه، و أحضر المصحف و حلّفهم على موافقته و ألّا يخالفوه فى شىء، فقلق البرجيّة من ذلك و لم يبق إلّا إقامتهم الفتنة، فكفّهم اللّه عن ذلك و انقضى الحلف، فعند ذلك قال الأمير سلّار: و اللّه يا أمراء، أنا ما أصلح للملك و لا يصلح له إلّا أخى هذا، و أشار إلى بيبرس الجاشنكير و نهض قائما إليه، فتسارع البرجيّة بأجمعهم: صدق الأمير سلّار و أخذوا بيد الأمير بيبرس، و أقاموه كرها و صاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه، و كان فرس النوبة عند الشباك فألبسوه تشريف السلطنة الخليفتى، و هى فرجيّة أطلس سوداء و طرحة سوداء و تقلّد بسيفين، و مشى سلّار و الأمراء بين يديه من عند سلّار من دار النيابة بالقلعة و هو راكب، و عبر من باب القلعة إلى الإيوان بالقلعة، و جلس على تخت الملك و هو يبكى بحيث يراه الناس. و ذلك فى يوم السبت المذكور، و لقّب بالملك المظفر. و قبّل الأمراء الأرض بين يديه طوعا و كرها، ثم قام إلى القصر و تفرّق الناس بعد ما ظنّوا كلّ الظنّ من وقوع الفتنة بين السّلّاريّة و البيبرسيّة. و قيل فى سلطنته وجه آخر و هو أنّه لما اشتوروا الأمراء فيمن يقوم بالملك، فاختار الأمراء سلّار لعقله و تؤدته، و اختار البرجيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۵

بيبرس؛ فلم يجب سلّار إلى ذلك و انفضّ المجلس، و خلا كلّ من أصحاب بيبرس و سلّار بصاحبه، و حسّن له القيام بالسلطنة و خوّفه

عاقبة تركها، و أنه متى ولى غيره لا يوافقوه بل يقاتلونه. و بات البرجية فى قلق خوفا من ولاية سلّار، و سعى بعضهم إلى بعض، و كانوا أكثر جمعا من أصحاب سلّار، و أعدّوا السلاح و تأهّبوا للحرب. فبلغ ذلك سلّار فخشى سوء العاقبة، و استدعى الأمراء إخوته و حفدته و من ينتمى إليه، و قرّر معهم سرا موافقته على ما يشير به، و كان مظاعا فيهم فأجابوه؛ ثم خرج فى شباك النيابة و وقع نحو ممّا حكيناه من عدم قبوله السلطنة و قبول بيبرس الجاشنكير هذا، و تسلطن حسب ما ذكرناه و تمّ أمره و اجتمع الأمراء على طاعته و دخلوا إلى الخدمة على العادة فى يوم الاثنين خامس عشرين شوّال، فأظهر بيبرس التغمّم بما صار إليه. و خلع على الأمير سلار خلعة النيابة على عادته بعد ما استعفى و طلب أن يكون من جملة الأمراء، و ألحّ فى ذلك حتى قال له الملك المظفّر بيبرس:

إن لم تكن أنت نائبا فلا أعمل أنا السلطنة أبدا، فقامت الأمراء على سلّار إلى أن قبل و لبس خلعة النيابة، ثم عيّنت الأمراء للتوجّه إلى النوّاب بالبلاد الشامية و غيرها، فتوجّه إلى نائب دمشق، و هو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير المنصورىّ، الأمير أيبك البغدادىّ و معه آخر يسمّى شادى و معهما كتاب، و أمرهما أن يذهبا إلى دمشق و يخلّفا نائبه المذكور و سائر الأمراء بدمشق، و توجّه إلى حلب الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدىّ و طيبرس الجمدار و على يليهما كتاب مثل ذلك، و توجّه إلى حماة الأمير سيف الدين بلاط الجوكندار و طيدمر الجمدار، و توجّه إلى صفد عزّ الدين أزدمر الإسماعيلىّ و بيبرس بن عبد اللّه، و توجّه إلى طرابلس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۶

عزّ الدين أيدمر اليونسى و أقطاى الجمدار. و خطب له بالقاهرة و مصر فى يوم الجمعة التاسع و العشرين من شوّال المذكور، و توجه الأمراء المذكورون إلى البلاد الشامية.

فلما قرب من سار إلى دمشق خرج النائب آقوش الأفرم و لاقاهما خارج دمشق و عاد بهما، فلما قرأ الكتاب بسلطنة بيبرس كاد أن يطير فرحا لأنه كان خشداش بيبرس، و كان أيضا جاركسىّ الجنس، و كانا يوم ذاك بين الأتراك كالغرباء، و زيّنت دمشق زينة هائلة كما زيّنت القاهرة لسلطنته. ثم أخرج كتاب السلطان بالحلف و فيه أن يحلفوا و يبعثوا لنا نسخة الأيمان، فأجاب جميع الأمراء بالسمع و الطاعة و سكت منهم أربعة أنفس و لم يتحدّثوا بشىء، و هم: بيبرس العلائىّ و بهادر آص و آقجبا الظاهرى و بكتمر الحاجب بدمشق، فقال لهم الأفرم: يا أمراء، كلّ الناس ينتظرون كلامكم فتكلّموا، فقال بهادر آص: نريد الخطّ الذى كتبه الملك الناصر بيده و فيه عزل نفسه، فأخرج النائب خطّ الملك الناصر فرآه بهادر ثم قال:

يا مولانا ملك الأمراء، لا تستعجل فممالك الشام فيها أمراء غيرنا، مثل الأمير قراسنقر نائب حلب، و قبجق نائب حماة، و أسندمر نائب طرابلس و غيرهم، فنرسل إليهم و نتّفق معهم على المصلحة، فإذا شاورناهم تطيب خواطرهم، و ربّما يرون من المصلحة ما لا نرى نحن، ثم قام بهادر المذكور و خرج فخرجت الأمراء كلّهم فى أثره، فقال الأمير أيبك البغدادىّ القادم من مصر للأفرم: لو مسكت بهادر آص لانصلح الأمر على ما نريد! فقال له الأفرم: و اللّه العظيم لو قبضت عليه لقامت فتنة عظيمة تروح فيها روحك، و تغيير الدول يا أيبك ما هو هين! و أنا ما أخاف من أمراء الشام من أحد إلّا من قبجق المنصورىّ، فإنّه ربّما يقيم فتنة من خوفه على روحه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۳۷

قلت: و قبجق هذا هو الذى كان نائب دمشق فى أيّام المنصور لاچين، و توجّه إلى غازان و أقدمه إلى الشام. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه.

و لمّا كان اليوم الثانى طلب الأفرم هؤلاء الأمراء الأربعة و اختلى بهم، و قال لهم: اعلموا أنّ هذا أمر انقضى، و لم يبق لنا و لا لغيرنا فيه مجال، و أنتم تعلمون أنّ كلّ من يجلس على كرسىّ مصر كان هو السلطان و لو كان عبدا حبشيّا، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، و ربّما يبلّغ هذا اليه فيتغيّر قلبه عليكم، و لم يزل يتلاطف بهم حتّى حلفوا له، فلمّا حلفوا حلف باقى الأمراء، و خلع الأفرم على جميع الأمراء و القضاة خلعا ستيّة، و كذلك خلع على الأمير أيبك البغدادىّ و على رفيقه شادى و أعطاهما ألفى دينار و زوّدهما و ردّهما فى أسرع وقت. و كتب معهما كتابا يهنّئ بيبرس بالملك، و يقول: عن قريب تأتيك نسخة الأيمان. و قدما القاهرة و أخبرا الملك

المظفّر بيبرس بذلك، فسرّ و انشرح صدره بذلك: ثمّ إنّ الأفرم نائب الشام أرسل إلى قراسنقر و إلى قبجق شخصا من مماليكه بصورة الحال، فأمّا قرا سنقر نائب حلب فإنّه لمّا سمع الواقعة و قرأ كتاب الأفرم، قال: إيش الحاجة إلى مشاورتنا! أستاذك بعثك بعد أن حلف، و كان ينبغى أن يتأنّى فى ذلك، و أمّا قبجق نائب حماة فإنه لمّا قرأ كتاب الأفرم، قال: لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلى العظيم، إيش جرى على ابن أستاذنا حتّى عزل نفسه! و اللّه لقد دبرتم أنحس تدبير، هذه و اللّه نوبة لاچين. ثم قال لمملوك الأفرم: اذهب إلى أستاذك و قل له: الآن بلغت مرادك، و سوف تبصر من يصبح ندمان، و فى أمره حيران! و كذلك لمّا بعث الأفرم لأسندمر نائب طرابلس، فلما قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض؛ ثم قال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣٨

اذهب لأستاذك و قل له: يا بعيد الذّهن و قليل العلم بعد أن دبرت أمرا، فما الحاجة إلى مشاورتنا! فو اللّه ليكوننّ عليك أشأم التدبير و سيعود وباله عليك، و لم يكتب له جوابا.

و أمّا قراسنقر نائب حلب فإنه أرسل إلى قبجق و إلى أسندمر يعلمهما أنّ الأفرم حلّف عساكر دمشق على طاعة بيبرس، و لا نأمن أن يعمل الأفرم علينا، فهلمّوا نجتمع فى موضع واحد فنتشاور و نرى أمرا يكون فيه المصلحة، فاتّفقوا الجميع على أن يجتمعوا فى حلب عند قراسنقر، و عيّنوا ليلة يكون اجتماعهم فيها.

فأمّا قبجق فإنه ركب إلى الصيد بمماليكه خاصّة، و تصيّد إلى الليل فسار إلى حلب. و أمّا أسندمر أظهر أنّه ضعيف و أمر ألّا يخلّى أحدا يدخل عليه، و فى الليل ركب بمماليكه الذين يعتمد عليهم و قد غيّروا ملابسهم، و سار يطلب حلب. و اجتمع الجميع عند قرا سنقر، فقال لهم قراسنقر: ما تقولون فى هذه القضيّة التى جرت؟ فقال قبجق: و اللّه لقد جرى أمر عظيم، و إن لم نحسن التدبير نقع فى أمور! يعزل ابن أستاذنا و يأخذها بيبرس! و يكون الأفرم هو مدبّر الدولة! و هو على كلّ حال عدوّنا و لا نأمن شرّه، فقالوا: فما نفعل؟ قال: الرأى أن نكتب إلى ابن أستاذنا فى الكرك و نطلبه إلى حلب و نركب معه، فإما نأخذ له الملك، و إما أن نموت على خيولنا! فقال أسندمر: هذا هو الكلام، فحلف كلّ من الثلاثة على هذا الاتّفاق، و لا يقطع واحد منهم أمرا إلّا بمشورة أصحابه، و أنّهم يموت بعضهم على بعض، ثم إنّهم تفرّقوا فى اللّيل كلّ واحد إلى بلده.

و أمّا الأمراء الذين خرجوا من مصر إلى النوّاب بالبلاد الشاميّة بالخلع و بسلطنة بيبرس، فإنهم لمّا وصلوا إلى دمشق قال لهم الأفرم: أنا أرسلت إليهم مملوكى، فردّوا علىّ جوابا لا يرضى به مولانا السلطان. و كان الأفرم أرسل إلى الملك المظفّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٣٩

بيبرس نسخة اليمين التى حلّف بها أمراء دمشق مع مملوكه مغلطاى، فأعطاه الملك المظفّر إمرة طبلخاناه و خلع عليه، و أرسل معه خلعة لأستاذه الأفرم بألف دينار، و أطلق له شيئا كثيرا كان لبيبرس فى الشام قبل سلطنته من الحواصل و الغلال، فسّر الأفرم بذلك غاية السرور، ثم قال الأميران اللذان وصلا إلى دمشق للافرم:

ما تشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر و لا تذهبا إلى هؤلاء، فإنّ رءوسهم قويّة، و ربّما يثيرون فتنة، فقالا: لاغنى لنا [من] أن نسمع كلامهم، ثم إنّهما ركبا من دمشق و سارا إلى حماة، و دخلا على قبجق و دفعا له كتاب الملك المظفّر، فقرأه ثم قال: و أين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلمّا وقف عليه بكى، ثم قال: من قال إنّ هذا خطّ الملك الناصر؟ و اللّه واحد يكون وكيلا فى قرية ما يعزل نفسه منها بطيبة من خاطره! و لا بدّ لهذا الأمر من سبب، اذهبا إلى الأمير قراسنقر فهو أكبر الأمراء و أخبرهم بالأحوال، فركبا و سارا إلى حلب و اجتمعا بقراسنقر؛ فلمّا قرأ كتاب المظفّر قال: يا إخوتى إنّا على أيمان ابن أستاذنا لا نخونه و لا نحلف لغيره و لا نواطئ عليه و لا نفسد ملكه، فكيف نحلف لغيره! و اللّه لا يكون هذا أبدا و دعوا يجرى ما يجرى، و كلّ شىء ينزل من السماء تحمله الأرض.

و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه العلىّ العظيم! فخرجا من عنده و سارا إلى طرابلس و دخلا على أسندمر فقال لهما: مثل مقالة قبجق و قرا

سنقر، فخرجا و ركبا و سارا نحو الديار المصريّة، و دخلا على الملك المظفر بيبرس و أعلماه بما كان، فضاق صدر المظفّر و أرسل خلف الأمير سلّار النائب و قصّ عليه القصّة، فقال له سلّار: هذا أمر هيّن و نقدر (أن) نصلح هؤلاء، فقال: و كيف السبيل إلى ذلك؟ قال: تكتب إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۰

قرا سنقر كتابا و ترقّق له فى الكلام، و أرسل إليه تقليدا بنيابة حلب و بلادها، و أنّه لا يحمل منه الدّرهم الفرد، و كذا لقبجق بحماة، و لأسندمر بطرابلس و السواحل، فقال بيبرس: إذا فرّقت البلاد عليهم ما يساوى ملكى شيئا! فقال له سلّار: و كم [من] يد تقبّل عن ضرورة و هى تستحقّ القطع! فاسمع منّى و أرضهم فى هذا الوقت، فإذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت؛ فمال المظفّر إلى كلامه و أمر أن يكتب بما قاله سلّار لكلّ واحد على حدته، فكتب ذلك و أرسله مع بعض خواصّه.

و أمّا أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ الملك المظفّر لمّا تسلطن و تمّ أمره كتب له تقليدا بالكرك، و سيّره له على يد الأمير آل ملك، و منشورا بما عيّن له من الإقطاعات. و أمّا أمر قرا سنقر فإنّه جهّز ولده محمدا إلى الملك الناصر محمد بالكرك، و على يده كتابه و كتاب قبجق نائب حماة و كتاب أسندمر نائب طرابلس. و مضمون كتاب قرا سنقر: أنّه يلوم الملك الناصر عن نزوله عن الملك، و كيف وقع له ذلك و لم يشاوره فى أوّل الأمر، ثمّ وعده برجوع ملكه إليه عن قريب، و أنّه هو و قبجق و أسندمر ما حلفوا للمظفر، و أنّهم مقيمون على أيمانهم له. و كذلك كتاب قبجق و كتاب أسندمر، فأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن قرا سنقر كتب الثلاثة و سار مسرعا و معه نجّاب خبير بتلك الأرض، فلم يزالا سائرين فى البريّة و المفاوز إلى أن وصلا إلى الكرك.

و ابن قرا سنقر عليه زىّ العرب، فلمّا وقفا على باب الكرك سألوهما من أين أنتما؟

فقالا: من مصر، فدخلوا و أعلموا الملك الناصر محمدا بهما و استأذنوه فى إحضارهما، فأذن لهما بالدخول؛ فلمّا مثلا بين يديه كشف ابن قراسنقر لثامه عن وجهه فعرفه السلطان، و قال له: محمد؟ فقال: لبّيك يا مولانا السلطان، و قبّل الأرض و قال:

لا بدّ من خلوة، فأمر السلطان لمن حوله بالانصراف، فعند ذلك حدّث

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۱

ابن قرا سنقر السلطان بما جرى من أبيه و قبجق و أسندمر، و أنهم اجتمعوا فى حلب و تحالفوا بأنّهم مقيمون على الأيمان التى حلفوها للملك الناصر، ثم دفع له الكتب الثلاثة فقرأها، ثم قال: يا محمد، ما لهم قدرة على ما اتّفقوا عليه، فإنّ كلّ من فى مصر و الشام قد اتّفقوا على سلطنة بيبرس، فلما سمع ابن قراسنقر ذلك حلف بأنّ كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة كفء لأهل مصر و الشام، و مولانا السلطان أخبر بذلك منّى، فتبسّم السلطان و قال صدقت يا محمد، و لكن القائل يقول:

كن جريا إذا رأيت جبانا و جبانا إذا رأيت جريّا

لا تقاتل بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قويّا

و هذه البلاد كلّها دارت مع بيبرس و لا يتمّ لنا الحال إلّا بحسن التدبير و المداراة و الصبر على الأمور. ثم إنّه أنزله فى موضع و أحسن إليه، و قال له: استرح اليوم و غدا ثم سافر، فأقام يومين ثم طلبه الملك الناصر فى صبيحة اليوم الثالث و أعطاه جواب الكتب، و قال له: سلّم على أبى (يعنى على قرا سنقر) و قل له: اصبر، ثم خلع عليه خلعة سنيّة و أعطاه ألف دينار مصريّة، و خلع على معن النّجاب الذى أتى به أيضا و أعطاه ألف درهم؛ فخرج ابن قرا سنقر و النّجاب معه، و أسرعا فى السير إلى أن وصلا إلى حلب، فدخل ابن قرا سنقر إلى أبيه و دفع له كتاب الملك الناصر ففتحه فإذا فيه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم: حرس اللّه تعالى نعمة المقرّ العالى الأبوىّ الشمسىّ و متّعنا بطول حياته، فقد علمنا ما أشار به و ما عوّل عليه، و قد علمنا قديما و حديثا أنّه لم يزل على هذه الصورة، و أريد منك أنّك تطوّل روحك علىّ، فهذا الأمر ما ينال بالعجلة لأنّك قد علمت انتظام أمراء مصر و الشام فى سلك واحد و لا سيّما الأفرم و من معه من اللئام، فهذه عقدة لا تنحلّ إلّا بالصبر، و إن حضر

إليك أحد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۲

من جهة المظفّر و طلب منك اليمين له، فقدّم النيّة أنّك مجبور و مغصوب و احلف.

و لا تقطع كتبك عنى فى كلّ وقت، و عرّفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها و كثيرها.

و كذلك كتب فى كتاب قبجق و أسندمر، فعرف قرا سنقر مضمون كتابه و سكت.

ثم بعد قليل وصل إلى قرا سنقر من الملك المظفّر بيبرس تقليد بنيابة حلب و بلادها دربست على يد أمير من أمراء مصر. و من مضمون الكتاب الذى من المظفّر إلى قرا سنقر: أنت خشداشى، و لو علمت أنّ هذا الأمر يصعب عليك ما عملت شيئا حتّى أرسلت إليك و أعلمتك به، لأنّ ما فى المنصوريّة أحد أكبر منك، غير أنّه لما نزل ابن أستاذنا عن الملك اجتمع الأمراء و القضاة و كافّة الناس، و قالوا:

ما لنا سلطان إلّا أنت، و أنت تعلم أنّ البلاد لا تكون بلا سلطان، فلو لم أتقدّم أنا كان غيرى يتقدّم [و قد وقع ذلك]! فاجعلنى واحدا منكم و دبّرنى برأيك. و هذه حلب و بلادها دربست لك، و كذا لخشداشيتك: الأمير قبجق و الأمير أسندمر.

و سيّر الملك المظفّر لكلّ من هؤلاء الثلاثة خلعة بألف دينار، و فرشا قماشه بألف دينار، و عشرة رءوس من الخيل. فعند ذلك حلف قراسنقر و قبجق و أسندمر، و رجع الأمير المذكور إلى مصر بنسخة اليمين. فلمّا وقف عليها الملك المظفّر فرح غاية الفرح، و قال: الآن تمّ لى الملك. ثم شرع من يومئذ فى كشف أمور البلاد و إزالة المظالم و النظر فى أحوال الرعيّة.

ثم استهلّت سنة تسع و سبعمائة، و سلطان الديار المصريّة الملك المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ، و الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان، و نائب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۳

السلطنة بديار مصر الأمير سلّار، و نائب الشام الأمير آقوش الأفرم الصغير، و نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورىّ، و نائب حماة الأمير سيف الدين قبجق المنصورىّ، و نائب طرابلس الأمير سيف الدين أسندمر المنصورىّ. ثم فشا فى الناس فى السنة المذكورة أمراض حادّة، و عمّ [الوباء] الخلائق و عزّ سائر ما يحتاج إليه المرضى. ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى، و ارتفع سعر القمح و سائر الغلال، و منع الأمراء البيع من شونهم إلّا الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيرىّ الأستادار، فإنّه تقدّم إلى مباشريه ألّا يتركوا عنده سوى مئونة سنة واحدة، و باع ما عداه قليلا قليلا. و الخطيرىّ هذا هو صاحب الجامع الذى بخطّ بولاق. انتهى.

و خاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، و تشاءم الناس بسلطنة الملك المظفّر بيبرس المذكور. ثمّ إنّ الخطيب نور الدّين علىّ بن محمد بن الحسن بن علىّ القسطلانىّ خرج بالناس و استسقى، و كان يوما مشهودا، فنودى من الغد بثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة مدّة، ثم زاد و انتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا فى سابع عشرين توت، ثم نقص فى أيّام النسيء و جاء النّوروز و لم يوفّ النيل ستّ عشرة ذراعا ففتح خليج السدّ فى يوم الجمعة ثامن توت و هو ثامن عشرين شهر ربيع الأوّل. و ذكر بعضهم أنّه لم يوفّ إلى تاسع عشر بابه، و هو يوم الخميس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۴

حادى عشر جمادى الأولى، و ذلك بعد اليأس منه، و هذا القول هو الأشهر.

قال: و انحطّ مع ذلك بعد الوفاء السّعر و تشاءم الناس بطلعة الملك المظفّر بيبرس.

و غنّت العامّة فى المعنى:

سلطاننا ركين و نائبنا دقين

يجينا الماء من أين

يجيبوا لنا الأعرج يجى الماء و يدحرج

و من يومئذ وقعت الوحشة بين المظفّر و بين عامّة مصر، و أخذت دولة الملك المظفّر بيبرس فى اضطراب، و ذلك أنّه كثر توهّمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون، و قصد فى أيّامه كل واحد من خشداشيته أن يترقّى إلى أعلى منزلة، و اتّهموا الأمير سلار بمباطنة الملك الناصر محمد و حذّروا الملك المظفّر منه، و حسّنوا له القبض على سلّار المذكور، فجبن بيبرس عن ذلك. ثم ما زالوا حتّى بعث الأمير مغلطاى إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ليأخذ منه الخيل و المماليك التى عنده، و تغلّظ فى القول، فغضب الملك الناصر من ذلك غضبا شديدا و قال له: أنا خلّيت، ملك مصر و الشام لبيبرس، ما يكفيه حتّى ضاقت عينه على فرس عندى و مملوك لى و يكرّر الطلب! ارجع إليه و قل له: و اللّه لئن لم يتركنى، و إلّا دخلت بلاد التّتار و أعلمهم أنّى تركت ملك أبى و أخى و ملكى لمملوكى، و هو يتابعنى و يطلب منّى ما أخذته، فجافاه مغلطاى و خشّن له فى القول بحيث اشتدّ غضب الملك الناصر، و صاح به:

ويلك وصلت إلى هنا! و أمر أن يجرّ و يرمى من سور القلعة، فثار به المماليك، يسبّونه و يلعنونه و أخرجوه إلى السّور، فلم يزل به أرغون الدّوادار و الأمير طغاى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۵

إلى أن عفا عنه و حبسه ثمّ أخرجه ماشيا، و عظم ذلك على الملك الناصر و كتب ملطّفات إلى نوّاب البلاد الشامية بحلب و حماة و طرابلس و صفد، ثمّ إلى مصر ممّن يثق به، و ذكر ما كان به من ضيق اليد و قلّة الحرمة، و أنّه لأجل هذا ترك ملك مصر و قنع بالإقامة بالكرك، و أنّ السلطان الملك المظفّر فى كلّ وقت يرسل يطالبه بالمماليك و الخيل التى عنده. ثم ذكر لهم فى ضمن الكتاب: أنتم مماليك أبى و ربيّتمونى فإمّا أن تردّوه عنى و إلّا سرت إلى بلاد التّتار، و تلطّف فى مخاطبتهم غاية التلطّف؛ و سيّر لهم بالكتب على يد العربان فأوصلوها إلى أربابها. و كان قد أرسل الملك المظفّر قبل ذلك يطلب منه المال الذى كان بالكرك و الخيل و المماليك التى عنده.

حسب ما يأتى ذكره فى ترجمة الملك الناصر محمد. فبعث إليه الملك الناصر بالمبلغ الذى أخذه من الكرك فلم يقنع المظفّر بذلك و أرسل ثانيا، و كان الملك الناصر لمّا أقام بالكرك صار يخطب بها للملك المظفّر بيبرس بحضرة الملك الناصر و الملك الناصر يتأدّب معه، و يسكت بحضرة مماليكه و حواشيه. و صار الملك الناصر إذا كاتب الملك المظفّر يكتب إليه: «الملكىّ المظفّرىّ» و قصد بذلك سكون الأحوال و إخماد الفتن، و المظفّر يلحّ عليه لأمر يريده اللّه تعالى حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

و أما النّوّاب بالبلاد الشاميّة فإنّ قرا سنقر نائب حلب كتب إلى الملك الناصر الجواب: بأنّى مملوك السلطان فى كلّ ما يرسم به، و سأل أن يبعث إليه بعض المماليك السلطانية، و كذلك نائب حماة و نائب طرابلس و غيرهما ما خلا بكتمر الجوكندار، فإنّه طرد قاصد الملك الناصر و لم يجتمع به. ثم أرسل الملك الناصر مملوكه أيتمش المحمّدىّ إلى الشام و كتب معه ملطّفات إلى الأمير قطلوبك المنصورىّ و بكتمر الحسامىّ الحاجب بدمشق و لغيرهما، و وصل أيتمش إلى دمشق خفية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۴۶

و نزل عند بعض مماليك قطلوبك المذكور، و دفع إليه الملطّف؛ فلمّا أوصله إلى قطلوبك أنكر عليه و أمره بالاحتفاظ على أيتمش المذكور ليوصّله إلى الأفرم نائب الشام و يتقرّب إليه بذلك؛ فبلغ أيتمش الخبر فترك راحلته التى قدم عليها و مضى إلى دار الأمير بهادر آص فى اللّيل، فاستأذن عليه فأذن له فدخل إليه أيتمش و عرّفه ما كان من قطلوبك فى حقّه، فطيّب بهادر آص خاطره و أنزله عنده و أركبه من الغد معه إلى الموكب، و قد سبق قطلوبك إلى الأفرم نائب الشام و عرّفه قدوم مملوك الملك الناصر اليه و هروبه من عنده ليلا، فقلق الأفرم من ذلك و ألزم والى المدينة بتحصيل المملوك المذكور، فقال بهادر آص: هذا المملوك عندى و أشار إليه، فنزل عن فرسه و سلّم على الأفرم و سار معه فى الموكب إلى دار السعادة، و قال له بحضرة الأمراء:

السلطان الملك الناصر يسلّم عليك و يقول: ما منكم أحد إلّا و أكل خبز الملك الشهيد قلاوون، و ما منكم إلا من إلعامه عليه، و أنتم تربيـة الشـهيد والـده، و أنه قاصـد الـدخول إلى دمشق و الإقامة بها، فإن كان فيكم من يقاتله و يمنعه العبور فعرّفوه، فلم يتمّ هذا القول حتى صاح الكوكندى الزرّاق أحد أكابر أمراء دمشق وا ابن أستاذاه! و بكى، فغضب الأفرم نائب الشام عليه و أخرجه، ثم قال الأفرم: لأ ـيتمش قل له (يعنى الملك الناصـر): كيف يجىء إلى الشام أو إلى غير الشام! كأنّ الشام و مصـر الآن تحت حكمك. أنا لمّا أرسـل إلىّ السـلطان الملـك المظفر أن أحلف له مـا حلفت حتى سيّرت أقول له: كيف يكون ذلـك و ابن أسـتاذنا باق! فأرسل يقول: أنا ما تقدّمت عليه حتى خلع ابن أسـتاذنا نفسه، و كتب خطّه و أشـهد عليه بنزوله عن الملك فعند ذلك حلفت له، ثم فى هذا الوقت تقول: من يردّنى عن الشام! ثم أمر به الأفرم فسلّم إلى أستاداره. فلمّا كان اللّيل استدعاه و دفع له

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤٧

خمسـين دينـارا و قـال قـل له: لاـ تـذكر الخروج من الكرك، و انـا أكتب إلى المظفّر و أرجعه عن الطلب، ثم أطلقه فعاد أيتمش إلى الكرك و أعلم الملك الناصر بما وقع.

فأعاده الملك الناصـر على البريد و معه أركتمر و عثمان الهجّان ليجتمع بالأمير قرا سـنقر نائب حلب و يواعده على المسير إلى دمشق، ثم خرج الملك الناصر من الكرك و سار إلى بركة زيزاء فنزل بها.

و أمّـا الملـك المظفّر بيبرس صـاحب الترجمـة فـإنّه لمّـا بلغه أنّ الملـك الناصـر حبس قاصـده مغلطاى المقـدّم ذكره قلق من ذلك و اسـتدعى الأمير سلّار و عرّفه ذلك، و كانت البرجيّة قد أغروا المظفّر بيبرس بسلّار و اتّهموه أنّه باطن الملك الناصر و حسّنوا له القبض عليه، حسب مـا ذكرنـاه، فجبن الملـك المظفّر من القبض عليه. و بلغ ذلـك سلّار فخـاف من البرجيّـة لكـثرتهم و قـوّتهم و أخـذ فى مـداراتهم؛ و كـان أشـدّهم عليه الأمير بيكور و قـد شـرق إقطاعه، فبعث إليه سـلّار بسـتة آلاف إردب غلّـة و ألف دينار فكفّ عنه، ثم هادى خواصّ المظفّر و أنعم عليهم. فلمّا حضـر سـلّار عند المظفّر و تكلّما فيما هم فيه فاقتضـى الرأى إرسال قاصد إلى الملك الناصـر بتهديـده ليفرج عن مغلطـاى. و بينمـا هم فى ذلـك قـدم البريـد من دمشق بأنّ الملك الناصـر سار من الكرك إلى البرج الأبيض و لم يعرف أحد مقصده، فكتب الجواب فى الحال بحفظ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤٨

الطّرقـات عليه. و اشـتهر بالـديار المصـريّة حركـة الملك الناصـر محمـد و خروجه من الكرك فماجت الناس؛ و تحرّك الأمير نوغاى القبجاقىّ، و كـان شـجاعا مقـداما حـادّ المزاج قوىّ النفس، و كـان من ألزام الأـمير سـلّار النـائب، و تواعـد مع جماعـة من المماليك السـلطانية أن يهجم بهم على السـلطان الملك المظفّر إذا ركب و يقتله. فلمّا ركب المظفّر و نزل إلى بركة الجبّ اسـتجمع نوغاى بمن وافقه يريـدون الفتـك بالمظفّر فى عوده من البركـة، و تقرّب نوغاى من السـلطان قليلا قليلا و قـد تغيّر وجهه و ظهر فيه أمارات الشـرّ، ففطن به خواصّ المظفر و تحلّقوا حول المظفّر، فلم يجد نوغاى سبيلا إلى ما عزم عليه، و عاد الملك المظفّر إلى القلعة فعرّفه ألزامه ما فهموه من نوغاى و حسّـنوا له القبض عليه و تقريره على من معه، فاسـتدعى السـلطان الأمير سـلّار و عرّفه الخبر، و كان نوغاى قد باطن سلّار بذلك، فحذّر سـلّار الملك المظفّر و خوّفه عاقبة القبض على نوغاى و أنّ فيه فساد قلوب جميع الأمراء، و ليس الرأى إلّا الإغضاء فقط. و قام سـلار عنه فأخـذ البرجيّـة بالإغراء بسـلّار و أنّه باطن نوغاى، و متى لم يقبض عليه فسـد الحال. و بلغ نوغاى الحديث فواعد أصحابه على اللحاق بالملك الناصر، و خرج هو و الأمير مغلطاى القازانى و تقطاى الساقى و نحو ستين مملوكا وقت المغرب عند غلق باب القلعة فى ليلة الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من سنة تسع و سبعمائة المذكورة. و قيل فى أمر نوغاى و هروبه وجه آخر: قال الأمير بيبرس الدّوادار فى تاريخه: تسحّب من الديار المصريّة إلى الكرك المحروس سيف الدين نوغاى القفجاقىّ أحد المماليك السلطانيّة و سيف الدين تقطاى الساقى و علاء الدين مغلطاى القازانىّ، و توجّه معهم من المماليك السلطانية بالقلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٤٩

مائة و ستة و ثلاثون نفرا، و خرجوا طلبا واحدا بخيلهم و هجنهم و غلمانهم و تركوا بيوتهم و أولادهم. انتهى.

و قال غيره: لمّا ولى الملك المظفر بيبرس السلطنة بقى سلّار هو الملك الظاهر بين الناس و الملك المظفّر بيبرس من وراء حجاب، فلمّا كان فى بعض الأيام دخل على الملك المظفّر أميران: أحدهما يسمّى نوغاى و الآخر مغلطاى فباسا الأرض بين يديه و شكوا له ضعف أخبازهما، فقال لهما المظفّر: اشكوا إلى سلّار فهو أعلم بحالكما منى، فقالا: خلّد اللّه ملك مولانا السلطان، أهو مالك البلاد أم مولانا السلطان! فقال: اذهبا إلى سلّار، و لم يزدهما على ذلك، فخرجا من عنده و جاءا إلى سلّار و أعلماه بقول الملك المظفّر، فقال سلّار: و اللّه يا أصحابى أبعدكما بهذا الكلام، و أنتما تعلمان أنّ النائب ما له كلام مثل السلطان. و كان نوغاى شجاعا و عنده قوّة بأس، فأقسم باللّه لئن لم يغيّروا خبزه ليقيمنّ شرّا تهرق فيه الدماء، ثم خرجا من عند سلّار. و فى الحال ركب سلّار و طلع إلى عند الملك المظفّر و حدّثه بما جرى من أمر نوغاى و مغلطاى، و قال: هذا نوغاى يصدق فيما يقول، لأنّه قادر على إثارة الفتنة، فالمصلحة قبضه و حبسه فى الحبس، فاتّفقوا على قبضه. و كان فى ذلك الوقت أمير يقال له أنس فسمع الحديث، فلمّا خرج أعلم نوغاى بذلك، فلمّا سمع نوغاى الكلام طلب مغلطاى و جماعة من مماليك الملك الناصر، و قال لهم: يا جماعة، هذا الرجل قد عوّل على قبضنا، و أمّا أنا فلا أسلّم نفسى إلّا بعد حرب تضرب فيه الرّقاب، فقالوا له:

على ما ذا عوّلت؟ فقال: عوّلت على أنّى أسير إلى الكرك إلى الملك الناصر أستاذنا، فقالوا له: و نحن معك فحلف كلّ منهم على ذلك، فقال نوغاى، و كان بيته خارج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥٠

باب النصر: كونوا عندى وقت الفجر الأوّل راكبين و أنتم لابسون و تفرّقا، فجهّز نوغاى حاله فى تلك الليلة و ركب بعد الثّلث الأخير مع مماليكه و حاشيته، ثم جاءه مغلطاى القازانى بمماليكه و معه جماعة من مماليك السلطان الملك الناصر و الكلّ ملبسون [على ظهر الخيل]. ثم إنّ نوغاى حرّك الطبلخاناه حربيّا و شقّ من الحسينيّة فماجت الناس و ركبوا من الحسينية و أعلموا الأمير سلّار، فركب سلار و طلع إلى القلعة و أعلم السلطان بذلك.

قال ابن كثير: و كان ذلك بمباطنة سلّار مع نوغاى. فلمّا بلغ المظّفر ذلك قال على إيش توجّها! فقال سلّار: على نباح الجراء فى بطون الكلاب، و اللّه ما ينظر فى عواقب الأمور و لا يخاف آثار المقدور؛ فقال المظفر: إيش المصلحة؟ فاتفقوا على تجريد عسكر خلف المتسحّبين فجرّد فى أثرهم جماعة من الأمراء صحبة الأمير علاء الدين مغلطاى المسعودىّ، و الأمير سيف الدين قلّى فى جماعة من المماليك، فساروا سيرا خفيفا قصدا فى عدم إدراكهم و حفظا لسلطانهم و ابن سلطانهم الملك الناصر محمد ابن قلاوون فلم يدركوهم، و أقاموا على غزّة أياما و عادوا إلى القاهرة.

و قال صاحب نزهة الألباب: و جرّد السلطان الملك المظفّر وراءهم خمسة آلاف فارس صحبة الأمير أخى سلّار، و قال له المظفّر: لا ترجع إلّا بهم و لو غاصوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٥١

فى البحر! و كان فيهم الأمير شمس الدين دباكوز و سيف الدين بجاس و جنكلى ابن البابا و كهرداش و أيبك البغدادىّ و بلاط و صاروجا و القرمانى و أمير آخر، و هؤلاء الأمراء هم خيار عسكر مصر فساروا. و كان نوغيه قد وصل إلى بلبيس و طلب واليها و قال له: إن لم تحضر لى فى هذه الساعة خمسة آلاف دينار من مال السلطان و إلّا سلخت جلدك من كعبك [إلى أذنك]، ففى الساعة أحضر الذهب، و كان نوغيه قد أرصد أناسا يكشفون له الأخبار، فجاءوا له و ذكروا أنّ عسكرا عظيما قد وصل من القاهرة و هم سائقون؛ فلمّا سمع نوغيه ذلك ركب هو و أصحابه و قالوا لوالى بلبيس قل للامراء الجائين خلفى أنا رائح على مهل حتى تلحقونى، و أنا أقسم باللّه العظيم لئن وقعت عينى عليهم لأجعلنّ عليهم يوما يذكر إلى يوم القيامة! و لم يبعد نوغيه حتى وصل أخو سلّار و هو الأمير سمك و معه العساكر، فلاقاهم والى بلبيس و أخبرهم بما جرى له مع نوغيه و قال لهم: ما ركب إلا من ساعة، فلما سمعوا

بذلك ساقوا إلى أن وصلوا إلى مكان بين الخطّارة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۲

و السعيدية، فإذا بنوغاى واقف و قد صفّ رجاله ميمنة و ميسرة و هو واقف فى القلب قدّام الكلّ، فلما رآهم سمك أرسل إليه فارسا من كبار الحلقة، و سار إليه الفارس و اجتمع بنوغيه و قال له: أرسلنى سمك إليك و هو يقول: السلطان الملك المظفّر يسلّم عليك و يقول لك: سبحان اللّه! أنت كنت أكبر أصحابه، فما الذى غيّرك عليه؟

فإن كان لأجل الخبز فما يأكل الخبز أحد أحقّ منك، فإن عدت إليه فكلّ ما تشتهى يفعله لك. فلمّا سمع نوغيه هذا الكلام ضحك و قال: إيش هذا الكلام الكذب! لمّا أمس سألته أن يصلح خبزى بقرية واحدة ما أعطانى، و أنا تحت أمره، فكيف يسمح لى اليوم بما أشتهى و أنا صرت عدوّه! فخلّ عنك هذا الهذيان، و مالكم عندى إلا السيف، فرجع الرسول و أعلم سمك بمقالته، ثم إنّ نوغيه دكس فرسه و تقدّم إلى سمك و أصحابه و قال له: إن هؤلاء الذين معى أنا الذى أخرجتهم من بيوتهم و أنا المطلوب، فمن كان يريدنى يبرز لى و هذا الميدان! فنظرت الأمراء بعضهم إلى بعض، ثم قال: يا أمراء، ما أنا عاص على أحد، و ما خرجت من بيتى إلا غبنا، و أنتم أغبن منى، و لكن ما تظهرون ذلك، و هأنتم سمعتم منى الكلام فمن أراد الخروج إلىّ فليخرج و إلا احملوا علىّ بأجمعكم، و كان آخر النهار، فلم يخرج اليه أحد فرجع إلى أصحابه و نزل سمك فى ذلك المكان. فلما أمسى الليل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۳

رحل نوغيه بأصحابه و سار مجدّا ليله و نهاره حتى وصل قطيا، فوجد واليها قد جمع العربان لقتاله، لأنّ البطاقة وردت عليه من مصر بذلك، و العربان الذين جمعهم الوالى نحو ثلاثة آلاف فارس؛ فلما رآهم نوغاى قال لأصحابه: احملوا عليهم و بادروهم حتى لا يأخذهم الطّمع فيكم (يعنى لقلّتهم) و تأتى الخيل التى وراءكم، فحملوا عليهم و كان مقدّم العرب نوفل [بن حابس] البياضى، و فيهم نحو الخمسمائة نفر بلبوس، فحملت الأتراك أصحاب نوغاى عليهم و تقاتلا قتالا عظيما حتى ولّت العرب، و انتصر نوغيه عليهم هو و أصحابه، و ولّت العرب الأدبار طالبين البرّيّة، و لحق نوغيه والى قطيا فطعنه و ألقاه عن فرسه و أخذه أسيرا. ثم رجعت التركمن خلف العرب و قد كسبوا منهم شيئا كثيرا.

و أمّا سمك فإنه لم يزل يتبعهم بعساكر مصر منزلة بعد منزلة حتى وصلوا إلى قطيا فوجدوها خرابا، و سمعوا ما جرى من نوغيه على العرب، فقال الأمراء: الرأى أننا نسير إلى غزّة و نشاور نائب غزّة فى عمل المصلحة، فساروا إلى غزّة فلاقاهم نائب غزّة و أنزلهم على ظاهر غزّة و خدمهم، فقال له سمك: نحن ما جئنا إلّا لأجل نوغاى، و أنّه من العريش سار يطلب الكرك، فما رأيك؟ نسير إلى الكرك أو نرجع إلى مصر؟

فقال لهم نائب غزة: رواحكم إلى الكرك ما هو مصلحة، و أنتم من حين خرجتم من مصر سائرون وراءهم و رأيتموهم فى الطريق فما قدرتم عليهم، و قد وصلوا إلى الكرك و انضمّوا إلى الملك الناصر، و الرأى عندى أنكم ترجعون إلى مصر و تقولون للسلطان ما وقع و تعتذرون له، فرجعوا و أخبروا الملك المظفّر بالحال فكاد يموت غيظا، و كتب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۴

من وقته كتابا للملك الناصر فيه: إنّ ساعة وقوفك على هذا الكتاب و قبل وضعه من يدك ترسل لنا نوغاى و مغلطاى و مماليكهما، و تبعث المماليك الذين عندك و لا تخلّ منهم عندك سوى خمسين مملوكا، فإنك اشتريت الكلّ من بيت المال، و إن لم تسيرهم سرت إليك و أخذتك و أنفك راغم! و سيّر الكتاب مع بدوىّ إلى الملك الناصر.

و أمّا نوغاى فإنه لما وصل إلى الكرك وجد الملك الناصر فى الصيد، فقال نوغيه لمغلطاى: انزل أنتها هنا و أسير أنا للسلطان، و ركب هجينا و أخذ معه ثلاثة مماليك و سار إلى ناحية عقبة أيلة، و إذا بالسلطان نازل فى موضع و عنده خلق كثير من العرب و الترك، فلما رأوا نوغيه و قد أقبل من صدر البرّيّة، أرسلوا إليه خيلا فكشفوا خبره، فلما قربوا منه عرفه مماليك السلطان فرجعوا و

أعلموا السلطان أنه نوغاى، فقال السلطان: اللّه أكبر! ما جاء هذا إلّا عن أمر عظيم، فلّما حضر نزل و باس الأرض بين يدى الملك الناصر و دعا له، فقال له الملك الناصر: أراك ما جئت لى فى مثل هذا الوقت إلى هذا المكان إلا لأمر؟ فحدثنى حقيقة أمرك، فأنشأ نوغيه يقول:

أنت المليك و هذه أعناقنا خضعت لعزّ علاك يا سلطانى

أنت المرجّى يا مليك فمن لنا أسد سواك و ما لك البلدان

فى أبيات أخر، ثم حكى له ما وقع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه، فركب الملك الناصر و ركب معه نوغيه و عادا إلى الكرك، و خلع عليه و على رفقته و أنزلهم عنده و وعدهم بكلّ خير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۵

ثم إنّ الملك الناصر جمع أمراءه و مماليكه و شاورهم فى أمره، فقال نوغيه:

من ذا الذى يعاندك أو يقف قدّامك و الجميع مماليكك! و الذى خلق الخلق إذا كنت أنت معى وحدى ألتقى بك كلّ من خرج من مصر و الشام! فقال السلطان:

صدقت فيما قلت، و لكن من لم ينظر فى العواقب، ما الدهر له بصاحب. انتهى.

و قال ابن كثير فى تاريخه: وصل المتوجّهون إلى الكرك إلى الملك الناصر فى الحادى و العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فقبلهم الناصر أحسن قبول، و كان حين وصلوا إلى قطيا أخذوا ما بها من المال، و وجدوا أيضا فى طريقهم تقدمة لسيف الدين طوغان نائب البيرة فأخذوها بكمالها و أحضروا الجميع بين يدى الملك الناصر محمد، و لمّا وصلت إليه الأمراء المذكورون أمر الملك الناصر بالخطبة لنفسه، ثم كاتب النوّاب فاجتمعوا و أجابوه بالسمع و الطاعة. و لما عاد الأمراء من غزّة إلى مصر اشتدّ خوف السلطان الملك المظفّر و كثر خياله من أكثر عسكر مصر، فقبض على جماعة تزيد على ثلثمائة مملوك، و أخرج أخبازهم و أخباز المتوجّهين مع نوغيه إلى الكرك لمماليكه، و تحلّقوا عليه البرجيّة و شوّشوا فكره بكثرة تخيّله بمخامرة العسكر المصرىّ عليه، و ما زالوا به حتّى أخرج الأمير بينجار و الأمير صارم الدين الجرمكىّ فى عدّة من الأمراء مجرّدين، و أخرج الأمير آقوش الرومىّ بجماعته إلى طريق السّويس ليمنع من عساه يتوّجه من الأمراء و المماليك إلى الملك الناصر. ثم قبض الملك المظفّر على أحد عشر مملوكا و قصد أن يقبض على آخرين فاستوحش الأمير بطرا فهرب، فأدركه الأمير جركتمر بن بهادر رأس نوبة فأحضره فحبس؛ و عند إحضاره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۶

طلع الأمير ألديكز السّلاح دار بملطّف من عند الملك الناصر محمد، و هو جواب الكتاب الذى كان أرسله الملك المظفر للملك الناصر يطلب نوغيه و أصحابه. و قد ذكرنا معناه و ما أغلظ فيه و أفحش فى الخطاب للملك الناصر، و كان فى وقت وصول كتاب المظفّر حضر إلى الملك الناصر الأمير أسندمر نائب طرابلس كأنّهما كان على ميعاد، فأخذ الناصر الكتاب و أسندمر إلى جانبه، و عليه لبس العربان، و قد ضرب اللّثام فقرأ الناصر الكتاب، ثم ناوله إلى أسندمر فقرأه و فهم معناه، ثم أمر الملك الناصر الناس بالانصراف و بقى هو و أسندمر، و قال لأسندمر: ما يكون الجواب؟

فقال له أسندمر: المصلحة أن تخادعه فى الكلام و تترقّق له فى الخطاب حتى نجهّز أمرنا و نستظهر، فقال له السلطان: اكتب له الجواب مثل ما تختاره، فكتب أسندمر:

«المملوك محمد بن قلاوون يقبّل اليد العالية المولوية السلطانيّة المظفّريّة أسبغ اللّه ظلّها، و رفع قدرها و محلّها، و ينهى بعد رفع دعائه، و خالص عبوديته و ولائه أنه وصل إلىّ المملوك نوغيه و مغلطاى و جماعة من المماليك، فلمّا علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة و لم يمكّن أحدا منهم يعبر إليه، و سيّرت إليهم ألومهم على ما فعلوه، و قد دخلوا على المملوك بأن يبعث و يشفع فيهم، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة لمولانا السلطان و يشفع فيهم، و الذى يحيط به علم مولانا السلطان أنّ هؤلاء من مماليك السلطان،

خلّد اللّه ملكه، و أنّ الذى قيل فيهم غير صحيح، و إنما هربوا خوفا على أنفسهم، و قد استجاروا بالمملوك، و المملوك يستجير بظلّ الدولة المظفّريّة، و المأمول ألّا يخيّب سؤاله و لا يكسر قلبه، و لا يردّه فيما قصده. و فى هذه الأيام يجهّز المملوك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۷

تقدمة مع المماليك الذين طلبهم مولانا السلطان، و أنا ما لى حاجة بالمماليك فى هذا المكان، و إن رسم مولانا ما لك الرّقّ أن يسيّر نائبا له ينزل المملوك بمصر و يلتجئ بالدولة المظفريّة و يحلق رأسه و يقعد فى تربة الملك المنصور.

و المملوك قد وطّن نفسه على مثل هذا؛ و قد قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: «ما أقرب الراحة من التعب و البؤس من النّعم و الموت من الحياة». و قال بعضهم: إيّاك و ما يسخط سلطانك، و يوحش إخوانك؛ فمن أسخط سلطانه فقد تعرّض للمنيّة، و من أوحش إخوانه فقد تبرّأ عن الحرية.

و المملوك يسأل كريم العفو و الصفح الجميل! و اللّه تعالى قال فى كتابه الكريم و هو أصدق القائلين: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

و المملوك ينتظر الأمان و الجواب. أنهى المملوك ذلك».

فلمّا قرأ الملك المظفّر الكتاب خفّ ما كان عنده، و كان سلّار حاضرا فقال له سلّار: ما قلت لك إنّ الملك الناصر ما بقيت له قدرة على المعاندة! و قد أصبح ملك الشام و مصر طوع يدك، و لكن عندى رأى: و هو أن تسيّر إلى الأفرم بأن يجعل بآله من الأمراء، فإنّهم ربّما يهربون إلى بلاد التّتار فاستصوب المظفّر ذلك، و كتب إلى الأفرم فى الحال بالغرض، فلمّا وصل الكتاب إلى الأفرم اجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد.

و أخذ الملك الناصر فى تدبير أمره، و بينما المظفّر فى ذلك ورد عليه الخبر من الأفرم بخروج الملك الناصر من الكرك، فقلق المظفّر من ذلك و زاد توهّمه و نفرت قلوب جماعة من الأمراء و المماليك منه و خشوا على أنفسهم و اجتمع كثير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۸

من المنصوريّة و الأشرفية و الأويراتيّة و تواعدوا على الحرب، و خرج منهم مائة و عشرون فارسا بالسلاح، و ساروا على حميّة إلى الملك الناصر، فخرج فى أثرهم الأمير بينجار و الصارم الجرمكىّ بمن معهم، و قاتلوا المماليك و جرح الجرمكىّ بسيف فى خدّه سقط منه إلى الأرض، و مضى المماليك إلى الكرك و لم يستجرئ أحد أن يتعرّض إليهم؛ فعظم بذلك الخطب على الملك المظفّر، و اجتمع عنده البرجيّة و قالوا: هذا الفساد كلّه من الأمير سلّار، و متى لم تقبض عليه خرج الأمر من يدك، فلم يوافق على ذلك و جبن من القبض على سلّار لشوكته و لاضطراب دولته، ثم طلب الملك المظفّر الأمير سلّار و غيره من الأمراء و استشارهم فى أمر الملك الناصر، فاتّفق الرأى على خروج تجريدة لقتال الملك الناصر.

و أمّا الملك الناصر فإنّه أرسل الأمير أيتمش المحمّدىّ الناصرىّ إلى الأمير قبجق نائب حماة، فأحال الأمير قبجق الأمر على الأمير قرا سنقر نائب حلب، فاجتمع أيتمش بقرا سنقر فأكرمه و وافق على القيام مع الملك الناصر، و دخل فى طاعته و أعلن بذلك، و هو أكبر المماليك المنصوريّة، و واعد الملك الناصر على المسير إلى دمشق فى أوّل شعبان. ثم كتب قرا سنقر إلى الأفرم نائب الشام يحثّه على طاعة الملك الناصر و يرغّبه فى ذلك و يحذّره مخالفته؛ و أشار قراسنقر على الملك الناصر أنه يكاتب الأمير بكتمر الجوكندار نائب صفد، و الأمير كراى المنصورىّ نائب القدس. ثم عاد أيتمش إلى أستاذه الملك الناصر و أخبره بكلّ ما وقع، فسرّ الملك الناصر بذلك هو و كلّ من عنده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۵۹

غاية السرور، و تحقّق كلّ أحد من حواشى الملك الناصر بإتمام أمره. و كان نوغيه منذ قدم على الملك الناصر بالكرك لا يبرح يحرّضه على المسير إلى دمشق حتّى إنّه ثقل على الملك الناصر من مخاشنته فى المخاطبة بسبب توجّهه إلى دمشق، و غضب منه و

قال له: ليس لى بك حاجة، ارجع حيث جئت، فترك نوغاى الخدمة و انقطع و حقد له الملك الناصر ذلك حتّى قتله بعد عوده إلى الملك بمدّة حسب ما يأتى ذكره من كثرة ما وبّخه نوغيه المذكور، و أسمعه من الكلام الخشن.

و لمّا قدم أيتمش بالأجوبة على الملك الناصر قوى عزم الملك الناصر على الحركة؛ ثم إنّ الملك الناصر أيضا أرسل مملوكه أيتمش المحمدى المذكور إلى الأمير بكتمر الجوكندار نائب صفد حسب ما أشار به قرا سنقر، فسار أيتمش إليه و اجتمع بالأمير محمد بن بكتمر الجوكندار، فجمع محمد المذكور بين أيتمش و بين أبيه ليلا فى مقابر صفد، فعتبه أيتمش على ردّه أوّلا قاصد السلطان الملك الناصر فاعتذر له بكتمر بالخوف من بيبرس و سلّار كما كان وقع له مع الناصر أوّلا بالديار المصريّة حين اتّفقا على قبض بيبرس و سلّار و لم يتمّ لهم ذلك، و أخرج بكتمر بسبب ذلك من الديار المصريّة، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه. انتهى. ثم قال له بكتمر: و لو لا ثقتى بك ما اجتمعت عليك، فلمّا عرّفه أيتمش طاعة الأمير قراسنقر و الأمير قبجق و الأمير أسندمر أجاب بالسمع و الطاعة، و أنّه على ميعاد النوّاب إلى المضى إلى الشام، و عاد أيتمش إلى الملك الناصر بجواب بكتمر فسرّ به غاية السرور.

و أمّا السلطان الملك المظفّر بيبرس هذا فإنّه أخذ فى تجهيز العساكر إلى قتال الملك الناصر محمد حتّى تمّ أمرهم و خرجوا من الديار المصريّة فى يوم السبت تاسع شهر رجب و عليهم خمسة أمراء من مقدّمى الألوف، و هم: الأمير برلغى الأشرفىّ، و الأمير جمال الدين آقوش الأشرفى نائب الكرك كان، و الأمير عزّ الدين أيبك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۰

البغدادىّ، و الأمير سيف الدين طغريل الإيغانىّ، و الأمير سيف الدين الدكز السلاح دار، و معهم نحو ثلاثين أميرا من أمراء الطبلخاناه بعد ما أنفق فيهم الملك المظفّر، فأعطى برلغى عشرة آلاف دينار، و أعطى لكل مقدّم ألفى دينار، و لكلّ من الطبلخاناه ألف دينار، و لكلّ واحد من مقدّمى الحلقة ألف درهم، و لكل واحد من أجناد الحلقة خمسمائة درهم، و نزلوا بمسجد التّبن خارج القاهرة و لم يتقدّموا، ثم عادوا بعد أربعة أيّام إلى القاهرة. و كان الباعث على عودهم أن كتب آقوش الأفرم نائب الشام وردت على الملك المظفّر: تتضمّن وصول الملك الناصر إلى البرج الأبيض، ثم عاد إلى الكرك فاطمأنّ الملك المظفر و أرسل إلى برلغى و من معه من المجرّدين بالعود فعادوا بعد أربعة أيام. فلم يكن إلا أيّام و ورد الخبر ثانيا بمسير الملك الناصر محمد من الكرك إلى نحو دمشق، فتجهّز العسكر المذكور فى أربعة آلاف فارس و خرجوا من القاهرة فى العشرين من شعبان إلى العبّاسة. فورد البريد من دمشق بقد أيتمش المحمّدى من قبل الملك الناصر بمشافهة إلى الأفرم ذكرها للمظفّر. ثم إنّ الأفرم بعد قدوم أيتمش بعث الأمير علاء الدين أيدغدى شقير الحسامىّ، و الأمير جوبان لكشف خبر الملك الناصر، و أنهما توجّها من الشام إلى جهة الكرك، فوجدا الملك الناصر يتصيّد و أنّه عوّق أيتمش عنده، فسرّ المظفّر بذلك، و كان الأمر بخلاف ذلك، و هو أن أمرهما: أنّه لمّا سيّرهما الأفرم لكشف خبر الملك الناصر قدما على الملك الناصر، و دخلا تحت طاعته، و عرّفاه أنهما جاءا لكشف خبره و حلفا له على القيام بنصرته سرّا، و عادا إلى الأفرم بالجواب المذكور. و كان الناصر هو الذى أمرهما بهذا القول، فظنّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۱

الأفرم أنّ أخبارهما على الصدق، فكتب به إلى المظفّر. ثم إنّ الأفرم خاف أن يطرق الملك الناصر دمشق على غفلة فجرّد إليه ثمانية أمراء من أمراء دمشق، و هم:

الأمير سيف الدين قطلوبك المنصورىّ، و الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبىّ الحاجب، و الأمير جوبان، و الأمير كجكن، و الأمير علم الدين سنجر الجاولى و غيرهم ليقيموا على الطّرقات لحفظها على من يخرج من الشام و غيره إلى الملك الناصر. و كتب إلى الملك المظفّر يستحثّه على إخراج عساكر مصر لتجتمع عنده مع عساكر دمشق على قتال الملك الناصر، و أنّه قد جدّد اليمين للمظفّر و حلّف أمراء دمشق ألّا يخونوه و لا ينصروا الملك الناصر. فلمّا قرأ المظفّر كتاب الأفرم اضطرب و زاد قلقه.

ثم ورد عليه كتاب الأمير برلغى من العبّاسة بأنّ مماليك الأمير آقوش الرومىّ تجمّعوا عليه و قتلوه و ساروا و معهم خزائنه إلى الملك

الناصر، و أنّه لحق بهم بعض أمراء الطبلخاناه فى جماعة من مماليك الأمراء و قد فسد الحال، و الرأى أن يخرج السلطان بنفسه.

فلمّا سمع الملك المظفّر ذلك أخرج تجريدة أخرى فيها عدّة أمراء أكابر، و هم:

الأمير بجاس و بكتوت و كثير من البرجيّة، ثم بعث إلى برلغى بألفى دينار و وعده بأنه عازم على التوجّه إليه بنفسه.

فلمّا ورد كتاب الملك المظفر بذلك و بقدوم التجريدة إليه عزم على الرحيل إلى جهة الكرك، فلمّا كان الليل رحل كثير ممّن كان معه يريدون الملك الناصر، فثنى عزمه عن الرحيل ثانيا، و كتب إلى المظفّر يقول: بأنّ نصف العسكر سار إلى الملك الناصر و خرج عن طاعة الملك المظفّر، ثم حرّض الملك المظفّر على الخروج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۲

بنفسه. و قبل أن يطلع الفجر من اليوم المذكور وصل إلى القاهرة الأمير بهادر جك بكتاب الأمير برلغى المذكور و طلع إلى السلطان، فلمّا قضى الملك المظفّر صلاة الصبح تقدّم إليه بهادرجك و عرّفه بوصول أكثر العسكر إلى الملك الناصر و ناوله الكتاب، فلمّا قرأه بيبرس تبسّم و قال: سلّم على الأمير برلغى، و قل له لا تخش من شىء، فإنّ الخليفة أمير المؤمنين قد عقد لنا بيعة ثانية و جدّد لنا عهدا، و قد قرئ على المنابر، و جدّدنا اليمين على الأمراء، و ما بقى أحد يجسر أن يخالف ما كتب به أمير المؤمنين! ثم دفع إليه العهد الخليفتى و قال: امض به إليه حتى يقرأه على الأمراء و الجند ثم يرسله إلىّ، فإذا فرغ من قراءته يرحل بالعساكر إلى الشام و جهّز له بألفى دينار أخرى، و كتب جوابه بنظير المشافهة، فعاد بهادر جك إلى برلغى.

فلمّا قرأ عليه الكتاب و انتهى إلى قوله: و أنّ أمير المؤمنين ولّانى توليـة جديدة و كتب لى عهدا و جدد لى بيعة ثانية، و فتح العهد فإذا أوّله: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فقال برلغى: و لسليمان الريح! ثم التفت إلى بهادر جك و قال له، قل له: يا بارد الذقن، و اللّه ما بقى أحد يلتفت إلى الخليفة، ثم قام و هو مغضب. و كان سبب تجديد العهد للملك المظفّر هذا أنّ الأفرم نائب الشام لمّا ورد كتابه على المظفّر أنه حلّف الأمراء بدمشق ثانيا، و بعث بالشيخ صدر الدين محمد ابن عمر [بن مكّى بن عبد الصمد الشهير بابن] المرحّل إلى الملك المظفّر فى الرسليّة، صار صدر الدين يجتمع به هو و ابن عدلان و صار الملك المظفّر يشغل وقته بهما، فأشارا عليه بتجديد العهد و البيعة و تحليف الأمراء، و أنّ ذلك يثبّت به قواعد ملكه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۳

ففعل الملك المظفّر ذلك، و حلف الأمراء بحضور الخليفة، و كتب له عهدا جديدا عن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسىّ. و نسخة العهد:

«إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ من عبد اللّه و خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أبى الربيع سليمان بن أحمد العبّاسىّ لأمراء المسلمين و جيوشها، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ و إنّى رضيت لكم بعبد اللّه تعالى الملك المظفّر ركن الدين نائبا عنى لملك الديار المصرية و البلاد الشاميّة، و أقمته مقام نفسى لدينه و كفاءته و أهليّته و رضيته للمؤمنين، و عزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك، و رأيت ذلك متعيّنا علىّ، و حكمت بذلك الحكّام الأربعة؛ و اعلموا، رحمكم اللّه، أنّ الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف و لا كابر عن كابر؛ و قد استخرت اللّه تعالى و ولّيت عليكم الملك المظفّر، فمن أطاعه فقد أطاعنى، و من عصاه فقد عصانى، و من عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمّى صلّى اللّه عليه و سلّم. و بلغنى أنّ الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شقّ العصاة على المسلمين و فرّق كلمتهم و شتّت شملهم و أطمع عدوّهم فيهم، و عرّض البلاد الشاميّة و المصريّة إلى سبى الحريم و الأولاد و سفك الدماء، فتلك دماء قد صانها اللّه تعالى من ذلك. و أنا خارج إليه و محاربه إن استمرّ على ذلك، و أدافع عن حريم المسلمين و أنفسهم و أولادهم لهذا الأمر العظيم، و أقاتله حتّى يفىء إلى أمر اللّه تعالى، و قد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافّة الخروج تحت لوائى اللّواء الشريف، فقد أجمعت الحكّام على وجوب دفعه و قتاله إن استمرّ على ذلك، و أنا مستصحب معى الملك المظفّر فجهّزوا أرواحكم و السلام».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۴

و قرئ هذا العهد على منابر الجوامع بالقاهرة، فلمّا بلغ القارئ إلى ذكر الملك الناصر صاحت العوامّ: نصره اللّه نصره اللّه! و كررت ذلك. و قرأ، فلمّا وصل إلى ذكر الملك المظفّر صاحوا: لا، ما نريده! و وقع فى القاهرة ضجّة و حركة بسبب ذلك.

انتهى.

ثم قدم على الملك المظفّر من الشام على البريد الأمير بهادر آص يحثّ الملك المظفر على الخروج إلى الشام بنفسه، فإن النوّاب قد مالوا كلّهم إلى الملك الناصر، فأجاب أن لا يخرج، و احتجّ بكراهيته للفتنة و سفك الدماء، و أنّ الخليفة قد كتب بولايته و عزل الملك الناصر فإن قبلوا و إلّا ترك الملك. ثم قدم أيضا الأمير بلاط بكتاب الأمير برلغى، و فيه أن جميع من خرج معه من أمراء الطبلخاناه لحقوا بالملك الناصر و تبعهم خلق كثير، و لم يتأخر غير برلغى و آقوش نائب الكرك و أيبك البغداديّ، و ألدكز و الفتّاح، و ذلك لأنّهم خواصّ الملك المظفّر.

و أمّا الملك الناصر فإنّه سار من الكرك بمن معه فى أوّل شعبان يريد دمشق بعد أمور وقعت له؛ نذكرها فى أوائل ترجمته الثالثة. فلمّا سار دخل فى طاعته الأمير قطلوبك المنصوريّ و الحاج بهادر و بكتمر الحساميّ حاجب حجّاب دمشق و علم الدين سنجر الجاولى. و صار الملك الناصر يتأنّى فى مسيره من غير سرعة حتّى يتبيّن ما عند أمراء دمشق الذين أخرجهم الأفرم لحفظ الطرقات قبل ذلك، فكتبوا أمراء دمشق المذكورون إلى الأفرم أنّه لا سبيل لهم إلى محاربة الملك الناصر، و أرادوا بذلك إمّا أن يخرج بنفسه فيقبضوه أو يسير عن دمشق إلى جهة أخرى فيأتيهم بقيّة الجيش و كان كذلك. فإنّه لما قدم كتابهم عليه بدمشق شارع بين الناس مجيء الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۵

الناصر من الكرك فثارت العوامّ و صاحوا. نصر اللّه الملك الناصر! و تسلّل عسكره من دمشق طائفة بعد طائفة إلى الملك الناصر، و انفرط الأمر من الأفرم و اتّفق الأمير بيبرس العلائى و الأمير بيبرس المجنون بمن معهما على الوثوب على الأفرم و القبض عليه، فلم يثبت عند ما بلغه ذلك، و استدعى علاء الدين [علىّ] بن صبيح، و كان من خواصّه و خرج ليلا و توجّه إلى جهة الشّقيف، فركب قطلو بك و الحاجّ بهادر عند ما سمعا خبر الأفرم، و توجّها إلى الملك الناصر، و كانا كاتباه بالدخول فى طاعته قبل ذلك، فسّر بهما و أنعم على كل واحد منهما بعشرة آلاف درهم؛ و قدم على الناصر أيضا الجاولى و جوبان و سائر من كان معهم، فسار بهم الملك الناصر حتى نزل الكسوة، و خرج إليه بقيّة الأمراء و الأجناد. و قد عمل له سائر شعار السلطنة من السناجق الخليفتيّة و السلطانيّة و العصائب و الجتر و الغاشية، و حلف العساكر و سار يوم الثلاثاء ثانى عشر شعبان يريد مدينة دمشق، فدخلها من غير مدافع بعد ما زيّنت له زينة عظيمة، و خرج جميع الناس إلى لقائه على اختلاف طبقاتهم حتى صغار الكتّاب، و بلغ كراء البيت من البيوت التى بميدان الحصى إلى قلعة دمشق للتفرّج على السلطان من خمسمائة درهم إلى مائة درهم، و فرشت الأرض بشقاق الحرير الملوّنة، و حمل الأمير قطلوبك المنصوريّ الغاشية، و حمل الأمير الحاج بهادر الجتر، و ترجّل الأمراء و العساكر بأجمعهم و مشوا بين يديه حتّى نزل بالقصر [الأبلق]؛ و فى وقت نزوله قدم مملوك الأمير قرا سنقر نائب حلب لكشف الخبر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۶

و أنّ قراسنقر خرج من حلب و قبجق خرج من حماة فخلع عليه و كتب لهما بسرعة الحضور إليه. ثم كتب إلى الأفرم أمانا و توجّه به علم الدين سنجر الجاولى، فلم يثق بذلك لما كان وقع منه فى حقّ الناصر لمّا قدم عليه تنكز، و طلب يمين السلطان فحلف السلطان له و بعث إليه نسخة الحلف. و كان قبل ذلك بعث الملك الناصر خازنداره و تنكز مملوكه إلى الأفرم هذا صحبة عثمان الركاب يستدعيه إلى طاعته بكلّ ما يمكن، ثم أمره الملك الناصر إن لم يطع يخشّن له فى القول، و كذلك كتب فى المطالعة التى على يد تنكز: أوّلها وعد و آخرها وعيد، فلمّا قرأ الأفرم الكتاب المذكور اسودّ وجهه من الغضب، ثم التفت إلى تنكز و قال: أنت و أمثالك

الذين حمّقوا هذا الصبيّ حتى كتب لى هذا الكتاب، ويلك! من هو الذى وافقه من أمراء دمشق على ذلك! و كان الناصر قد كتب له فى جملة الكلام أنّ غالب أمراء البلاد الشاميّة أطاعونى، و كان الأفرم لما حضر إليه تنكز قبل أن يقرأ الكتاب جمع أمراء دمشق ثم قرا الكتاب، فلمّا وصل إلى ذلك، قال الأفرم، قل لى: من هو الذى أطاعه حتى أقبض عليه و أرسله إلى مصر؟ فنظر أمراء دمشق بعضهم إلى بعض و أمعن الأفرم فى الكلام؛ فقام الأمير بيبرس المجنون و قال: ما هذا الكلام مصلحة، تجاوب ابن استاذك بهذا الجواب! و لكن لاطفه و قل له: أنت تعلم أنّنا متّبعون مصر و ما يبرز منها، فإن أردت الملك فاطلبه من مصر، و لا تبتلش بنا و ارجع عنّا، و ذكر له أشياء من هذا النّمط؛ فقال الأفرم: أنا ما أقول هذا الكلام، و ليس له عندى إلّا السيف إن جاءنا! ثم طلب الأفرم تنكز فى خلوة و قال له: سر إلى أستاذك و قل له: يرجع، و إلّا يسمع الملك المظفّر فيمسكك و يحبسك، فتبقى تمنّى أن تشبع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٦٧

الخبز! و لا ينفعك حينئذ أحد، فإن كان لك رأى فاقبض على نوغيه و من معه و سيّرهم للملك المظفّر، فإن فعلت ذلك يصلح حالك، و لا تفعل غير هذا تهلك. و كتب له كتابا بمعنى هذا و دفعه إلى تنكز، فلم يخرج تنكز من دمشق إلى أثناء الطريق حتى خرج فى أثره جماعة من أمراء دمشق إلى طاعة الناصر. و كان كلام الأفرم لتنكز أكبر الأسباب لخروج الملك الناصر من الكرك إلى دمشق، فلما قدم الناصر دمشق و كتب الأمان للافرم فتخوف الأفرم مما كان وقع منه من القول لمّا قدم عليه تنكز و طلب الحلف. انتهى.

و قال بيبرس فى تاريخه: و أرسل السلطان إلى الأفرم رسلا بالأمان و الأيمان، و هما الأميران عزّ الدين أيدمر الزّردكاش و الأمير سيف الدين جوبان. و قال غيره: بعث إليه السلطان نسخة الحلف مع الأمير الحاج أرقطاى الجمدار، فما زال به حتى قدم معه هو و ابن صبيح، فركب السلطان إلى لقائه حتى قرب منه نزل كلّ منهما عن فرسه، فاعظم الأفرم نزول السلطان له و قبل الأرض، و كان الأفرم قد لبس كامليّة و شدّ وسطه و توشّح بنصفيه (يعنى أنه حضر بهيئة البطالين من الأمراء) و كفنه تحت إبطه، و عند ما شاهدته الناس على هذه الحالة صرخوا بصوت واحد: يا مولانا السلطان، بتربة والدك الملك الشهيد قلاوون لا تؤذه و لا تغيّر عليه! فبكى سائر من حضر، و بالغ السلطان فى إكرامه و خلع عليه و أركبه و أقرّه على نيابة دمشق، فكثر الدعاء له و سار إلى القصر. فلما كان من الغد أحضر الأفرم خيلا و جمالا و ثيابا بمائتى ألف درهم تقدمة إلى السلطان الملك الناصر. و فى يوم الجمعة ثانى عشرين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٦٨

شعبان خطب للملك الناصر بدمشق و انقطع منها اسم المظفّر، و صليت الجمعة بالميدان فكان يوما مشهودا؛ و فى ذلك اليوم قدم الأمير قراسنقر نائب حلب، و الأمير قبجق نائب حماة، و الأمير أسندمر كرجى نائب طرابلس، و تمر السّاقى نائب حمص، فركب السلطان إلى لقائهم و ترجّل إلى قراسنقر و عانقه و شكر الأمراء و أثنى عليهم؛ ثم قدم الأمير كراى المنصورىّ نائب القدس و الأمير بكتمر الجوكندار نائب صفد، ثم قدّم كلّ من الأمراء و النوّاب تقدمته بقدر حاله ما بين ثياب أطلس و حوائص ذهب و كلفتاة زركش و خيول مسرجة، فى عنق كل فرس كيس فيه ألف دينار و عليه مملوك، و عدّة بغال و جمال بخاتىّ و غير ذلك. و شرع الملك الناصر فى النفقة على الأمراء و العساكر الواردة عليه مع النوّاب. فلما انتهت النفقة قدم بين يديه الأمير كراى المنصورىّ على عسكره إلى غزّة فسار إليها، و صار كراى يمدّ فى كلّ يوم سماطا عظيما للمقيمين و الواردين عليه، فأنفق فى ذلك أموالا جزيلة من حاصله، و اجتمع عليه بغزّة عالم كثير و هو يقوم بكلفهم و يعدهم عن السلطان بما يرضيهم.

و أما الملك المظفّر فإنه قدم عليه الخبر فى خامس عشرين شعبان باستيلاء الملك الناصر على دمشق بغير قتال، فعظم ذلك على الملك المظفّر و أظهر الذلّة، و خرجت عساكر مصر شيئا بعد شىء تريد الملك الناصر حتى لم يبق عنده بالديار المصرية سوى خواصّه من الأمراء و الأجناد.

و أمّا الأمير برلغى و من معه من الأمراء صار عساكرهم تتسلّل واحدا بعد واحد حتى بقى برلغى فى مماليكه و جماعة من خواصّ

الملك المظفّر بيبرس، فتشاور برلغى مع جماعته حتى اقتضى رأيه و رأى آقوش نائب الكرك اللّحاق بالملك الناصر أيضا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۶۹

فلم يوافق على ذلك البرجيـة، و عاد أيبك البغـدادىّ و بكتوت الفتّاح و قجقار ببقيـة البرجيـة إلى القاهرة، و صاروا مع الملك المظفّر بيبرس، و سار برلغى و آقوش إلى الملك الناصر فيمن بقى من الأمراء و العساكر، فاضطربت القاهرة لذلك.

و كان الملك المظفّر قـد أمّر فى مسـتهلّ شـهر رمضان سـبعة و عشـرين أميرا ما بين طبلخاناه و عشـرات، منهم من مماليكه: صـديق و صنقيجى و طوغـان و قرمـان و إغزلو و بهـادر؛ و من المماليـك السـلطانية سـبعة و هم: قراجا الحسامىّ و طرنطاى المحمّـدى و بكتمر الساقى و بهادر قبجاق و انكبار و طشـتمر أخو بتخاص و لاچين؛ و ممن عـداهم جركتمر بن بهادر و حسن بن الردادى، و نزلوا الجميع إلى المدرسـة المنصوريـة ليلبسوا الخلع على جارى العادة، و اجتمع لهم النقباء و الحجّاب و العامّة بالأسواق ينتظرون طلوعهم القلعة، و كـلّ منهم بقى لابـس الخلعـة، فـاتّفق أن شـخصا من المنجّمين كان بين يـدى النائب سـلّار، فرأى الطالع غير موافق، فقال: هـذا الوقت ركوبهم غير لائق، فلم يلتفت بعضهم و لبس و ركب فى طلبه، فاستبردوهم العوامّ و قالوا:

ليس له حلاوة، و لا عليه طلاوة؛ و صار بعضهم يصيح و يقول: يا فرحة لا تمّت.

ثم أخرج الملك المظفّر عدّة من المماليك السلطانية إلى بلاد الصـعيد و أخذ أخبازهم، و ظنّ الملك المظفّر أنه ينشئ له دولة، فلما بلغه مسير برلغى و آقوش نائب الكرك إلى الملك الناصر سقط فى يده و علم زوال ملكه، فإن برلغى كان زوج ابنته و أحد خواصّه و أعيان دولته، بحيث إنّه أنعم عليه فى هذه الحركة بتيف و أربعين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۰

ألف دينار مصريّة، و قيل: سـبعين ألف دينار. و ظهر عليه اختلال الحال، و أخـذ خواصّه فى تعنيفه على إبقاء سـلّار النائب و أنّ جميع هذا الفساد منه، و كان كذلك.

فـإنّه لمـا فاتته السـلطنة و قام بيبرس فيها حسـده على ذلك و دبّر عليه، و بيبرس فى غفلـة عنه، فإنّه كان سـليم الباطن لا يظنّ أنّ سـلّار يخونه. ثم قبض الملك المظفّر ليلة الجمعة على جماعة من العوامّ، و ضربوا و شهّروا لإعلانهم بسبّ الملك المظفّر بيبرس؛ فما زادهم ذلك إلّا طغيانا! و فى كلّ ذلك تنسب البرجية فساد الأمور لسـلّار، فلمّا أكثر البرجية الإغراء بسلّار قال لهم الملك المظفّر: إن كان فى خاطركم شـىء فـدونكم و إياه إذا جاء سـلّار للخدمـة؛ و أما أنا فلا أتعرّض له بسوء قطّ، فاجتمعت البرجيّة على قبض سـلار إذا حضـر الخدمـة فى يوم الاثنين خامس عشـره، فبلغ سـلّار ذلك، فتأخّر عن حضور الخدمـة و احترس على نفسه، و أظهر أنّه قد توعّك، فبعث الملك المظفّر يسلّم عليه و يستدعيه ليأخذ رأيه، فاعتذر بأنه لا يطيق الحركة لعجزه عنها.

فلمّا كان يوم الثلاثاء سادس عشـر رمضان اسـتدعى الملك المظفّر الأمراء كلّهم و اسـتشارهم فيما يفعل، فأشار الأمير بيبرس الـدّوادار المؤرّخ و الأمـير بهادر آص بنزوله عن الملك و الإشـهاد عليه بـذلك كما فعله الملك الناصـر، و تسيّر إلى الملك الناصـر بـذلك و تسـتعطفه و تخرج إلى إطفيح بمن تثق به و تقيم هناك حتى يرد جواب الملك الناصر عليك، فأعجبه ذلك و قام ليجهّز أمره، و بعث بالأمير ركن الدين بيبرس الدّوادار المذكور إلى الملك الناصـر محمد يعرّفه بما وقع. و قيل: إنّه كتب إلى الملك الناصر يقول مع غير بيبرس الدوادار: و الذى أعرّفك به أنّى قد رجعت أقلّدك بغيك، فإن حبستنى عددت ذلك خلوة، و إن نفيتنى عددت ذلك سياحة، و إن قتلتنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۱

كان ذلك لى شهادة؛ فلمّا سمع الملك الناصر ذلك، عيّن له صهيون على ما نذكره.

و أمّا ما كتبه المظفّر على يد بيبرس الدوادار يسأله فى إحدى ثلاث: إمّا الكرك و أعمالها، أو حماة و بلادها، أو صهيون و مضافاتها.

ثم اضـطربت أحوال المظفّر و تحيّر و قـام و دخـل الخزائن و أخـذ من المـال و الخيل ما أحبّ، و خرج من يومه من باب الإسـطبل فى

مماليكه و عدّتهم سبعمائة مملوك، و معه من الأمراء: الأمير عزّ الدين أيدمر الخطيريّ الأستادار، و الأمير بكتوت الفتّاح و الأمير سيف الدين قجماس و الأمير سيف الدين تاكز فى بقية ألزامه من البرجيّة، فكأنّما نودى فى الناس بأنّه خرج هاربا، فاجتمع العوامّ، و عند ما برز من باب الإسطبل صاحوا به و تبعوه و هم يصيحون عليه بأنواع الكلام، و زادوا فى الصياح حتّى خرجوا عن الحدّ، و رماه بعضهم بالحجارة. فشقّ ذلك على مماليكه و همّوا بالرجوع إليهم و وضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفّر من ذلك، و أمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه، فأحرج كلّ من المماليك حفنة من الذهب و نثرها، فلم يلتفت العامّة لذلك و تركوه و أخذوا فى العدو خلفه و هم يسبّون و يصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم و رجعوا إلى العوامّ فانهزموا منهم. و أصبح الحرّاس بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان يصيحون باسم الملك الناصر، و أسقط اسم الملك المظفّر بإشارة الأمير سلّار بذلك، فإنّه أقام بالقلعة و مهّد أمورها بعد خروج المظفّر إلى إطفيح. و فى يوم الجمعة تاسع عشره خطب على منابر القاهرة و مصر باسم الملك الناصر، و أسقط اسم الملك المظفّر بيبرس هذا و زال ملكه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۲

و أمّا الملك المظفّر فإنّه لما فارق القلعة أقام بإطفيح يومين ثم اتّفق رأيه و رأى أيدمر الخطيرى و بكتوت الفتّاح إلى المسير إلى برقة و قيل بل إلى أسوان، فأصبح حاله كقول القائل:

موكّل ببقاع الأرض يذرعها من خفّة الرّوع لا من خفّة الطّرب

و لمّا بلغ مماليك الملك المظفّر هذا الرأى عزموا على مفارقته. فلمّا رحل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئا بعد شيء إلى القاهرة، فما وصل المظفّر إلى إخميم حتّى فارقه أكثر من كان معه، فعند ذلك انثنى عزمه عن التوجّه إلى برقة، و تركه الخطيريّ و الفتّاح و عادا نحو القاهرة. و بينما هو سائر قدم عليه الأميران: بيبرس الدّوادار و بهادر آص من عند الملك الناصر ليتوجّه إلى صهيون بعد أن يدفع ما أخذه من الخزائن، فدفع المظفّر المال بأجمعه إلى بيبرس الدّوادار، فأخذ بيبرس المال و سار به فى النيل إلى الملك الناصر و هو بقلعة الجبل، و قدم بهادر آص فى البرّ بالملك المظفّر و معه كاتبه كريم الدين أكرم، و سأل المظفّر فى يمين السلطان مع من يثق به، فحلف له الملك الناصر بحضرة الأمراء و بعث إليه بذلك مع أيتمش المحمّدى؛ فلمّا قدم عليه أيتمش بالغ المظفّر فى إكرامه و كتب الجواب بالطاعة و أنّه يتوجّه إلى ناحية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۳

السّويس، و أنّ كريم الدين يحضر بالخزانة و الحواصل التى أخذها، فلم يعجب السلطان ذلك، و عزم على إخراج تجريدة إلى غزّة ليردّوه، و أطلع على ذلك بكتمر الجوكندار النائب و قراسنقر نائب دمشق و الحاج بهادر و أسندمر نائب طرابلس.

فلمّا كان يوم الخميس الذى قبض فيه الملك الناصر على الأمراء- على ما سيأتى ذكره مفصّلا فى أوّل ترجمة الملك الناصر الثالثة إن شاء اللّه تعالى- جلس بعض المماليك الأشرفيّة خارج القلعة، فلمّا خرج الأمراء من الخدمة قال: و أىّ ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم! و هذا الذى قتل أستاذنا الملك الأشرف، و دمه الآن على سيفه، قد صار اليوم حاكم المملكة (يعنى عن قراسنقر)، فقيل هذا لقراسنقر، فخاف على نفسه و أخذ فى عمل الخلاص من مصر، فالتزم للسلطان أنّه يتوجّه و يحصّل الملك المظفّر بيبرس هو و الحاج بهادر نائب طرابلس من غير إخراج تجريدة فإن فى بعث الأمراء لذلك شساعة، فمشى ذلك على السلطان و رسم بسفرهما، فخرج قراسنقر و معه سائر النوّاب إلى ممالكهم، و عوّق السلطان عنده أسندمر كرجى و قد استقرّ به فى نيابة حماة، و سار البقية. ثم جهّز السلطان أسندمر كرجى لإحضار المظفّر مقيّدا. و اتّفق دخول قراسنقر و الأمراء إلى غزّة قبل وصول المظفّر إليها؛ فلمّا بلغهم قربه ركب قراسنقر و سائر النوّاب و الأمراء و لقوه شرقىّ غزّة و قد بقى معه عدّة من مماليكه و قد تأهّبوا للحرب، فلبس الأمراء السلاح ليقاتلوهم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۴

فأنكر المظفّر على مماليكه تأهّبهم للقتال و قال: أنا كنت ملكا، و حولى أضعافكم ولى عصبة كبيرة من الأمراء، و ما اخترت سفك

الدماء! و ما زال بهم حتّى كفّوا عن القتال، و ساق هو بنفسه حتّى بقى مع الأمراء و سلّم نفسه إليهم؛ فسلّموا عليه و ساروا به إلى معسكرهم و أنزلوه بخيمة، و أخذوا سلاح مماليكه و وكّلوا بهم من يحفظهم؛ و أصبحوا من الغد عائدين بهم معهم إلى مصر، فأدركهم أسندمر كرجى بالخطّارة فأنزل فى الحال المظفّر عن فرسه و قيّده بقيد أحضره معه، فبكى و تحدّرت دموعه على شيبته، فشقّ ذلك على قراسنقر و ألقى الكلفتاة عن رأسه إلى الأرض و قال: لعن اللّه الدنيا، فيا ليتنا متنا و لا رأينا هذا اليوم! فترجّلت الأمراء و أخذوا كلفتاته و وضعوها على رأسه. هذا مع أنّ قراسنقر كان أكبر الأسباب فى زوال دولة المظفّر المذكور! و هو الذى جسّر الملك الناصر حتّى كان من أمره ما كان.

ثم عاد قراسنقر و الحاج بهادر إلى محلّ كفالتهما، و أخذ بهادر يلوم قراسنقر كيف خالف رأيه! فإنّه كان أشار على قراسنقر فى اللّيل بعد القبض على المظفّر بأن يخلّى عن المظفّر حتّى يصل إلى صهيون، و يتوجّه كلّ منهما إلى محلّ ولايته، و يخيفا الملك الناصر بأنّه متى تغيّر عمّا كان وافق الأمراء عليه بدمشق قاموا بنصرة المظفّر و إعادته إلى الملك، فلم يوافق قراسنقر، و ظنّ أنّ الملك الناصر لا يستحيل عليه و لا على المظفّر. فلمّا رأى ما حلّ بالمظفر ندم على مخالفة بهادر. و بينما هما فى ذلك بعث أسندمر كرجى إلى قراسنقر مرسوم السلطان بأن يحضر صحبة المظفّر إلى القلعة، و كان عزم الناصر أن يقبض عليه: ففطن قراسنقر بذلك و امتنع من التوجّه إلى مصر، و اعتذر بأنّ العشير قد تجمّعوا و يخاف على دمشق منهم، و جدّ فى السير و عرف أنّه ترك الرأى فى مخالفة بهادر! فقدم أسندمر بالمظفّر إلى القلعة فى ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٧٥

الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة، فلمّا مثل المظفّر بين يدى السلطان قبّل الأرض، فأجلسه و عنّفه بما فعل به و ذكّره بما كان منه إليه، و عدّد ذنوبه، و قال له: تذكر و قد صحت علىّ يوم كذا بسبب فلان! و رددت شفاعتى فى حقّ فلان! و استدعيت بنفقة فى يوم كذا من الخزانة فمنعتها! و طلبت فى وقت حلوى بلوز و سكّر فمنعتنى، ويلك! و زدت فى أمرى حتّى منعتنى شهوة نفسى، و المظفّر ساكت. فلما فرغ كلام السلطان قال له المظفّر: يا مولانا السلطان، كلّ ما قلت فعلته، و لم يبق إلّا مراحم السلطان، و إيش يقول المملوك لأستاذه! فقال له:

يا ركن، أنا اليوم أستاذك! و أمس تقول لما طلبت إوزّا مشويّا: إيش يعمل بالإوزّ! الأكل هو عشرون مرّة فى النهار! ثم أمر به إلى مكان و كان ليلة الخميس، فاستدعى المظفّر بوضوء و قد صلّى العشاء. ثم جاء السلطان الملك الناصر فخنق بين يديه بوتر حتى كاد يتلف، تم سيّبه حتى أفاق و عنّفه و زاد فى شتمه، ثم خنقه ثانيا حتى مات و أنزل على جنوية إلى الإسطبل السلطانىّ فغسل و دفن خلف قلعة الجبل، و ذلك فى ليلة الجمعة خامس عشر ذى القعدة سنة تسع و سبعمائة. و كانت أيام المظفّر هذا فى سلطنة مصر عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما لم يتهنّ فيها من الفتن و الحركة.

و كان المظفّر لمّا خرج من مصر هاربا قبل دخول الملك الناصر. قال بعض الأدباء:

تثنّى عطف مصر حين وافى قدوم الناصر الملك الخبير

فذلّ الجشنكير بلا لقاء و أمسى و هو ذو جأش نكير

إذا لم تعضد الأقدار شخصا فأوّل ما يراع من النّصير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج٨، ص: ٢٧٦

و قال النّويرىّ فى تاريخه: و لمّا وصلوا بالمظفّر ببيرمن إلى السلطان الناصر أوقفه بين يديه و أمر بدخوله الحمّام، و خنق فى بقية من يومه و دفن بالقرافة و عفّى أثر قبره مدّة، ثم أمر بانتقاله إلى تربته بالخانقاه التى أنشأها فنقل إليها. و كان بيبرس هذا ابتدأ بعمارة الخانقاه و التربة داخل باب النصر موضع دار الوزارة فى سنة ست و سبعمائة، و أوقف عليها أوقافا جليلة، و لكنّه مات قبل تمامها، فأغلقها الملك الناصر مدّة ثم فتحها. انتهى كلام النّويرىّ.

و كان الملك المظفّر ملكا ثابتا كثير السكون و الوقار، جميل الصفات، ندب إلى المهمّات مرارا عديدة، و تكلّم فى أمر الدولة مدّة سنين، و حسنت سيرته، و كان يرجع إلى دين و خير و معروف، تولّى السلطنة على كره منه، و له أوقاف على وجوه البرّ و الصدقة، و عمّر ما هدم من الجامع الحاكمى داخل باب النصر، بعد ما شعّثته الزلازل. و كان من أعيان الأمراء فى الدولة المنصوريّة قلاوون أستاذه، ثم فى الدولة الأشرفية خليل، و الدولة الناصرية محمد بن قلاوون.

و كان أبيض اللون أشقر مستدير اللّحية، و هو جاركسىّ الجنس على ما قيل.

و لم يتسلطن أحد من الجراكسة قبله و لا بعده إلى الملك الظاهر برقوق؛ و قيل إنه كان تركيا، و الأقوى عندى أنه كان جاركسيّا، لأنه كان بينه و بين آقوش الأفرم نائب الشام مودّة و محبّة زائدة، و قيل قرابة، و كان الأفرم جاركسىّ الجنس. انتهى.

و استولى السلطان الملك الناصر على جميع تعلّقاته، و استقدم كاتبه كريم الدين أكرم بن المعلّم بن السديد، فقدم على الملك الناصر بأموال المظفّر بيبرس و حواصله،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۷

فقرّبه السلطان و أثنى عليه و وعده بكلّ جميل إن أظهره على ذخائر المظفّر بيبرس.

فنزل كريم الدين إلى داره و تتبع أموال بيبرس و بذل جهده فى ذلك، ثم انتمى كريم الدين إلى طغاى و كستاى و أرغون الدّوادار الناصرية، و بذل لهم مالا كثيرا حتى صاروا أكبر أعوانه، و حموه من أستاذهم الملك الناصر، ثم قدم من كان مع المظفّر بيبرس من المماليك و معهم الهجن و الخيل و السلاح، و مبلغ مائتى ألف درهم و عشرين ألف دينار، و ستون بقجة من أنواع الثياب، فأخذ السلطان جميع ذلك، و فرّق المماليك على الأمراء ما خلا بكتمر الساقى لجمال صورته و طوغان الساقى و قراتمر.

ثم استدعى الملك الناصر القضاة و أقام عندهم البيّنة بأن جميع مماليك المظفّر بيبرس و سلّار، و جميع ما وقفاه من الضّياع و الأملاك اشترى من بيت المال. فلمّا ثبت ذلك ندب السلطان جمال الدين آقوش الأشرقىّ نائب الكرك، و كريم الدين أكرم لبيع تركة المظفّر بيبرس و إحضار نصف ما يتحصّل، و دفع النصف الآخر لابنة المظفّر زوجة الأمير برلغى الأشرفىّ، فإنّ المظفّر لم يترك من الأولاد سواها، فشدّد كريم الدين الطلب على زوجة المظفّر و ابنته حتى أخذ منهما جواهر عظيمة القدر، و ذخائر نفيسة؛ ثم تابع موجود المظفّر فوجد له شيئا كثيرا.

السنة التى حكم فى أوّلها الملك المظفّر بيبرس الجاشنكير على مصر إلى شهر رمضان، ثم حكم فى باقيها الملك الناصر محمد بن قلاوون، و هى سنة تسع و سبعمائة، على أن الملك المظفّر بيبرس حكم من السنة الماضية أياما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۸

فيها (أعنى سنة تسع و سبعمائة) كانت الفتنة بين السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون و بين الملك المظفّر بيبرس. حسب ما تقدّم ذكره مفصّلا حتى خلع المظفّر و أعيد الناصر.

و فيها كانت الفتنة أيضا بالمدينة النبوية بين الشريف مقبل بن جمّاز بن شيحة و بين [كبيش ابن] أخيه منصور بن جمّاز، و كان مقبل قدم القاهرة فولّاه المظفّر نصف إمرة المدينة شريكا لأخيه منصور، فتوجّه إليها فوجد منصورا بنجد و قد ترك ابنه كبيشة بالمدينة، فأخرجه مقبل فحشد كبيشة و قاتل مقبلا حتى قتله، و انفرد منصور بإمرة المدينة.

و فيها كتب السلطان الملك الناصر لقرا سنقر نائب الشام بقتال العشير.

و فيها أظهر خربندا ملك التّتار الرّفض فى بلاده و أمر الخطباء ألّا يذكروا فى خطبهم إلّا علىّ بن أبى طالب و ولديه و أهل البيت.

و فيها حجّ بالناس من القاهرة الأمير شمس الدين إلدكز السلاح دار و لم يحجّ أحد من الشام لاضطراب الدولة.

و فيها توفّى الأمير الوزير شمس الدين سنقر الأعسر المنصورىّ بالقاهرة فى شهر ربيع الأوّل و دفن خارج باب النصر بعد ما استعفى و لزم داره مدّة.

و فيها توفى قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبد الغنى بن يحيى [بن محمد بن أبى بكر] بن عبد اللّه بن نصر [بن محمد] بن أبى بكر الحرّانىّ الحنبلىّ فى ليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۷۹

الجمعة الرابع و العشرين من شهر ربيع الأوّل و دفن بالقرافة. و مولده بحرّان فى سنة خمس و أربعين و ستمائة، و سمع الحديث و تفقّه و قدم مصر فباشر نظر الخزانة و تدريس الصالحيّة ثم أضيف إليه قضاء الحنابلة، فباشره و حمدت سيرته.

و فيها توفّى الشيخ نجم الدين محمد بن إدريس بن محمد القمولىّ الشافعىّ بقوص فى جمادى الأولى، و كان صالحا عالما بالتفسير و الفقه و الحديث.

و فيها توفّى الأمير سيف الدين طغريل بن عبد اللّه الإيغانىّ بالقاهرة فى عاشر شهر رمضان، و كان من كبار الأمراء و أعيان الديار المصريّة.

و فيها توفّى الأمير عزّ الدين أيبك الخازندار فى سابع شهر رمضان بالقاهرة، و كان من أعيان أمراء مصر.

و فيها توفّى متملّك تونس من بلاد الغرب الأمير أبو عبد اللّه محمد المعروف بأبى عصيدة بن يحيى الواثق ابن محمد المستنصر ابن يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص فى عاشر شهر ربيع الآخر. و كانت مدّة ملكه أربع عشرة سنة و أربعة أشهر، و تولّى بعده الأمير أبو بكر بن أبى يزيد عبد الرحمن بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الواحد المدعوّ بالشهيد، لأنّه قتل ظلما بعد ستة عشر يوما من ملكه، و بويع بعده أيضا أبو البقاء خالد بن يحيى بن إبراهيم.

و فيها توفّى الوزير التاج أبو الفرج بن سعيد الدولة فى يوم السبت ثانى شهر رجب، و كان عند الملك المظفّر بيبرس بمكانة عظيمة، و لمّا تسلطن بيبرس قرّره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۰

مشيرا، فكانت تحمل إليه فوطة العلامة فيمضى منها ما يختاره، و يكتب عليه «عرض» فإذا رأى المظفّر خطّه علّم و إلّا فلا، و لم يزل على ذلك حتى بعث إليه الأمير آقوش الأفرم نائب الشام يهدّده بقطع رأسه فامتنع. و كان الأفرم صار يدبّر غالب أمور الديار المصريّة و هو بدمشق، لأنه كان خشداش المظفّر بيبرس و خصيصا به و القائم بدولته، و المعاند للناصر و غيره من نوّاب البلاد الشاميّة، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى ترجمة الملك المظفّر بيبرس.

و فيها توفّى الشيخ القدوة العارف باللّه تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عطاء اللّه السّكندرىّ المالكىّ الصوفى الواعظ المذكّر المسلّك بالقاهرة فى جمادى الآخرة و دفن بالقرافة، و قبره معروف بها، يقصد للزيارة. و كان رجلا صالحا عالما يتكلّم على كرسىّ و يحضر ميعاده خلق كثير، و كان لوعظه تأثير فى القلوب، و كان له معرفة تامّة بكلام أهل الحقائق و أرباب الطريق، و كان له نظم حسن على طريق القوم، و كانت جنازته مشهودة حفلة إلى الغاية. و من شعره قصيدة أوّلها:

يا صاح إنّ الركب قد سار مسرعا و نحن فعود ما الذى أنت صانع

أ ترضى بأن تبقى المخلّف بعدهم صريع الأمانى و الغرام ينازع

و هذا لسان الكون ينطق جهرة بأنّ جميع الكائنات قواطع

و فيها توفّى القاضى عزّ الدين عبد العزيز ابن القاضى شرف الدين محمد [بن فتح الدين عبد اللّه بن محمد بن أحمد بن خالد] بن القيسرانىّ أحد كتّاب الدّرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۱

و مدرس الفخرية فى ثامن صفر بالقاهرة، و دفن عند والده بالقرافة، و كان من أعيان الموقّعين هو و والده و جدّه، و مات و له دون الأربعين سنة، و كان له فضيلة و نظم و نثر. و من شعره فى ردّ جواب:

جاء الكتاب و من سواد مداده مسك و من قرطاسه الأنوار

فتشرّف الوادى به و تعطّرت أرجاؤه و أنارت الأقطار

قلت و أين هذا من قول البارع جمال الدين محمد بن نباتة المصرىّ، حيث يقول فى هذا المعنى:

أفديه من ملك يكاتب عبده بأحرفه اللّاتى حكتها الكواكب

ملكت بها رقّى و أنحلنى الأسى فهأنذا عبد رقيق مكاتب

و الشيخ علاء الدين علىّ بن محمد [بن عبد الرحمن] العبىّ رحمه اللّه:

أهلتنى لجواب ما كان ظنّى أجاوب

لكنّنى عبد رقّ مدبّر و مكاتب

و فيها توفّى القاضى بهاء الدين عبد اللّه ابن نجم الدين أحمد بن على ابن المظفّر المعروف بابن الحلّى ناظر ديوان الجيش المنصور، و استقرّ عوضه القاضى فخر الدين صاحب ديوان الجيش.

و فيها توفّى الأديب إبراهيم بن علىّ بن خليل الحرّانى المعروف بعين بصل. كان شيخا حائكا أناف على الثمانين، و كان عامّيّا مطبوعا، و قصده ابن خلّكان و استنشده من شعره فقال: أمّا القديم فلا يليق إنشاده، و أمّا نظم الوقت الحاضر فنعم، و أنشده بديها:

و ما كلّ وقت فيه يسمح خاطرى بنظم قريض رائق اللفظ و المعنى

و هل يقتضى الشرع الشريف تيمّما بترب و هذا البحر يا صاحبى معنا

فقال له ابن خلّكان. أنت عين بصر، لا عين بصل. انتهى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم تأخّر و تأخّرت الزيادة إلى أن دخل شهر مسرى و وقع الغلاء و استسقى الناس، فنودى بزيادة ثلاث أصابع، ثم توقّفت الزيادة و نقص فى أيام النّسىء، ثم زاد حتى بلغ فى سابع عشرين توت خمس عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا، و فتح خليج السدّ، بعد ما كان الوفاء فى تاسع عشر بابه، بعد النّوروز بتسعة و أربعين يوما. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة ستّ عشرة ذراعا و إصبعين. و كان ذلك فى أوائل سلطنة المظفّر بيبرس الجاشنكير. فتشاءم الناس بكعبه و أبغضته العامّة.

انتهى الجزء الثامن من النجوم الزاهرة، و يليه الجزء التاسع، و أوّله:

ذكر عود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر ثالث مرّة

تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثريّة على اختلاف أنواعها، و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تعيين و تحديد مواضعها هى من وضع حضرة الأستاذ محمد رمزى بك المفتش بوزارة المالية سابقا و عضو المجلس الأعلى لإدارة حفظ الآثار العربية. كالتعليقات السابقة فى الأجزاء الماضية. فنسدى إليه جزيل الشكر و نسأل اللّه جلّت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

استدراكات على بعض تعليقات وردت فى الجزء السابع من هذا الكتاب لحضرة الأستاذ محمد رمزى بك

زاوية الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر

بما أن الشرح الخاصّ بوصف هذه الزاوية الوارد فى صفحة ٣٨٤ من الجزء السابع من هذه الطبعة جاء غير واف فأضيف إليه ما يأتى: ذكرت فى التعليق السابق لهذه الزاوية أنها اندثرت، و الصواب أنها خربت لأنه لا يزال يوجد من مبانيها بقايا بابها و الحائط الشمالى الشرقى و الحائط الذى فيه المحراب. و مكانها اليوم أرض مشغولة بالمقابر. و علاوة على ما سبق ذكره فى التعليق السابق فإن هذه

الزاويـة واقعة فى الشـمال الغربى لجامع السادات الوفائية على بعد مائتى متر منه و يجاورها قاعة بها ضـريح الشـيخ أبى السـعود بن أبى العشائر رحمه اللّه.

الحد الذى كان ينتهى عنده النيل على شاطئه الشرقى تجاه مدينتى مصر القديمة و القاهرة وقت فتح العرب لمصر

بيّنت فى الاسـتدراك الخـاصّ بقنطرة عبـد العزيز بن مروان الوارد فى صـفحة ۳۸۷ من الجزء السـابع من هـذه الطبعـة موقع فم الخليج المصرى، و النقطة التى كان يأخذ منها مياهه من النيل وقت فتح العرب لمصر. و قد فاتنى أن أبيّن لقرّاء النجوم الزاهرة الحد الذى كان ينتهى عنـده النيل على شاطئه الشـرقى تجاه مـدينتى مصـر القديمة و القاهرة فى ذاك الوقت، و لهذا أسـتدرك ما فاتنى إتماما للفائدة المطلوبة من التعليقات فأقول:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۴

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ۳۴۳ ج ۱) و على المنشأة (ص ۳۴۵ ج ۱) و على أبواب مدينة مصـر (ص ۳۴۷ ج ۱) و على منظرة المقس (ص ۳۸۰ ج ۱) و على ظواهر القـاهرة المعزيّـة (ص ۱۰۸ ج ۲) و على برّ الخليج الغربى (ص ۱۱۳ ج ۲) و على اللوق (ص ۱۱۷ ج ۲) و على المقس (ص ۱۲۱ ج ۲) و على بولاق (ص ۱۳۰ ج ۲) و على قنطرة السد (ص ۱۴۶ ج ۲) و على قنطرة باب البحر (ص ۱۵۱ ج ۲) و على جزيرة الفيل (ص ۱۸۵ ج ۲)، و على صناعة مصر (ص ۱۹۷ ج ۲) و على الميدان الناصـرى (ص ۲۰۰ ج ۲)، و يسـتفاد أيضـا مما ورد فى حوادث سـنة ۶۸۰ ه المـذكورة فى كتـاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بريـد (ص ۳۰۷ ج ۷) و مما هو مبيّن على خريطـة الحملة الفرنسـية الموضوعة سـنة ۱۸۰۰؛ يسـتفاد من كلّ ما سـبق ذكره، و من المباحث التى أجريتها أن شاطىء النيل الشرقى الأصلى القديم تجاه مدينة مصر و القاهرة كان وقت فتح العرب لمصر واقعا فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية:

كان النيل بعـد أن يمرّ على سـكن ناحية أثر النّبىّ جنوبى مصـر القديمة يسـير إلى الشـمال بجوار شارع أثر النبى إلى أن يتلاقى بسـكة حديد حلوان عند محطة المدابغ، فيسـير النيل بجواز هذه السـكة إلى أن يتقابل بشارع مارى جرجس فيسير محاذيا له من الجهة الغربية مارّا تحت قصـر الشـمع (الكنيسة المعلقة بمصـر القديمة) و جامع عمرو، ثم يسير محاذيا لشارع سيدى حسن الأنور إلى نهايته ثم يسير شمالا إلى النقطـة التى يتقابل فيها شارع السـد البرانى بسـكة المذبح، ثم يسـير بعد ذلك متّجها فى طريقه إلى الشـمال فيمر فى حارة المغربى بجنينة قاميش فشارع بنى الأزرق بجنينة لاظ فشارع جنان الزهرى فشارع الشيخ عبد اللّه فحارة البير قدار فشارع البلاقسة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۸، ص: ۲۸۵

فشارع عماد الدين إلى نهايته البحرية، ثم ينعطف النيل مائلا إلى الشـرق و يسـير بجوار شارع الملكة نازلى حتى يصل إلى ميدان باب الحديـد، و من هناك ينعطف إلى الشـمال الشـرقى مارا بميـدان محطـة مصـر، ثم يمر بجوار محطـة كوبرى الليمون من الجهة البحرية الغربية، ثم يسـير فى شارع غمرة بطول مائتى متر، ثم يسـير إلى الشـمال محاديا لمخازن بضائع محطة مصـر من الجهة الشرقية، ثم يسير محاذيا لشارع مهمشة من الجهة الغربية، ثم يسير بعد ذلك محاذيا لجسر السكة الحديدية الذاهبة إلى الإسكندرية من الجهة الشرقية. و عنـد وصول النيل إلى نقطـة واقعـة على هذه السـكة تجاه عزبة الخمايسة يميل إلى الغرب حتى يصل إلى سـكن ناحية منية السـيرج، و هناك يسـير غربى سـكن هـذه الناحيـة، ثم يسـير إلى الشـمال بـدوران خفيف إلى الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالى عند فم الترعة الإسماعيلية.

هذا هو خط سير الشاطئ الأصـلىّ القديم للنيل تجاه مدينتى مصـر و القاهرة فى سـنة ۲۰ ه ۶۴۱ م أى وقت فتـح العرب لمصـر. و بعد ذلـك طرح البحر عـدة مرّات و لـذلك انتقـل الشـاطئ الأصـلى المـذكور من مكانه القـديم السابق ذكره إلى مكانه الحالى من مصـر القديمة إلى روض الفرج.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹